

تَحْفَاتُ الْمَلِكِ

تسليم
١٨٩٨

الملك

جميعها الاب يوحنا بلو والاب اغوستينوس روده
من الرهبنة اليسوعية

الجزء الاول

القسم الثاني

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى حِكَايَاتٍ مُبْتَدِئَةً
وَنَوَادِرَ حِكْمِيَّةٍ وَحَوَادِثَ تَلْخِيصًا



المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

في بيروت سنة ١٨٩٢

برخصة مجلس معارف ولاية بيروت الجليلة ٣٩

مِنْ مُقَدِّمَةِ بَهْنُودَ بْنِ سَحْوَانَ وَيَعْرِفُ بِعَلِيِّ بْنِ الشَّاهِ الْقَارِسِيِّ.

ذكر فيها السبب الذي من أجله

عمل بيدبا الفيلسوف الهندي راس البراهمة

لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه

مكليله ودمته

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْقَارِسِيُّ: كَانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ
وَضَعَ بَيْدَبَا الْفِيلَسُوفُ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَ كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ أَنْ
الْإِسْكَندَرِ ذَا الْقَرْنَيْنِ الرَّومِيِّ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ أَمْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا
بِنَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ سَارَ يُرِيدُ مُلُوكَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْفَرَسِ وَغَيْرِهِمْ. فَلَمْ
يَزَلْ يُحَارِبُ مِنْ نَازِعَةٍ وَيُؤَافِقُ مِنْ وَاقِعَةٍ وَيَسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ مِنْ
مُلُوكِ الْفَرَسِ وَهُمْ الطَّبَقَةُ الْأُولَى حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ وَقَرَّ مِنْ نَاوَاهُ
وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ. فَتَفَرَّقُوا طَرَائِقَ وَتَمَزَّقُوا خَرَائِقَ. فَتَوَجَّهَ
بِالْجُنُودِ نَحْوَ بِلَادِ الصِّينِ فَبَدَأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ الْهِنْدِ لِيَدْعُوهُ إِلَى
طَاعَتِهِ وَالْدُخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلَايَتِهِ. وَكَانَ عَلَى الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ
الزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبَاسٍ وَقُوَّةٍ مِرَاسٍ يُقَالُ لَهُ فُورٌ. فَلَمَّا بَلَغَهُ
إِقْبَالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِلْحَارِبَتِهِ وَاسْتَعَدَّ لِلْحَاذِيَتِهِ وَضَمَّ
إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ وَجَدَّ فِي الثَّالِثِ عَلَيْهِمْ وَجَعَ لَهُ الْعُدَّةُ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ
مِنَ الْفِيلَةِ الْمَعْدَّةِ لِلْحُرُوبِ وَالسِّبَاعِ الْمُضْرَاةِ بِالْوُثُوبِ مَعَ الْخُيُولِ
الْمُسْرَجَةِ وَالسُّيُوفِ الْقَوَاطِعِ وَالْحِرَابِ اللَّوَامِعِ.

فَلَمَّا قَرَّبَ خُذُو الْقُرْآنَ مِنْ فُورِ الْهِنْدِيِّ وَبَلَّغَهُ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ
 مِنَ الْحَيْلِ الَّتِي كَانَتْهَا قِطْعُ اللَّيْلِ مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ
 الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَقَالِيمِ . تَخَوَّفَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ تَقْصِيرِ يَمَعٍ بِهِ
 إِنْ عَجَلَ الْمُبَارَزَةَ . وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رَجُلًا ذَا حَيْلٍ وَكَأِيدٍ مَعَ
 حُسْنِ تَذْيِيرٍ وَتَجَرِبَةٍ . فَرَأَى إِعْمَالَ الْحِيَلِ وَالْتِهَمَلَ وَاحْتَفَرَ خَنْدَقًا
 عَلَى عَسْكَرِهِ وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ لِاسْتِثْبَاتِ الْحِيَلِ وَالتَّذْيِيرِ لِأَمْرِهِ وَكَيْفَ
 يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الْإِيقَاعِ بِهِ . فَاسْتَدْعَى بِالْمُنَجِّبِينَ وَأَمَرَهُمْ
 بِالْإِخْتِيَارِ لِيَوْمٍ مُوَافِقٍ تَكُونُ لَهُ فِيهِ سَعَادَةٌ لِحَارَبَةِ مَلِكِ الْهِنْدِ
 وَالنُّصْرَةَ عَلَيْهِ . فَاشْتَغَلُوا بِذَلِكَ وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لَا يَمُرُّ بِمَدِينَةٍ
 إِلَّا أَخَذَ الصَّنَاعَ الْمُشْرُورِينَ مِنْ صُنَائِعِهَا بِالْحَذَقِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ .
 فَتَنَّبَتْ لَهُ هِمَّتُهُ وَدَلَّتْهُ وَطَنَتُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الصَّنَاعِ الَّذِينَ مَعَهُ أَنْ
 يَصْنَعُوا خَيْلًا مِنْ نُحَاسٍ مُجُوفَةً عَلَيْهِمَا تَأْثِيلُ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى بَكْرِ
 تَجْرِي إِذَا دُفِعَتْ مَرَّتَ سِرَاعًا . وَأَمَرَ إِذَا فَرَعُوا مِنْهَا أَنْ تُخَشَى
 أَجْوَأُهَا بِالنَّطِ وَالْكِبْرِيتِ وَتُلْبَسَ وَتُقَدَّمَ أَمَامَ الصَّفِّ فِي الْقَابِ .
 وَوَقْتُ مَا يَلْتَقِي الْجَمْعَانِ تُضْرَمُ فِيهَا النَّيْرَانُ . فَإِنَّ الْفِيلَةَ إِذَا لَمَسَتْ
 خَرَاطِيمَهَا عَلَى الْفُرْسَانِ وَهِيَ حَامِيَةٌ وَلَتْ هَارِبَةٌ . وَأَوْعَزَ إِلَى
 الصَّنَاعِ بِالتَّشْمِيرِ وَالْإِنْكَاشِ وَالْفَرَاغِ مِنْهَا . فَحَدُّوا فِي ذَلِكَ وَعَجَّلُوا
 وَقَرَّبَ أَيْضًا وَقْتُ اخْتِيَارِ الْمُنَجِّبِينَ . فَأَعَادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رُسُلَهُ إِلَى
 فُورٍ بِمَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَالْإِذْعَانِ لِدَوْلَتِهِ . فَأَجَابَ جَوَابَ

مُصِرٍّ عَلَى مُخَالَفَتِهِ مُقِيمٍ عَلَى مُحَارَبَتِهِ . فَلَمَّا رَأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيمَتَهُ
سَارَ إِلَيْهِ بِأَهْبَتِهِ وَقَدَّمَ فُورَ الْفَيْلَةِ أَمَامَهُ وَدَفَعَتِ الرِّجَالُ تِلْكَ
الْحَيْلَ وَتَنَائِيلَ الْفَرَسَانِ فَأَقْبَلَتِ الْفَيْلَةُ نَحْوَهَا وَلَقَتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَيْهَا .
فَلَمَّا أَحَسَّتْ بِالْحَرَارَةِ أَتَقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا
وَمَضَتْ مَهْزُومَةً هَارِبَةً لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ وَلَا تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا وَطِئَتْهُ .
وَتَقَطَّعَ فُورٌ وَجَعَهُ وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الْإِسْكَندَرِ وَاتَّخَنُوا فِيهِمُ الْجِرَاحَ
وَعَاصَحَ الْإِسْكَندَرُ : يَا مَلِكَ الْهِنْدِ ابْرُزْ إِلَيْنَا وَاقْبَلْ عَلَى عُدَّتِكَ
وَعِيَا لِكَ وَلَا تَحْمِلْهُمْ إِلَى الْقَنَاءِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَرْوَةِ أَنْ يَرْمِيَ الْمَلِكُ
بِعُدَّتِهِ فِي الْمَهَالِكِ الْمُتَلَفَةِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُتَحَفِّضَةِ . بَلْ يَقِيهِمْ بِأَمْلِهِ
وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ . فَأَبْرَزَ إِلَى وَدَعِ الْجُنْدَ فَأَتَيْنَا قَهْرَ صَاحِبِهِ فَهُوَ
الْأَسْعَدُ : فَلَمَّا سَمِعَ فُورٌ مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ذَلِكَ الْكَلَامَ دَعَتْهُ نَفْسُهُ
لِمُلَاقَاتِهِ طَمَعًا فِيهِ وَظَنَ ذَلِكَ فُرْصَةً . فَبَرَزَ إِلَيْهِ الْإِسْكَندَرُ فَتَجَاوَلَا
عَلَى ظَهْرِي فَرَسَيْهِمَا سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ لَيْسَ يَأْتِي أَحَدُهُمَا مِنْ
صَاحِبِهِ فُرْصَةً وَلَا حِيلَةً وَلَمْ يَزَالَا يَتَعَارَكَانِ . فَلَمَّا أَعْيَا الْإِسْكَندَرُ
أَمْرُهُ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فُرْصَةً أَوْقَعَ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِعَسْكَرِهِ صِجَّةً عَظِيمَةً
أَرْتَجَّتْ لَهَا الْأَرْضُ وَالْعَسَاكِرُ . فَأَلْقَتْ فُورٌ عِنْدَمَا سَمِعَ الزَّعْعَةَ وَظَنَهَا
مَكِيدَةً فِي عَسَاكِرِهِ فَعَاجَلَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَلَتْهُ عَنْ سَرِجِهِ
فَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ . فَلَمَّا رَأَتْ الْهُنُودُ مَا نُزِلَ بِهِمْ وَمَا صَارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ
حَمَلُوا عَلَى الْإِسْكَندَرِ فَتَنَالُوهُ فَنَالُوا أَحْبَابًا مَعَهُ الْمَوْتَ . فَوَعَدَهُمْ مِنْ

نَفْسِهِ الْإِحْسَانَ وَمَنَحَهُ اللَّهُ اكْتَانَهُمْ . فَأَسْتَوَى عَلَى بِلَادِهِمْ وَمَلَكَ
عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ ثِقَاتِهِ وَأَقَامَ بِالْهِنْدِ حَتَّى اسْتَوْثَقَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ
أَمْرِهِمْ وَاتَّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ . ثُمَّ أَنْصَرَفَ عَنِ الْهِنْدِ وَخَلَفَ ذَلِكَ
الرَّجُلُ عَلَيْهِمْ وَمَضَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَا قَصَدَ لَهُ .

فَلَمَّا بَعْدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَنِ الْهِنْدِ بِجُيُوشِهِ تَغَيَّرَتِ الْهُنُودُ عَمَّا
كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ الرَّجُلِ الَّذِي خَلَفَهُ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا : لَيْسَ يَصْلُحُ
لِلسِّيَاسَةِ وَلَا تَرْضَى الْخَاصَّةُ وَلَا الْعَامَّةُ أَنْ يَمْلِكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا
لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ أَهْلِ بُلُوغِهِمْ . فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَسْتَدِلُّهُمْ
وَيَسْتَقْلَهُمْ . وَاجْتَمَعُوا يَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِهِمْ
فَمَلَكَوْا عَلَيْهِمْ مَلَكًا يُقَالُ لَهُ دَبْشَلِيمُ وَخَلَعُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ
خَلَفَهُ عَلَيْهِمْ الْإِسْكَندَرُ . فَلَمَّا اسْتَوْثَقَ لَهُ الْأَمْرُ وَاسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ
طَفَى وَبَنَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ وَجَمَلَ يَفْزُؤُ مِنْ حَوْلِهِ مِنَ الْمُلُوكِ . وَكَانَ
مَعَ ذَلِكَ مُؤَيَّدًا مُظَفَّرًا مَنْصُورًا فَهَابَتْهُ الرِّعْيَةُ . فَلَمَّا رَأَى مَا هُوَ
عَلَيْهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسَّطْوَةِ عَبَثَ بِالرِّعْيَةِ وَاسْتَصَفَرَ أَمْرَهُمْ وَأَسَاءَ
السِّيَرَةَ فِيهِمْ وَكَانَ لَا يَرْتَقِي حَالَهُ إِلَّا أَرْدَادَ عُنُوتًا .

فَكَثَّ عَلَى ذَلِكَ بُرْهَانٌ مِنْ دَهْرِهِ . وَكَانَ فِي زَمَانِهِ رَجُلٌ
فَلَسُوفٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ فَاضِلٌ حَكِيمٌ يُعْرِفُ بِفَضْلِهِ وَيُدْجَعُ فِي
الْأُمُورِ إِلَى قَوْلِهِ : يُقَالُ لَهُ يَيْدَبَا . فَلَمَّا رَأَى الْمُلْكُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ
الظُّلْمِ لِلرِّعْيَةِ فَكَّرَ فِي وَجْهِ الْحِيلَةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ وَرَدِّهِ إِلَى

الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ . فَجَمَعَ لِدَٰلِكَ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ : أَتَعْلَمُونَ
 مَا أُرِيدُ أَنْ أَشَاوِرَكُمْ فِيهِ . أَعْلَمُوا أَنِّي أَطَلْتُ الْفِكْرَةَ فِي دَبْشَلِيمَ
 وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ وَلُزُومِ الشَّرِّ وَرَدَاءَةِ السَّيْرِ
 وَسُوءِ الْعِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ . وَنَحْنُ مَا نَرُوضُ أَنْفُسَنَا بِمِثْلِ هَذِهِ
 الْأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ الْمُلُوكِ إِلَّا يَتَرُدُّهُمْ إِلَى فِئْلِ الْخَيْرِ وَلُزُومِ
 الْعَدْلِ . وَمَتَى أَتَغْلَتْنَا ذَلِكَ وَأَهْمَلْنَا لَزِمَتَنَا مِنْ وَقُوعِ الْمَكْرُوهِ بِنَا
 وَبُلُوغِ الْمَحْذُورَاتِ إِلَيْنَا أَنْ كُنَّا فِي أَنْفُسِ الْجُمَالِ أَجْمَلٍ مِنْهُمْ وَفِي
 الْعُيُونِ عِنْدَهُمْ أَقْلٌ مِنْهُمْ . وَلَيْسَ الرَّأْيُ عِنْدِي الْخُلُوعُ عَنِ الْوَطَنِ
 وَلَا يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيْرِ وَقُبْحِ
 الطَّرِيقَةِ . وَلَا يُمْكِنُنَا مُجَاهَدَتُهُ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِنَا وَلَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ
 نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَنْتَهِنَا لَنَا مُعَانَدَتُهُ . وَإِنْ أَحْسَنَّا مِنْهَا بِمُخَالَفَتِهِ
 وَإِنْكَارِنَا سُوءَ سَيْرَتِهِ كَانَ فِي ذَلِكَ بَوَارِنَا . وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ
 مُجَاوَرَةَ السَّبُعِ وَالْكَلْبِ وَالْحَيَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طِيبِ الْوَطَنِ وَتَضَارَةِ
 الْعَيْشِ غَدْرٌ بِالنَّفْسِ . وَإِنَّ الْفَلَسُوفَ حَقِيقٌ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ
 مَصْرُوفَةً إِلَى مَا يُحَصِّنُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ تَوَازُلِ الْمَكْرُوهِ وَلَوَاجِقِ
 الْمَحْذُورِ وَيَدْفَعُ الْخُوفَ لِاسْتِجْلَابِ الْمَحْبُوبِ . وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ
 فِلَسُوفًا كَتَبَ لِتَلْمِيذِهِ يَقُولُ : إِنْ مُجَاوَرَةَ رِجَالِ السُّوءِ وَالْمَصَاحِبَةِ
 لَهُمْ كَرَاكِبُ النَّجَرِ إِنْ هُوَ سَلِمَ مِنَ الْفَرْقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْخَوَافِ .
 فَإِذَا أُوْرِدَ نَفْسَهُ مَوَارِدُ الْهَلَكَاتِ وَمَصَادِرُ الْخَوَافِ عُدَّ مِنَ الْحَمِيرِ

أَلَيْ لَا نَفْسَ لَهَا . لِأَنَّ الْحَيَوَانَاتِ الْبَهِيمَةَ قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا
بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَتَوَقَّى الْمَكْرُوهَ . لِذَلِكَ لَمْ تَرَهَا تُورِدُ
أَنْفُسَهَا مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكَتُهَا . وَإِنَّمَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ مُهْلِكٍ
لَهَا مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا إِلَيَّ رُكِبَتْ فِيهَا شَحْمًا بِأَنْفُسِهَا وَصِيَانَةً لَهَا
إِلَى النُّفُورِ وَالتَّبَاعِدِ عَنْهُ

وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ لِأَنَّكُمْ أَسْرَيْتُمْ وَمَكَانُ سِرِّي
وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي وَبِكُمْ اعْتَصِدْتُ وَعَلَيْكُمْ اعْتَمَدْتُ . فَإِنَّ الْوَحِيدَ بِنَفْسِهِ
وَالْمُنْفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ وَلَا نَاصِرَ لَهُ . عَلَى أَنَّ الْعَاقِلَ
قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ مَا لَا يَبْلُغُ بِالْحَيْلِ وَالْجُنُودِ . وَالْمَثَلُ فِي ذَلِكَ . أَنَّ
قُبْرَةَ اتَّخَذَتْ أَذْحِيَّةً وَبَاضَتْ فِيهَا عَلَى طَرِيقِ الْفِيلِ وَكَانَ لِلْفِيلِ
مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ . فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فَوَطِئَ عُشَّ
الْقُبْرَةِ وَهَشَّمَ بَيْضَهَا وَقَتَلَ فِرَاحَهَا . فَلَمَّا نَظَرَتْ مَا سَاءَ مَا عِلِمَتْ
أَنَّ الَّذِي نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ لَا مِنْ غَيْرِهِ . فَطَارَتْ فَوَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ
بَاكِئَةً . ثُمَّ قَالَتْ : أَيُّهَا الْمَلِكُ . لِمَ هَشَّمْتَ بَيْضِي وَقَتَلْتَ فِرَاحِي
وَأَنَا فِي جِوَارِكَ أَفَعَلْتَ هَذَا اسْتِصْفَارًا مِنْكَ لِأَمْرِي وَأَحْتِقَارًا
لِشَأْنِي قَالَ هُوَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ : فَتَرَكْتُهُ وَأَنْصَرَفْتُ إِلَى جَمَاعَةِ
الطَّيْرِ فَشَكَّتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ . فَقَالَتْ لَهَا : وَمَا عَسَى أَنْ
نَبْلُغَ مِنْهُ وَنَحْنُ طُيُورٌ : فَقَالَتْ لِلْعَقَاقِرِ وَالْعَرَبَانِ : أَحِبُّ مِنْكُمْ أَنْ
تَصِرْنَ مَعِيَ إِلَيْهِ فَتَقْتُلَنَّ عَيْنِي فَإِنِّي أَحْتَالُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى :

فَأَجَابُوهَا إِلَى ذَلِكَ وَذَهَبُوا إِلَى الْفِيلِ فَلَمْ يَزَالُوا يَنْقُرُونَ عَلَيْهِ
 حَتَّى ذَهَبُوا بِهَا وَبَقِيَ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ . فَلَمَّا
 عَلِمَتْ ذَلِكَ مِنْهُ جَاءَتْ إِلَى غَدِيرٍ فِيهِ ضَفَادِعٌ كَثِيرَةٌ فَشَكَتْ إِلَيْهَا
 مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ . قَالَتِ الضَّفَادِعُ : مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فِي عِظَمِ الْفِيلِ
 وَأَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ : قَالَتْ : أَحِبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَسِيرُوا مَعِيَ إِلَى وَهْدَةٍ
 قَرِيبَةٍ مِنْهُ فَتَقْتُلُوا (١) فِيهَا وَتَضِجُوا فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُمْ لَمْ
 يَشُكْ فِي الْمَاءِ فِيهِوِي فِيهَا : فَأَجَابُوهَا إِلَى ذَلِكَ وَاجْتَمَعُوا فِي الْهَاوِيَةِ .
 فَسَمِعَ الْفِيلُ نَقِيقَ الضَّفَادِعِ وَقَدْ جَهَدَهُ الْعَطَشُ فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ
 فِي الْوَهْدَةِ فَأَعْتَظَمَ فِيهَا وَجَاءَتِ الْفُتَيْرَةُ تُرْفِرُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَتْ :
 أَيُّهَا الطَّاعِي الْمُنْتَرِ بِقُوَّتِهِ الْمُحْتَقِرُ لِأَمْرِي كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيلَتِي
 مَعَ صِغَرِ جُسْثِي عِنْدَ عِظَمِ جُسْثِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ

فَأَيْشِرَ كُلُّ مِنْكُمْ بِنَا يَسْنَعُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ : قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : أَيُّهَا
 الْفَيْلُسُوفُ الْفَاضِلُ وَالْحَكِيمُ الْعَادِلُ أَنْتَ الْمُقَدَّمُ فِينَا وَالْفَاضِلُ
 عَلَيْنَا وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ رَأْيِكَ وَفَهْمُنَا عِنْدَ فَهْمِكَ .
 غَيْرَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ السِّبَاحَةَ فِي الْمَاءِ مَعَ التِّسْلَاحِ تَقْرِيرٌ وَالذَّنْبُ

(١) يقال للضفدع والمقرب والدجاجة والمهر تقى اي صات ولائفى فح والارنب
 ضغب والسنور ماء والكلب نبج والختير قبع والميث زئر والسبع جلجل والذئب هوى
 والتعلب ضج والظبي بغم والغراب نعب والبازي صرصر والنسر صفر والحمام هدر
 والبط بقبق والصقر فقفق والذباب طن والمصفور شقشق والجمل هدر والفيل صاى
 والمزعر والشاة ثفت والجمل خار والفرس سهل والبغل شحج والمفوخق

فِيهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ . وَالَّذِي يُسْتَخْرَجُ السَّمُّ مِنْ تَابِ
الْحَيَّةِ فَيَتَلَمَّهُ فَلَيْسَ الذَّنْبُ لِلْحَيَّةِ . وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فِي غَائِبِهِ
لَمْ يَأْمَنْ وَثَبَّتْهُ . وَهَذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفْرِغْهُ النَّوَائِبُ وَلَمْ تُؤَدِّبْهُ التَّجَارِبُ
وَلَسْنَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَنْفُسِنَا سَطَوْتُهُ . وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ
سُورَتِهِ وَمَبَادِرَتِهِ بِسُوءِ إِذَا لَقِيْتَهُ بِغَيْرِ مَا يُحِبُّ : فَقَالَ الْحَكِيمُ
يَدَبًا : لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ لَكِنْ ذَا الرَّأْيِ الْحَازِمِ لَا يَدَعُ أَنْ
يُشَاوِرَ مَنْ هُوَ دُونَهُ أَوْ فَوْقَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ . وَالرَّأْيُ الْفَرْدُ لَا يُكْتَفَى بِهِ
فِي الْخَاصَّةِ وَلَا يُتَمَعُّ بِهِ فِي الْعَامَّةِ . وَقَدْ صَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى لِقَاءِ
دَبْشَايِمَ وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ وَتَيَّنَ لِي نَصِيحَتُكُمْ وَالْإِشْفَاقُ عَلَيَّ
وَعَلَيْكُمْ . غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا وَعَزَمْتُ عَزْمًا وَسَتَعْرِفُونَ حَدِيثِي
عِنْدَ الْمَلِكِ وَمُجَابَوْنِي إِيَّاهُ . فَإِذَا اتَّصَلَ بِكُمْ خُرُوجِي مِنْ عِنْدِهِ
فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ : وَصَرَفْهُمْ وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلَامَةِ
ثُمَّ إِنْ يَدَبًا اخْتَارَ يَوْمًا لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَلِكَ
الْوَقْتُ أَلْقَى عَلَيْهِ مِسْوَحَهُ وَهِيَ لِبَاسُ الْبَرَاهِمَةِ وَقَصَدَ بَابَ الْمَلِكِ
وَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِ إِذْنِهِ وَأُرْشِدَ إِلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَأَعْلَمَهُ وَقَالَ : إِنِّي
رَجُلٌ قَصَدْتُ الْمَلِكَ فِي نَصِيحَةٍ : فَدَخَلَ الْإِذْنَ عَلَى الْمَلِكِ فِي وَقْتِهِ
وَقَالَ : يَا بَابَ رَجُلٍ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ يُقَالُ لَهُ يَدَبًا ذَكَرَ أَنْ مَعَهُ لِلْمَلِكِ
نَصِيحَةٌ : فَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَكَفَّرَ وَسَجَدَ لَهُ وَأَسْتَوَى
قَائِمًا وَسَكَتَ . وَفَكَرَ دَبْشَايِمُ فِي سَكُوتِهِ وَقَالَ : إِنْ هَذَا لَمْ يَصِدَّنَا

إِلَّا لِأَمْرَيْنِ . إِمَّا أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَّا شَيْئًا يُضِلُّ بِهِ حَالَهُ . أَوْ لِأَمْرٍ لِحَقِّهِ
فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِهِ طَاقَةٌ . ثُمَّ قَالَ : إِنْ كَانَ لِلْمُلُوكِ فَضْلٌ فِي مَمْلَكَتِهَا
فَإِنَّ لِلْحُكَمَاءِ فَضْلًا فِي حِكْمَتِهَا أُعْظِمَ . لِأَنَّ الْحُكَمَاءَ أَغْنِيَاءُ عَنْ
الْمُلُوكِ بِالْعِلْمِ . وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ الْحُكَمَاءِ بِالْمَالِ . وَقَدْ
وَجَدْتُ أَلَمَ وَالْحَيَاءِ الْفَيْنِ مُتَالِفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ مَتَى فُتِدَ أَحَدُهُمَا لَمْ
يُوجَدْ الْآخَرُ كَالْمُتَصَافِيَيْنِ إِنْ عُدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطِبْ صَاحِبُهُ
نَفْسًا بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأْسُفًا عَلَيْهِ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ الْحُكَمَاءِ
وَيُكْرِمَهُمْ وَيَعْرِفَ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ وَيَصْنَحَهُمْ عَنِ الْمَوَاقِفِ الْوَاهِنَةِ
وَيُزَيِّرَهُمْ عَنِ الْمَوَاطِنِ الرَّذَلَةِ كَانَ مِنْ حُرْمِ عَقْلِهِ وَخَسِرَ دُنْيَاهُ
وَزَلَمَ الْحُكَمَاءَ حُقُوقَهُمْ وَعُدَّ مِنَ الْجُهَالِ : ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى
يَدِّبَا وَقَالَ لَهُ : نَظَرْتُ إِلَيْكَ يَا يَدِّبَا سَاكِتًا لَا تَعْرِضُ حَاجَتَكَ
وَلَا تَذْكُرُ بُنْيَتَكَ فَقُلْتُ : إِنْ الَّذِي أَسْكَنَهُ هَيْبَةُ سَاوَرَتَهُ أَوْ حَيْرَةُ
أَذْرَكَهُ وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ طُولِ وَقُوفِكَ وَقُلْتُ : لَمْ يَكُنْ لِيَدِّبَا
أَنْ يَطْرُقَنَا عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ إِلَّا لِأَمْرٍ حَرَكَهُ لِذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ
أَهْلِ زَمَانِهِ فَهَلَّا نَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِ فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَمِيمِ
نَالِهِ كُنْتُ أَوَّلَى مَنْ أَخَذَ يَدَيْهِ وَسَارَعَ فِي تَشْرِيفِهِ وَتَقَدَّمَ فِي
الْبُلُوغِ إِلَى مُرَادِهِ وَإِعْزَازِهِ . وَإِنْ كَانَتْ بُنْيَتُهُ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ
الدُّنْيَا أَمَرْتُ بِإِرْضَائِهِ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا أَحَبَّ وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ
الْمُلْكِ وَمِمَّا لَا يَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَبْذُلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَقَادُوا إِلَيْهِ

نَظَرْتُ فِي قَدَرِ عُصُوبَتِهِ . عَلَى أَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِي عَلَى إِدْخَالِ
 نَفْسِهِ فِي بَابِ مَسْئَلَةِ الْمُلُوكِ . وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الرِّعَايَةِ يَقْصِدُ
 فِيهِ سَرَفَ عِنَايَتِي إِلَيْهِمْ . نَظَرْتُ مَا هُوَ . فَإِنَّ الْحُكَمَاءَ لَا يُشِيرُونَ
 إِلَّا بِالْخَيْرِ وَالْجَهْلُ يُشِيرُونَ بِضِدِّهِ وَأَنَا قَدْ فَتَحْتُ لَكَ بِالْكَلَامِ .
 فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ يَدَّ بَا مِنْ الْمَلِكِ أَفْرَجَ عَنْهُ رَوْعَهُ وَسَرِي عَنْهُ مَا
 كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ وَكَثُرَ لَهُ وَسْجَدٌ . ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ
 وَقَالَ : أَوَّلُ مَا أَقُولُ . أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بَقَاءَ الْمَلِكِ عَلَى الْأَبَدِ وَدَوَامَ
 مُلْكِهِ عَلَى الْأَمَدِ . لِأَنَّهُ قَدْ مَنَحَنِي الْمَلِكُ فِي مَقَامِي هَذَا مَحَلًّا جَعَلَهُ
 شَرَفًا لِي عَلَى جَمِيعِ مَنْ بَعْدِي مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَذِكْرًا بَاقِيًا عَلَى الدَّهْرِ
 عِنْدَ الْحُكَمَاءِ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ بِوَجْهِهِ مُسْتَبْشِرًا بِهِ فَرِحًا بِمَا
 بَدَأَ لَهُ مِنْهُ وَقَالَ : قَدْ عَظَّفَ الْمَلِكُ عَلَيَّ بِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ . وَالْأَمْرُ
 الَّذِي دَعَانِي إِلَى الدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ وَحَمَلَنِي عَلَى الْخَاطَرَةِ فِي كَلَامِهِ
 وَالْإِقْدَامِ إِلَى الْمَلِكِ نَصِيحَةٌ اخْتَصَصْتُهَا بِهَا دُونَ غَيْرِهِ وَسَيَعْلَمُ مَنْ
 يَتَّصِلُ بِهِ ذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَقْصِرْ عَنْ غَايَةٍ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى
 الْحُكَمَاءِ . فَإِنْ فَسَحَ فِي كَلَامِي وَوَعَاهُ عَنِّي فَهُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ وَمَا
 يَرَاهُ . وَإِنْ هُوَ أَلْقَاهُ فَقَدْ بَلَغْتُ مَا يَلْزِمُنِي وَخَرَجْتُ مِنْ لَوْمٍ .
 يَلْحَقْنِي : قَالَ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا تَكَلَّمْ مَعًا شَيْئًا فَإِنِّي مُصْنِعٌ إِلَيْكَ
 وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ وَسَامِعٌ مِنْكَ حَتَّى اسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَكَ إِلَى آخِرِهِ
 وَأَجَازِيكَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ

قَالَ يَدَبًا: إِنَّ الْأُمُورَ الَّتِي أُخْتَصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ سَائِرِ
الْحَيَوَانِ أَرْبَعَةٌ أَشْيَاءٌ وَهِيَ جَمَاعٌ مَا فِي الْعَالَمِ وَهِيَ: الْحِكْمَةُ وَالْعِفَّةُ
وَالْعَقْلُ وَالْعَدْلُ. وَالْعِلْمُ وَالْأَدَبُ وَالرَّوِيَّةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْحِكْمَةِ.
وَالْحِلْمُ وَالصَّبْرُ وَالْوَقَارُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَقْلِ. وَالْحَيَاءُ وَالْكَرَمُ
وَالصِّيَانَةُ وَالْأَنْفَةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعِفَّةِ. وَالصِّدْقُ وَالْإِحْسَانُ
وَالْمُرَاقَبَةُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَدْلِ. وَهَذِهِ هِيَ الْمَحَاسِنُ
وَأَضْدَادُهَا هِيَ الْمَسَاوِي ثُمَّ كَمُوتُ هَذِهِ فِي وَاحِدٍ لَمْ تُخْرِجْهُ
الزِّيَادَةُ فِي نِعْمَةٍ إِلَى سُوءِ الْحَظِّ مِنْ دُنْيَاهُ وَلَا إِلَى نَقْصٍ وَلَمْ
يَتَأَسَفْ عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ التَّوْفِيقُ بِقَائِهِ وَلَمْ يُخْزِنَهُ مَا تَجَرَّى بِهِ
الْمَقَادِيرُ فِي مَالِكِهِ وَلَمْ يَدْهَشْ عِنْدَ مَكْرُوهِهِ. فَالْحِكْمَةُ كَثْرُ لَا يَنْتَنِي
عَلَى إِنْتَاقٍ. وَذَخِيرَةٌ لَا يُضْرَبُ لَهَا بِالْإِمْلَاقِ وَحُلَّةٌ لَا تَخْلُقُ جِدَّتَهَا
وَلَذَّةٌ لَا تُضْرَمُ مُدَّتَهَا. وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مُقَامِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ
أَمْسَكْتُ عَنْ أَيْدِيهِ بِالْكَلَامِ. فَإِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلَّا لِهَيْبَتِهِ
وَالْإِجْلَالِ لَهُ. وَلَعَمْرِي إِنَّ الْمُلُوكَ لِأَهْلٌ أَنْ يَهَابُوا لِاسِيَا مَنْ هُوَ
فِي الْمَنْزِلَةِ الَّتِي جَلَّ فِيهَا الْمَلِكُ عَنْ مَنَازِلِ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ. وَقَدْ قَالَتْ
الْعُلَمَاءُ: أَلْزَمَ السُّكُوتَ فَإِنْ فِيهِ سَلَامَةٌ وَتَجَنَّبَ الْكَلَامَ الْفَارِغَ
فَإِنْ عَاقِبَتُهُ النَّدَامَةُ

وَحُكِيَ أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ صَنَعُوا مَجْلِسَ مَالِكٍ فَقَالَ لَهُمْ:
لِيَتَكَلَّمُ كُلُّ وَاحِدٍ بِكَلَامٍ يَكُونُ أَصْلًا لِلْأَدَبِ: فَقَالَ أَحَدُهُمْ:

أَفْضَلُ خَلَّةِ الْعُلَمَاءِ السُّكُوتُ : وَقَالَ الثَّانِي : إِنْ مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ
لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِهِ : وَقَالَ الثَّالِثُ : أَنْفَعُ
الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَنْبَغِيهِ : قَالَ الرَّابِعُ : أَرْوَحُ
الْأُمُورِ لِلْإِنْسَانِ التَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ : وَاجْتِمَاعُ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ مُلُوكُ
الْأَقَالِيمِ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَفَارِسَ وَالرُّومِ وَقَالُوا : يَنْبَغِي أَنْ
يَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكَلِمَةٍ تُذَوِّنُ عَنْهُ عَلَى غَايِرِ الدَّهْرِ : قَالَ
مَلِكُ الصِّينِ : أَنَا عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ : قَالَ
مَلِكُ الْهِنْدِ عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعُهُ وَإِنْ
كَانَتْ عَلَيْهِ أَوْبَقَتْهُ : قَالَ مَلِكُ فَارِسَ : أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالْكَلِمَةِ
مَلَكَتْنِي وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكَتْهَا : قَالَ مَلِكُ الرُّومِ : مَا نَدِمْتُ عَلَى
مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ قَطُّ وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيرًا . وَالسُّكُوتُ
عِنْدَ الْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ الْهَذَرِ الَّذِي لَا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلَى نَفْعٍ وَأَفْضَلُ
مَا بِهِ اسْتَظَلَ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ

غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ أَطَالَ اللَّهُ مُدَّتَهُ لَمَّا فَسَحَ لِي فِي الْكَلَامِ
وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ كَانَ أَوَّلِي مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ غَرَضِي
أَنْ تَكُونَ ثَمَرَةً ذَلِكَ لَهُ دُونِي وَأَنَا أَخْتَصُّهُ بِالْقَائِدَةِ قَبْلِي . عَلَى أَنْ
الْعُقْبَى هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلَامِي لَهُ وَإِنَّمَا نَفْعُهُ وَشَرَفُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ
وَأَكُونُ أَنَا قَضَيْتُ فَرَضًا وَجَبَ عَلَيَّ فَأَقُولُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ فِي
مَنَازِلِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ الَّذِينَ أَسَّسُوا الْمُلْكَ قَبْلَكَ

وَشَدُّوهُ دُونَكَ وَبَنُوا الْقَلَاعَ وَالْجُصُونَ وَهَدُّوا الْبِلَادَ وَقَادُوا
الْجُيُوشَ وَاسْتَجَاشُوا الْعُدَّةَ وَطَالَتْ لَهُمُ الْمُدَّةُ وَاسْتَكْثَرُوا مِنْ
السَّلَاحِ وَالْكَرَاعِ وَعَاشُوا الدُّهْرَ فِي الْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ . فَلَمْ
يَنْعَمْ ذَلِكَ مِنْ اكْتِسَابِ جَمِيلِ الذِّكْرِ وَلَا قَطْعِهِمْ عَنْ اِغْتِنَامِ
الشُّكْرِ وَلَا اسْتِعْمَالِ الْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ خُوِّلُوهُ وَالْإِرْفَاقِ بَيْنَ وَلُوهُ
وَحَسَنِ السَّيْرِ فِيمَا تَقْلُدُوهُ مَعَ عِظَمِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ غِرَّةِ الْمَلِكِ
وَسَكْرَةِ الْاِقْتِدَارِ

وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ الطَّالِعُ كَوْكَبُ سَعْدِهِ قَدْ
وَرِثْتَ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عُدَّتِهِمْ
فَأَقَمْتَ فِيهَا خَوْلَتَ مِنَ الْمَلِكِ وَوَرِثْتَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ . فَلَمْ
تَقُمْ فِي ذَلِكَ بِحَقِّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ بَلْ طَفِيتَ وَبَغَيْتَ وَعَتَوْتَ وَعَلَوْتَ
عَلَى الرِّعْيَةِ وَأَسَاءْتَ السَّيْرَةَ وَعَظُمْتَ مِنْكَ الْبَلِيَّةُ . وَكَانَ الْأَوَّلَى
وَالْأَشْبَهُ بِكَ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَ أَسْلَافِكَ وَتَتَّبِعَ آثَارَ الْمُلُوكِ قَبْلَكَ
وَتَتَّقُوْا مُحَاسِنَ مَا أَتَقَوُّهُ لَكَ وَتُقْلَعَ عَمَّا عَارُهُ لَازِمٌ لَكَ وَشَيْنُهُ وَاقِعٌ
عَلَيْكَ . وَتُحْسِنَ النَّظَرَ بِرِعْيَتِكَ وَتُسَنِّ لَهْمُ سُنَنِ الْخَيْرِ الَّذِي يَبْقَى
بَعْدَكَ ذِكْرُهُ وَيُقْبَلُكَ الْجَمِيلُ فَخْرُهُ . وَيَكُونُ ذَلِكَ أَبْقَى عَلَى السَّلَامَةِ
وَأَدْوَمَ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ . فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُفْتَرَّ مِنْ اسْتِعْمَالِ فِي أُمُورِهِ
الْبَطَرَ وَالْأَمْنِيَّةَ . وَالْحَازِمَ الْاَيْبَ مِنْ سَاسِ الْمَلِكِ بِالْمُدَارَاةِ وَالرِّفْقِ .
فَإَنْظُرْ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَا أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ وَلَا يَحْتَلَنُ ذَلِكَ عَلَيْكَ فَلَمْ

أَتَكَلَّمُ أَتَبْعَاءَ غَرَضٍ يُجَازِينِي بِهِ وَلَا أَلْتِمَاسَ مَرْوْفٍ تُكَافِيَنِي فِيهِ
وَأَكِينَنِي أَتَيْتُكَ نَاصِحًا مُشْفِقًا عَلَيْكَ

فَلَمَّا فَرَغَ يَدَبًا مِنْ مَقَالَتِهِ وَقَضَى مُنَاصَحَةَ الْمَلِكِ أَوْغَرَ قَلْبَ
الْمَلِكِ فَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْجَوَابِ اسْتِصْغَارًا لِأَمْرِهِ وَقَالَ : لَقَدْ تَكَلَّمْتَ
بِكَلَامٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ
وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيَّ مَا أَقَدَّمْتَ عَلَيْهِ . فَكَيْفَ أَنْتَ مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ
وَضُفِّ بِنَيْتِكَ وَعَجْزِ قُوَّتِكَ . وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ إِنْجَابِي مِنْ إِقْدَامِكَ
عَلَيَّ وَتَسَلُّطِكَ بِإِسَانِكَ فِيمَا جَاوَزْتَ فِيهِ حَدَّكَ . وَمَا أَجِدُ شَيْئًا فِي
تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَتَبْلُغُ مِنَ التَّنْكِيلِ بِكَ . فَذَلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ
عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيُرْوَمَ مَا رُمْتَ أَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُمْ
فِي مَجَالِسِهِمْ : ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصَلَّبَ . فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيمَا أَمَرَ
فَكَرَّ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فَأَحْجَمَ عَنْهُ . ثُمَّ أَمَرَ بِجَنْسِهِ وَتَقْصِيدِهِ

فَلَمَّا حَبَسَ أَنْفَذَ بِطَلَبِ تَلَامِيذَتِهِ وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَهَرَبُوا
فِي الْبِلَادِ وَأَعْتَصَمُوا بِجَزَائِرِ الْبَحَارِ . فَكَثَرَ يَدَبًا فِي بَيْتِهِ أَيَّامًا
لَا يَسْأَلُ الْمَلِكُ عَنْهُ وَلَا يَلْتَفِتُ وَلَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ .
حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي سَهَدَ الْمَلِكُ سَهْدًا شَدِيدًا فَطَالَ سَهْدُهُ
فَمَدَّ إِلَى الْهَلَكِ بَصَرَهُ وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ الْهَلَكِ وَحَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ .
فَأَغْرَقَ الْفِكْرُ فِيهِ فَسَلَكَ بِهِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ
أُمُورِ الْهَلَكِ وَالْمُسْئَلَةِ عَنْهُ . فَذَكَرَ عِنْدَ ذَلِكَ يَدَبًا وَتَفَكَّرَ فِيمَا كَلَّمَهُ

بِهِ فَأَرْعَى لِذَلِكَ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: لَقَدْ أَسَأْتُ فِيمَا صَنَعْتُ بِهَذَا
 الْفَيْلَسُوفِ وَضَعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ وَحَمَلْتَنِي عَلَى ذَلِكَ سُرْعَةَ الْغَضَبِ.
 فَقَدْ قَالَتْ الْحُكَمَاةُ: أَرْبَعَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي الْمُلُوكِ. الْغَضَبُ
 فَإِنَّهُ أَجْدَرُ الْأَشْيَاءِ مَقْتًا. وَالْجُلُ فَإِنَّ صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْدُورٍ مَعَ ذَاتِ
 يَدِهِ. وَالْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَاوِرَهُ. وَالرِّفْقُ فِي الْحَاوِرَةِ فَإِنَّ
 السَّفَةَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا. وَإِنِّي أَتَى إِلَى رَجُلٍ نَصَحَ لِي وَلَمْ يَكُنْ
 بَلَاغًا فَعَامَلْتُهُ بِضِدِّ مَا يَسْتَحِقُّ وَكَافَأْتُهُ بِخِلَافِ مَا يَسْتَوْجِبُ. وَمَا
 كَانَ هَذَا جَزَاءَهُ مِنِّي بَلْ كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ وَأَنْقَادًا
 لِمَا يُشِيرُ بِهِ: ثُمَّ أَنْقَذَ فِي سَاعَتِهِ مِنْ يَأْتِيهِ بِهِ

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا يَدَبَا أَلَسْتَ الَّذِي قَصَدْتَ
 إِلَى تَقْصِيرِ هَمَّتِي وَتَعْجِزَتِ رَأْيِي فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ إِنْفًا: فَقَالَ
 لَهُ يَدَبَا: أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ الصَّادِقُ الرَّفِيقُ إِنَّمَا نَبَأْتُكَ بِمَا
 فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ وَلِرَعِيَّتِكَ وَدَوَامُ مُلْكِكَ لَكَ: قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا يَدَبَا
 أَعِذْ عَلَيَّ كَلَامَكَ كُلَّهُ وَلَا تَدَعْ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِئْتُ بِهِ: فَجَعَلَ يَدَبَا
 يَنْثُرُ كَلَامَهُ وَالْمَلِكُ مُصْغٍ إِلَيْهِ وَجَعَلَ دَبْشَايِمُ كَلَامًا سَمِعَ مِنْهُ
 نَبَأًا يَنْكُتُ الْأَرْضَ بِشَيْءٍ فِي يَدِهِ. ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى يَدَبَا وَأَمَرَهُ
 بِالْجُلُوسِ وَقَالَ لَهُ: يَا يَدَبَا إِنِّي قَدْ اسْتَعَذْتُ بِكَ كَلَامَكَ وَحَسُنَ
 وَقَعُهُ مِنْ قَلْبِي وَأَنَا نَاطِرٌ فِي الَّذِي أَشَرْتُ بِهِ وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتُ:
 ثُمَّ أَمَرَ بِهُودِهِ فَحَوَّتْ وَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِهِ وَتَلَقَّاهُ. فَقَالَ يَدَبَا:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ فِي دُونِ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نُهْيَةً لِمِثْلِكَ : قَالَ : صَدَقْتَ
 أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى جَمِيعِ أَقْصَايِ
 مَمْلَكَتِي : فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَغْنِيَنِي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ فَإِنِّي لَسْتُ
 مُضْطَلَعًا بِتَمْوِيلِهِ : فَأَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ . فَلَمَّا أَنْصَرَفَ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي
 فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ قَبِيحٍ فَرَدَّهُ . وَقَالَ : إِنِّي فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ فِيمَا عَرَضْتُ
 عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لَا يَهُومُ إِلَّا بِكَ وَلَا يَنْهَضُ بِغَيْرِكَ وَلَا يَضْطَلَعُ
 بِهِ سِوَاكَ فَلَا تُخَالِفْنِي فِيهِ . فَأَجَابَهُ بَيِّدًا إِلَى ذَلِكَ

وَكَانَ عَادَةً ذَلِكَ الزَّمَانِ إِذَا اسْتَوْزَرُوا وَزِيرًا أَنْ يَمْقَدُوا عَلَى
 رَأْسِهِ تَاجًا وَيَرْكَبُ فِي أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَيُطَافُ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ . فَأَمَرَ الْمَلِكُ
 أَنْ يُفْعَلَ ذَلِكَ بَيِّدًا . فَوُضِعَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ وَرَكِبَ فِي الْمَدِينَةِ
 وَرَجَعَ وَجَلَسَ بِمَجْلِسِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ يَأْخُذُ لِلدَّيْنِ مِنَ الشَّرِيفِ
 وَيُسَاوِي بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ وَرَدَّ الْمَظْلَمَ وَوَضَعَ سُنَنَ الْعَدْلِ
 وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ . وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِتَلَامِيذَتِهِ فَجَاوَهُ مِنْ كُلِّ
 مَكَانٍ فَرِحِينَ بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مِنْ جَدِيدِ رَأْيِ الْمَلِكِ فِيهِ . وَشَكَرُوا
 اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِ بَيِّدَا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ
 سُوءِ السَّيَرَةِ . وَاتَّخَذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا يُعِيدُونَ فِيهِ فَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ
 عِيدٌ عِنْدَهُمْ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ

ثُمَّ إِنَّ بَيِّدَا لما خَلَا فِكْرَهُ مِنْ اشْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ تَفَرَّغَ لَوْضَعِ
 كُتُبِ السِّيَاسَةِ وَنَشِطَ لَهَا . فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرَةً فِيهَا دَقَائِقُ الْحِيلِ

وَمَضَى الْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ بَيْدَبَا مِنْ حُسْنِ السَّيْرِ وَالْعَدْلِ فِي
الرَّعِيَّةِ . فَرَغِبَتْ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ الَّذِينَ كَانُوا فِي نَوَاحِيهِ وَأَثَقَدَتْ إِلَيْهِ
الْأُمُورُ عَلَى أَسْتَوَائِهَا . وَفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . ثُمَّ إِنَّ
بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِيذَهُ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُمْ وَوَعَدَهُمْ وَعَدَا جَمِيلًا وَقَالَ لَهُمْ :
لَسْتُ أَشْكُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي تَهْوِيكُمْ وَقَدْ دَخُولِي عَلَى الْمَلِكِ أَنْ
قُلْتُمْ إِنَّ بَيْدَبَا قَدْ ضَاعَتْ حِكْمَتُهُ وَبَطَلَتْ فِكْرَتُهُ إِذْ عَزَمَ عَلَى الدُّخُولِ
عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ الطَّاعِي . فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَتِيجَةَ رَأْيِي وَصِحَّةَ فِكْرِي
وَأَنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلًا بِهِ لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ الْحُكَمَاءِ قَبْلِي تَقُولُ :
إِنَّ الْمُلُوكَ لَهَا سَكْرَةٌ كَسَكْرَةِ الشَّرَابِ : فَأَلْمُلُوكُ لَا تُفِيقُ مِنَ السَّكْرَةِ
إِلَّا بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ وَأَدَبِ الْحُكَمَاءِ . وَالْوَلَايَةُ عَلَى الْمُلُوكِ أَنْ يَتَّبِعُوا
بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ . وَالْوَلَايَةُ عَلَى الْعُلَمَاءِ تَقْوِيمُ الْمُلُوكِ بِالسَّنَنِ
وَتَأْدِيبُهَا بِحِكْمَتِهَا وَإِظْهَارُ الْحُجَّةِ الْبَيِّنَةِ الْإِلَازِمَةِ لَهُمْ لِيُرْتَدِعُوا عَمَّا
هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعْوَجَاجِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ . فَوَجَدْتُ مَا قَالَتْ
الْعُلَمَاءُ فَرَضًا وَاجِبًا عَلَى الْحُكَمَاءِ لِمُلُوكِهِمْ لِيُوقِظُوهُمْ مِنْ سِنَةِ
سَكْرَتِهِمْ كَالطَّيِّبِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ الْأَجْسَادِ
عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ رَدُّهَا إِلَى الصِّحَّةِ . فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ أَوْ أَنْ أَمُوتَ وَلَا
يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ بَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفُ فِي
زَمَانِ دَبْشَلِيمِ الطَّاعِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّهُ لَمْ
يُمْكِنْ كَلَامُهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ قَالُوا كَانَ الْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جَوَارِهِ

أُولَى بِهِ وَالْإِثْرَ حَاجٌ عَنِ الْوَطَنِ شَدِيدٌ. فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُودَ بِحَيَاتِي
فَأَكُونَ قَدْ أَتَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحُكَمَاءِ بَعْدِي عُذْرًا. فَحَمَلْتُهَا عَلَى التَّغْرِيبِ
وَالظَّنِّ بِمَا أُرِيدُهُ. وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَايِنُوهُ. فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ
الْأَمْثَالِ: إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلَّا بِأَحَدَى ثَلَاثٍ. إِمَّا بِمَشَقَّةٍ تَنَالُهُ
فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا بِوَضِيعَةٍ فِي مَالِهِ أَوْ وَكْسٍ فِي دِينِهِ: مَنْ لَمْ يَرْكَبِ
الْأَهْوَالَ لَمْ يَنْلِ الرِّغَائِبَ. وَإِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ بَسَطَ لِسَانِي
فِي أَنْ أَضَعُ كِتَابًا فِيهِ ضُرُوبُ الْحِكْمَةِ. فَلْيَضَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ
شَيْئًا فِي أَيِّ فَنٍّ شَاءَ وَلْيَعْرِضْهُ عَلَيَّ لِأَنْظُرَ مِقْدَارَ عَقْلِهِ وَأَيَّنَ بَلَغَ
مِنْ الْحِكْمَةِ فَهَمُّهُ: قَالُوا: أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ وَاللَّيِّبُ الْعَاقِلُ
وَالَّذِي وَهَبَ لَكَ مَا مَتَحَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ وَالْأَدَبِ وَالْفَضِيلَةِ
مَا خَطَرَ هَذَا بِمُلُوبِنَا قَطُّ وَأَنْتَ رَئِيسُنَا وَفَاضِلُنَا وَعَلَى يَدِكَ أَنْتَمَسْنَا
وَلَكِنْ سَنَجِدُ أَنْفُسَنَا فِيهَا أَمَرَتْ

وَمَكَتِ الْمَلِكُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ السَّيْرِ زَمَانًا يَتَوَلَّى ذَلِكَ
لَهُ بَيْدَبَا وَيُؤْمُ بِهِ. ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا اسْتَقَرَّ لَهُ الْمَلِكُ وَسَقَطَ
عَنْهُ النَّظَرُ فِي أُمُورِ الْأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ ذَلِكَ بَيْدَبَا صَرَفَ هِمَّتَهُ
إِلَى النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي وَضَعَتْهَا فَلَاسِفَةُ الْهِنْدِ لِأَبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ.
فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيْضًا كِتَابٌ مَشْرُوحٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ
تُذَكَّرُ فِيهِ آيَاتُهُ كَمَا ذُكِرَ آبَاؤُهُ وَلَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ. فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى
ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَوْمُ بِذَلِكَ إِلَّا بِبَيْدَبَا فَدَعَاهُ وَخَلَا بِهِ وَقَالَ لَهُ:

يَا بَيْدَبَا إِنَّكَ حَكِيمٌ الْهِنْدِ وَفَلَسُوفَهَا وَإِنِّي فَكَّرْتُ وَنَظَرْتُ فِي
خَزَائِنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْمُلُوكِ قَبْلِي فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ أَحَدًا إِلَّا وَقَدْ
وَضَعَ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ آيَاتِهِ وَسِيرَتَهُ وَيُنَبِّئُ عَنْ أَدَبِهِ وَأَهْلِ
مَمْلَكَتِهِ . فَفَنُهُ مَا وَضَعَهُ الْمُلُوكُ لِأَنْفُسِهَا وَذَلِكَ لِتَفْضُلِ حِكْمَةٍ فِيهَا .
وَمِنْهُ مَا وَضَعَتْهُ حُكَمَاؤُهَا . وَأَخَافُ أَنْ يُلْحَقَنِي مَا لَحِقَ أَوْلَئِكَ بِمَا لَا
حِيلَةَ لِي فِيهِ وَلَا يُوجَدُ فِي خَزَائِنِي كِتَابٌ أَذْكُرُ فِيهِ بَعْدِي وَأَنْسَبُ
إِلَيْهِ كَمَا ذَكَرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي بِكُتُبِهِمْ . وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي
كِتَابًا يَلِينَا تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَكَ . يَكُونُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ الْعَامَّةِ
وَتَأْدِيبَهَا وَبَاطِنُهُ أَخْلَاقَ الْمُلُوكِ وَسِيَاسَتَهَا لِلرَّعِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْمَلِكِ
وَعِزِّدَتِهِ فَيَسْقُطَ بِذَلِكَ عَنِّي وَعَنَّهُمْ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ الْمَلِكِ .
وَأُرِيدُ أَنْ يُبْقِيَ لِي هَذَا الْكِتَابُ بَعْدِي ذِكْرًا عَلَى غَايِرِ الدُّهُورِ
فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا كَلَامَهُ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَيُّهَا
الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ . عَلَانِجُكَ وَغَابَ نَحْسُكَ وَدَامَتْ أَيَّامُكَ . إِنْ
الَّذِي قَدْ طُبِعَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ جُودَةِ الْقَرِيحَةِ وَوُفُورِ الْعَقْلِ حَرَّكَهُ
لِعَالِي الْأُمُورِ وَنَمَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهَمَّتْهُ إِلَى أَشْرَفِ الْمَرَاتِبِ مَنْزِلَةً
وَأَبْعَدَهَا غَايَةً . وَأَدَامَ اللَّهُ سَعَادَةَ الْمَلِكِ وَأَعَانَهُ عَلَى مَا عَزَمَ مِنْ
ذَلِكَ وَأَعَاتَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ . فَلْيَأْمُرِ الْمَلِكُ بِمَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ
فَإِنِّي صَاحِرٌّ إِلَى غَرَضِهِ مُجْتَهِدٌ فِيهِ بِرَأْيِي : قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا لَمْ تَرَلْ
مَوْصُوفًا بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَطَاعَةِ الْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ . وَقَدْ اخْتَبَرْتُ

مِنْكَ ذَلِكَ وَأَخْتَرْتُ أَنْ تَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ وَتُعْمَلَ فِيهِ فِكْرُكَ
وَتُجْهَدَ فِيهِ نَفْسَكَ بِغَايَةِ مَا تُحَدُّ إِلَيْهِ السَّبِيلَ . وَلَيْكُنْ مُشْتَمِلًا عَلَى
الْحَدِّ وَالْهَزْلِ وَاللَّهْوِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ . فَكَفَّرَ لَهُ بَيْدَبَا وَسَجَدَ
وَقَالَ : قَدْ أَجَبْتُ الْمَلِكَ أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ وَقَدْ
جَمَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَجَلًا : قَالَ : وَكَمْ هُوَ الْأَجَلُ : قَالَ : سَنَةٌ : قَالَ :

قَدْ أَجَلْتُكَ : وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ الْكِتَابِ

فَبَقِيَ بَيْدَبَا مُفَكِّرًا فِي الْأَخْذِ فِيهِ وَفِي أَيِّ صُورَةٍ يَبْتَدِئُ فِيهِ
وَفِي وَضْعِهِ . ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ الْمَلِكَ قَدْ نَدَبَنِي
لِأَمْرِ فِيهِ فَخَرِي وَفَخْرُكُمْ وَفَخْرُ بِلَادِكُمْ وَقَدْ جَمَعْتُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ : ثُمَّ وَصَفَ
لَهُمْ مَا سَأَلَ الْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ وَالْعَرْضِ الَّذِي قَصَدَ فِيهِ فَلَمْ
يَقَعْ لَهُمُ الْفِكْرُ فِيهِ . فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُهُ فَكَّرَ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ
وَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ يَتِمُّ بِاسْتِفْرَاحِ الْعَقْلِ وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ وَقَالَ :
أَرَى السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا بِالْمَلَّاحِينَ لِأَنَّهُمْ يُعَدِّلُونَهَا . وَإِنَّمَا
تَسْلُكُ السَّفِينَةَ يُعَدِّلُهَا الَّذِي تَفَرَّدَ بِأَمْرِهَا . وَمَتَى شُحِنَتْ بِالرُّكَّابِ
الْكَثِيرِينَ وَكَثُرَ مَلَأُحُوهَا لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهَا مِنَ الْفَرَقِ : وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ
فِيهَا يَعْمَلُهُ فِي بَابِ الْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى الْإِنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ مَعَ
رَجُلٍ مِنَ تَلَامِيذِهِ كَانَ يَثِقُ بِهِ . فَخَلَا بِهِ مُتَفَرِّدًا بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنْ
الْوَرَقِ الَّذِي كَانَتْ تَكْتُبُ الْهِنْدُ فِيهِ شَيْئًا وَمِنْ الْقُوتِ مَا يَهْوَمُ بِهِ
وَيَتَأَمِّدُهُ تِلْكَ الْمُدَّةَ . وَجَلَسَا فِي مَثُورَةٍ وَرَدَّا عَلَيْهِمَا الْبَابَ . ثُمَّ

بَدَأَ فِي تَنْظِيمِ الْكِتَابِ وَتَصْنِيفِهِ وَلَمْ يَزَلْ هُوَ عَمَلِي وَتَأْمِيذُهُ يَكْتُوبُ
وَيَرْجِعُ هُوَ فِيهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْكِتَابُ عَلَى غَايَةِ الْإِثْقَانِ وَالْإِحْكَامِ .
وَرَتَّبَ فِيهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَابًا كُلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ
مَسْئَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ فِيهِ حَظٌّ . وَصَمَّنَ تِلْكَ
الْأَبْوَابَ كِتَابًا وَلِجِدَادٍ وَسَمَاهُ كِتَابَ كَلِيلَةٍ وَدِمْنَةٍ . ثُمَّ جَعَلَ كَلَامَهُ
عَلَى أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لِهَوَا لِلْخَوَاصِّ
وَالْعَوَامِّ وَبَاطِنُهُ رِيَاضَةٌ لِعُقُولِ الْخَاصَّةِ . وَصَمَّنَهُ أَيْضًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ
الْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ يُخَصُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ
لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانِبَتُهُ خَيْرًا لَهُ . ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا
كَرَسَمِ سَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي يَرَسُمُ الْحِكْمَةُ . فَصَارَ الْحَيَوَانُ لِهَوَا وَمَا
يَنْطِقُ بِهِ حِكْمًا وَأَدَبًا . فَلَمَّا ابْتَدَأَ بَيِّدًا بِذَلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ الْكِتَابِ
وَصَفَ الصَّدِيقِ كَيْفَ يَكُونُ صَدِيقَانِ وَكَيْفَ تُقَطَعُ الْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمَا
بِحِيلَةِ ذِي النَّيْمَةِ . وَأَمَرَ تَأْمِيذَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى لِسَانِ بَيِّدَا مِثْلَ
مَا كَانَ الْمَلِكُ شَارِطَهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ لِهَوَا وَحِكْمَةً . فَذَكَرَ بَيِّدَا أَنْ
الْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلَامُ الثَّقَلَةِ أَفْسَدَهَا وَأَسْتَجْهَلَ حِكْمَتَهَا . فَلَمْ
يَزَلْ هُوَ وَتَأْمِيذُهُ يُعْمَلَانِ الْفِكْرَ فِيمَا سَأَلَهُ الْمَلِكُ حَتَّى فَتَقَ لُهُمَا الْعَقْلُ
أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمَا عَلَى لِسَانِ بَهِيَّتَيْنِ . فَوَقَعَ لُهُمَا مَوْضِعُ اللَّهِ
وَالْهَزْلُ بِكَلَامِ الْبَهَائِمِ وَكَانَتِ الْحِكْمَةُ مَا نَطَقًا بِهِ . فَأَصْنَعْتَ
الْحِكْمَاءَ إِلَى حِكْمَتِهِ وَتَرَكُوا الْبَهَائِمَ وَاللَّهُوَ وَعَلِمُوا أَنَّهَا السَّبَبُ فِي

الَّذِي وَضِعَ لَهُمْ . وَمَاتَ إِلَيْهِ الْجَهْلُ عَجَبًا مِنْ مُحَاوَرَةِ بَهِيمَتَيْنِ وَلَمْ
يَشْكُوا فِي ذَلِكَ وَاتَّخَذُوهُ لَهْوًا وَتَرَكَوْا مَتْنِي الْكَلَامِ أَنْ يَهْمُوهُ وَلَمْ
يَعْلَمُوا الْغَرَضَ الَّذِي وَضِعَ لَهُ . لِأَنَّ الْقِيَاسُوفَ إِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ فِي
الْبَابِ الْأَوَّلِ أَنْ يُخَبِّرَ عَنْ تَوَاصُلِ الْإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُهُ
الْمُودَّةُ بَيْنَهُمْ عَلَى التَّحْفُظِ مِنْ أَهْلِ السِّعَايَةِ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ يَوْعِ
الْعِدَاوَةِ بَيْنَ الْمُتَحَايِنِ لِيَجْرِيَ بِذَلِكَ تَعْمَالًا إِلَى نَفْسِهِ .

فَلَمْ يَزَلْ يَدَبًا وَتَلْمِيزُهُ فِي الْمَقْصُورَةِ حَتَّى اسْتَتَمَّ عَمَلُ الْكِتَابِ
فِي مُدَّةِ سَنَةٍ . فَلَمَّا تَمَّ الْحَوْلُ أَنْفَذَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ : أَنْ قَدْ جَاءَ الْوَعْدُ
فَمَاذَا صَنَعْتَ : فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ يَدَبًا : إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ أَلَاكَ فَلْيَأْمُرْنِي
بِحَمْلِهِ بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلُ الْمَمْلَكَةِ لِنَكُونَ قِرَاءَتِي هَذَا الْكِتَابِ
يَحْضُرَتِهِمْ : فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ سُرَّ بِذَلِكَ وَوَعَدَهُ يَوْمًا
يَجْمَعُ فِيهِ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ . ثُمَّ نَادَى فِي أَقْصَى بِلَادِ الْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا
قِرَاءَةَ الْكِتَابِ . فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِيَدَبًا
سَرِيْرٌ مِثْلُ سَرِيْرِهِ وَكَرَاسِيٌّ لِأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ وَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُ .
فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَامَ فَلَبِسَ الْقِيَابَ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا إِذَا دَخَلَ عَلَى
الْمُلُوكِ وَهِيَ الْمُسْوَحُ السُّودُ وَحَمَلَ الْكِتَابَ تَلْمِيزُهُ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى
الْمَلِكِ وَثَبَ الْخَلَائِقُ بِأَجْمَعِهِمْ وَقَامَ الْمَلِكُ شَاكِرًا . فَلَمَّا قَرَّبَ مِنَ
الْمَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا يَدَبًا أَرْفَعْ
رَأْسَكَ فَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ هَنَاءٍ وَفَرَحٍ وَسُرُورٍ : وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِسَ : فَحِينَ

جَلَسَ لِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ . سَأَلَهُ الْمَلِكُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ
 الْكِتَابِ وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصَدَ فِيهِ . فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ وَفِي كُلِّ
 بَابٍ . فَأَزْدَادَ الْمَلِكُ مِنْهُ تَعْجَبًا وَسُرُورًا فَقَالَ لَهُ : يَا بَيْدَبَا مَا عَدَوْتُ
 الَّذِي فِي نَفْسِي وَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ فَأُطْلَبُ مَا شِئْتُ وَتُحْكَمُ .
 فَدَعَا لَهُ بَيْدَبَا بِالسَّعَادَةِ وَطُولِ الْجِدِّ وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَمَّا الْمَالُ فَلَا
 حَاجَةَ لِي فِيهِ . وَأَمَّا الْكُسُوفُ فَلَا أَخْتَارُ عَلَى لِبَاسِي هَذَا شَيْئًا وَلَسْتُ
 أُخْلِى الْمَلِكُ مِنْ حَاجَةٍ : قَالَ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا مَا حَاجَتُكَ . فَكُلُّ حَاجَةٍ
 لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَّةٌ . قَالَ : يَا مَرُ الْمَلِكُ أَنْ يُدَوَّنَ كِتَابِي هَذَا كَمَا دَوَّنَ
 آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ كِتَابَهُمْ . وَيَأْمُرُ بِالْإِخْتِاطِ عَلَيْهِ . فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ
 يُخْرِجَ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَيَتَنَاوَلَهُ أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ . فَلْيَأْمُرْ
 الْمَلِكُ أَنْ لَا يُخْرِجَ مِنْ بَيْتِ الْحِكْمَةِ : ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ بِسَلَامِدَتِهِ
 وَأَحْسَنَ لَهُمُ الْجَوَائِزَ . ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا مَلَكَ كِسْرَى أُنُوشِرْوَانُ وَكَانَ
 مُسْتَأْثَرًا بِالْكُتُبِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ الْأَوَائِلِ وَقَعَ
 لَهُ خَبَرُ الْكِتَابِ فَلَمْ يَقِرَّ قِرَاءَهُ حَتَّى بَعَثَ بِرُزْوِيهِ الطَّيِّبِ حَتَّى
 أَخْرَجَهُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَأَقْرَهُ فِي خَزَائِنِ فَارِسَ

مِنْ كِتَابِ كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ

فِي بَعَثَةِ بَرَزَوِيهِ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ

وَقَدْ رَزَقَ اللَّهُ الْمَلِكَ السَّعِيدَ أَنْوَشَروَانَ مِنَ الْعَقْلِ أَفْضَلَهُ وَمِنَ
الْعِلْمِ أَجْزَلَهُ وَمِنَ الْمَعْرِفَةِ بِالْأُمُورِ أَصَوَّبَهَا وَسَدَّدَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ
إِلَى أَسَدِيهَا وَمِنَ التَّجَتِّ عَنْ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ إِلَى أَنْفَعِهِ . وَبَلَغَهُ
مِنْ فُنُونِ اخْتِلَافِ الْعِلْمِ وَبُلُوغِ مَنْزِلَةِ الْفَلَسَفَةِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ مَلِكٌ
قَطُّ مِنَ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ . حَتَّى كَانَ فِي مَا طَلَبَ وَبَحَثَ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ
أَنْ بَلَغَهُ عَنْ كِتَابِ الْهِنْدِ عِلْمٌ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ
وَالدَّلِيلُ عَلَى كُلِّ مَنْفَعَةٍ . فَأَمَرَ الْمَلِكُ وَزِيرَهُ بِرُزْجُمُورٍ أَنْ يَبْحَثَ لَهُ
عَنْ رَجُلٍ أَدِيبٍ عَاقِلٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ بِصِيرٍ بِإِسَانِ الْفَارِسِيَّةِ
مَاهِرٍ فِي كَلَامِ الْهِنْدِ وَيَكُونُ بَلِيغًا بِاللِّسَانَيْنِ جَمِيعًا . حَرِيصًا عَلَى
طَلَبِ الْعِلْمِ مُجْتَهِدًا فِي اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ مُبَادِرًا فِي الْعِلَامِ . وَالتَّجَتِّ
عَنْ كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ . فَأَتَاهُ بِرَجُلٍ أَدِيبٍ كَامِلٍ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ مَعْرُوفٍ
بِصِنَاعَةِ الطِّبِّ مَاهِرٍ فِي الْفَارِسِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ . فَقَالَ لَهُ بَرَزَوِيهِ

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ :

يَا بَرَزَوِيهِ إِنِّي قَدْ اخْتَرْتُكَ لِمَا بَلَغَنِي مِنْ فَضْلِكَ وَعِلْمِكَ وَعَقْلِكَ
وَحَرِيصَتِكَ عَلَى طَلَبِ الْعِلَامِ حَيْثُ كَانَ . وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ كِتَابِ الْهِنْدِ
مَخْرُوجٍ فِي خَزَائِنِهِمْ : وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا بَلَغَهُ عَنْهُ وَقَالَ لَهُ : تَجَهَّزْ فَإِنِّي

مَرَحَلُكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ فَتَلَطَّفَ بِعَقْلِكَ وَحُسْنِ أَدَبِكَ وَنَاقِدِ رَأْيِكَ
لَا تُسْتَخْرِجَ هَذَا الْكِتَابَ مِنْ خَزَائِنِهِمْ وَمِنْ قِبَلِ عُلَمَائِهِمْ فَتَسْتَفِيدَ
مِنْ ذَلِكَ وَتُفِيدَنَا . وَمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ مِمَّا لَيْسَ فِي
خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَأَجْمِلْهُ مَعَكَ وَخُذْ مَعَكَ مِنَ الْمَالِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ
وَعَجِّلْ فِي ذَلِكَ وَلَا تُقَصِّرْ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ . وَإِنْ أَكْثَرْتَ فِيهِ
النَّفَقَةَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِي مَبْذُولٌ لَكَ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ .
وَأَمْرٌ بِإِحْضَارِ الْمُتَجَمِّعِينَ فَأَخْتَارُوا لَهُ يَوْمًا يَسِيرُ فِيهِ وَسَاعَةٌ صَالِحَةٌ
يُخْرَجُ فِيهَا وَحَمَلٌ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ عِشْرِينَ جِرَابًا كُلُّ جِرَابٍ فِيهِ عَشْرَةُ
آلَافٍ دِينَارٍ

فَلَمَّا قَدِمَ بِرَزْوِيهِ بِلَادَ الْهِنْدِ طَافَ بِبَابِ الْمَلِكِ وَمَجَالِسِ السُّوقَةِ
وَسَأَلَ عَنْ خَوَاصِّ الْمَلِكِ وَالْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ . فَجَعَلَ
يُنْشَاهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَيَتَلَقَّاهُمْ بِالنَّحْوَةِ وَيُنْخِرُهُمْ بِأَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ
قَدِمَ بِلَادَهُمْ لِيُطَلِّبَ الْعُلُومَ وَالْأَدَبَ . وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مُعَاوَنَتِهِمْ
فِي ذَلِكَ . فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا يَتَأَدَّبُ عَلَى عُلَمَاءِ الْهِنْدِ بِمَا
هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِهِ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئًا . وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ يَسْتُرُ
بُعِيثَهُ وَحَاجَتَهُ . وَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ لَطُولِ مُقَامِهِ أَصْدِقَاءَ كَثِيرَةً مِنْ
الْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ وَالسُّوقَةِ وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِنَاعَةٍ .
وَكَانَ قَدْ اتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ رَجُلًا وَاحِدًا قَدْ اتَّخَذَهُ لِسِرِّهِ
وَمَا يَجِبُ مُشَاوَرَتُهُ فِيهِ لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ وَلِمَا أُسْتَبَانَ

لَهُ مِنْ صِحَّةِ إِخَانِهِ وَكَانَ يُشَاوِرُهُ فِي الْأُمُورِ وَدَنَّا حُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ
مَا أَهَمَّهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ عَنْهُ الْأَمْرَ الَّذِي قَدِيمٌ مِنْ أَجَلِهِ لَكِي
يَلُوهُ وَيَخْتَبِرَهُ . وَيَنْظُرُ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ

فَقَالَ لَهُ يَوْمًا وَهَذَا جَالِسَانِ : يَا أَخِي مَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ
أَمْرِي فَوْقَ الَّذِي كَتَمْتُكَ . فَأَعْلَمَ أَنِّي لِأَمْرِ قَدِيمٍ . وَهُوَ غَيْرُ الَّذِي
يُظْهَرُ مِنِّي وَالْعَاقِلُ يَكْتُمُنِي مِنَ الرَّجُلِ بِالْعَلَامَاتِ مِنْ نَظَرِهِ حَتَّى
يَعْلَمَ سِرَّ نَفْسِهِ وَمَا يُضْمِرُ قَلْبُهُ . قَالَ لَهُ الْهِنْدِيُّ : إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ
بِدَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا جِئْتُ لَهُ وَإِيَّاهُ تُرِيدُ وَأَنْتَ تَكْتُمُ أَمْرًا تَطْلُبُهُ
وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ . فَمَا خَفِيَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْكَ وَلَكِنِّي لِرَغْبَتِي فِي إِخَانِكَ
كَرِهْتُ أَنْ أُوَاجِهَكَ بِهِ وَأَنَّهُ قَدْ اسْتَبَانَ مَا تُخْفِي عَنِّي . فَلَمَّا إِذْ
قَدْ أَظْهَرْتَ ذَلِكَ وَأَقْصَحْتَ بِهِ وَبِالْكَلَامِ فِيهِ فَإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ
نَفْسِكَ وَمُظْهِرُكَ لِكَ سَرِيرَتِكَ وَمُعْلِيكَ بِحَالِكَ الَّتِي قَدِمْتَ لَهَا
بِلَادَنَا لِتَسْلُبَنَا كُنُوزَنَا النَّفِيسَةَ فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلَادِكَ وَتَسْرِبَهَا
مَلِكَكَ وَكَانَ قُدُومُكَ بِالْمَكْرِ وَالْحَدِيعَةِ . وَلَكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ
وَمُوَظَبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ وَالتَّحْفُظِ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ مِنْكَ
الْكَلَامُ مَعَ طُولِ مَكْنَتِكَ عِنْدَنَا بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سَرِيرَتِكَ
وَأُمُورِكَ أَزْدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِخَانِكَ وَثِقَةً بِعَقْلِكَ وَأَحْيَيْتُ مَوَدَّتَكَ .
فَإِنِّي لَمْ أَرِ فِي الرِّجَالِ رَجُلًا هُوَ أَرْضَنُ مِنْكَ عَقْلًا وَلَا أَحْسَنُ
أَدَبًا وَلَا أَصْبِرُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ . وَلَا أَكْتُمُ لِسِرِّهِ مِنْكَ وَلَا سِيَّيَا فِي

بِلَادِ غُرَبَةٍ وَمَمْلَكَةٍ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ وَعِنْدَ قَوْمٍ لَا تَعْرِفُ سُنَّتَهُمْ .
وَأِنْ عَقَلَ الرَّجُلُ لَيْسَ فِي ثَمَانِي خِصَالٍ الْأُولَى مِنْهَا الرِّفْقُ . وَالثَّانِيَةُ
أَنْ يَعْرِفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا . وَالثَّلَاثَةُ طَاعَةُ الْمُلُوكِ وَالتَّحَرِّيُ لِمَا
يُرْضِيهِمْ . وَالرَّابِعَةُ مَعْرِفَةُ الرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ
يُطْلَعَ عَلَيْهِ صَدِيقُهُ . وَالْخَامِسَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمُلُوكِ أَدِيبًا
مَلِقَ الْأَسَانِ . وَالسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظًا .
وَالسَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى لِسَانِهِ قَادِرًا فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ .
وَالثَّامِنَةُ أَنْ يَكُونَ بِالْمُخْلِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يُسْأَلُ عَنْهُ . فَمَنْ أَجْتَمَعَتْ
فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ كَانَ هُوَ الدَّاعِي الْخَيْرَ إِلَى نَفْسِهِ وَهَذِهِ الْخِصَالُ
كُلُّهَا قَدْ أَجْتَمَعَتْ فِيكَ وَبَانَ لِي مِنْكَ . فَاللَّهُ تَعَالَى يَحْفَظُكَ
وَيُعِينِكَ عَلَى مَا قَدِمْتَ لَهُ فَمُصَادَقَتُكَ إِيَّايَ لَتَسْلُبَنِي كَثْرِي وَفَخْرِي
وَعِلْمِي . فَإِنَّكَ أَهْلٌ لِأَنْ تُسَمَّ بِحَاجَتِكَ وَتُسَمَّ بِطَلِبَتِكَ وَتُعْطَى
سُؤْلُكَ

فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: إِنِّي قَدْ كُنْتُ هَيَّاتُ كَلَامًا كَثِيرًا وَشَعَبْتُ لَهُ
شِعَابًا وَأَنْشَأْتُ لَهُ أَصُولًا وَطُرُقًا . فَلَمَّا أَنْتَهَيْتُ إِلَى مَا بَدَأْتَنِي بِهِ مِنْ
إِطْلَاعِكَ عَلَى أَمْرِي وَالَّذِي قَدِمْتُ لَهُ وَالْقِيَّتُ عَلَيَّ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ
وَرَغْبَتِكَ فِي مَا أَلْقَيْتَ مِنَ الْقَوْلِ أَكْتَفَيْتُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْخُطَابِ
مَعَكَ وَعَرَفْتُ الْكَبِيرَ مِنْ أُمُورِي بِالصَّغِيرِ مِنَ الْكَلَامِ وَأَقْتَصَرْتُ
بِهِ مَعَكَ عَلَى الْإِبْجَازِ وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعَافِكَ إِيَّايَ بِحَاجَتِي مَا دَلَّنِي

عَلَى كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَقَائِكَ . فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا أُلْقِيَ إِلَى الْفَيَّاسُوفِ
 وَالسِّرِّ إِذَا اسْتُودِعَ اللَّيِّبَ الْحَافِظَ فَقَدْ حُصِّنَ وَبُلِغَ بِهِ نِهَآيَةُ أَمَلِ
 صَاحِبِهِ كَمَا يُحَصِّنُ الشَّيْءُ النَّفِيسُ فِي الْقَلَاعِ الْحَصِينَةِ : قَالَ الْهِنْدِيُّ :
 لَا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَوَدَّةِ وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كَانَ أَهْلًا أَنْ يَخَاطَبَهُ
 الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ وَلَا يَذْخَرُ عَنْهُ شَيْئًا وَلَا يَكْتُمُهُ سِرًّا . فَإِنَّ حِفْظَ السِّرِّ
 رَأْسُ الْأَدَبِ فَإِذَا كَانَ السِّرُّ عِنْدَ الْأَوَّيْنِ الْكُثُومِ فَقَدْ احْتَرَزَ مِنَ
 التَّضْيِيعِ مَعَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِهِ . وَلَا يَكْتُمُ سِرًّا بَيْنَ اثْنَيْنِ
 قَدْ عَلِمَاهُ وَتَفَاوَضَا فِيهِ . فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالسِّرِّ اثْنَانِ فَلَا بُدَّ مِنْ ثَالِثٍ
 مِنْ جِهَةٍ أَحَدِيهِمَا أَوْ مِنْ جِهَةٍ الْآخَرِ فَإِذَا صَارَ إِلَى الثَّلَاثَةِ فَقَدْ
 شَاعَ وَذَاعَ حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ صَاحِبُهُ أَنْ يَجْعَدَهُ وَيَكْبُرَ فِيهِ كَأَنَّهُمْ
 إِذَا كَانَ مُنْقَطِعًا فِي السَّمَاءِ . فَقَالَ قَائِلٌ نَعِيمٌ مُنْقَطِعٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ
 عَلَى تَكْذِيبِهِ . وَأَنَا فَقَدْ يُدَاخِلُنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَخَاطَبَتِكَ سُرُورٌ
 لَا يُعْدِلُهُ شَيْءٌ . وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي تَطْلُبُهُ مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْأَسْرَارِ
 الَّتِي لَا تُكْتَمُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْشَوْ وَيُظْهَرَ حَتَّى يَتَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ . فَإِذَا
 فَشَا فَقَدْ سَعَتْ فِي هَلَاقِي هَلَكَاءٌ لَا أَقْدِرُ عَلَى الْهِدَاءِ مِنْهُ بِالْمَلِ
 وَإِنْ كَثُرَ . لِأَنَّ مَلِكَنَا قَظٌ غَلِظٌ يُعَاقِبُ عَلَى الذَّنْبِ الصَّغِيرِ
 أَشَدَّ الْعِقَابِ فَكَيْفَ مِثْلُ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَإِذَا حَمَلْتَنِي الْمَوَدَّةُ
 الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَأَسْعَفْتُكَ بِحَاجَتِكَ لَمْ يَرُدَّ عِقَابُهُ عَنِّي شَيْءٌ
 قَالَ بَرْزَوِيهِ : إِنْ الْعُلَمَاءُ قَدْ مَدَحَتْ الصَّدِيقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ

وَأَعَانَهُ عَلَى الْقَوْزِ . وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ لِيَمْلِكَ ذَخْرُهُ
وَبِكَ أَرْجُو بُلُوغَهُ وَأَنَا وَاثِقٌ بِكَرَمِ طِبَاعِكَ وَوُفُورِ عَقْلِكَ وَأَعْلَمُ
أَنَّكَ لَا تَخْشَى مِنِّي وَلَا تَخَافُ أَنْ أُبْدِيَهُ بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَيْتِكَ
الطَّائِفِينَ بِكَ وَبِالْمَلِكِ أَنْ يَسْمَعُوا بِكَ . وَأَنَا أَرْجُو أَنْ لَا يَشِيعَ شَيْءٌ
مِنْ هَذَا الْأَمْرِ لِأَنِّي أَنَا ظَالِمٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ وَمَا أَقَمْتُ فَلَا تَالِثَ
بَيْنَنَا . فَتَعَاهَدَا عَلَى هَذَا جَمِيعًا : فَأَجَابَهُ الْهِنْدِيُّ إِلَى ذَلِكَ الْكِتَابِ
وَالِى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ فَكَبَّ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَثَمَلَهُ مِنَ اللِّسَانِ
الْهِنْدِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الْقَارِصِيِّ وَاتَّعَبَ نَفْسَهُ وَأَنْصَبَ بَدَنَهُ لَيْلًا
وَنَهَارًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ وَجِلٌ فَرَعَ مِنْ مَلِكِ الْهِنْدِ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ أَنْ يَذْكُرَ الْمَلِكُ الْكِتَابَ فِي وَقْتٍ وَلَا يُصَادِفَهُ فِي خِزَانَتِهِ

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ انْتِسَاخِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرَادَ مِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ
كَتَبَ إِلَى أُنُوشِروَانَ يُبَايِعُهُ بِذَلِكَ . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ الْكِتَابُ سُرَّ
بِذَلِكَ سُرُورًا شَدِيدًا . ثُمَّ تَخَوَّفَ مُعَاجَلَةَ الْمَقَادِيرِ أَنْ تُنْقِصَ عَلَيْهِ
فَرَحَهُ فَكَتَبَ إِلَى بَرَزَوِيهِ بِأَمْرِهِ بِتَحْيِيلِ الْقُدُومِ . فَسَارَ بَرَزَوِيهِ
مُتَوَجِّهًا نَحْوَ كِسْرَى . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ مَا قَدْ مَسَّهُ مِنَ الشُّحُوبِ
وَالْتَّعَبِ وَالنَّصَبِ قَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّاصِحُ الَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ مَا
قَدْ غَرَسَ أَبْشِرْ وَقِرْ عَيْنَا فَإِنِّي مُشْرِفُكَ بِأَلْفِ بَكٍ أَفْضَلُ دَرَجَةٍ :
وَأَمْرُهُ أَنْ يُرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يَجْتَمِعَ إِلَيْهِ الْأُمَرَاءُ

وَالْعُلَمَاءُ . فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَمَرَ بَرْزَوِيهِ بِالْحُضُورِ فَحَضَرَ وَمَعَهُ الْكُتُبُ
فَقَتَحَهَا وَقَرَأَهَا عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ . فَلَمَّا سَمِعُوا مَا فِيهَا
مِنَ الْعِلْمِ فَرِحُوا فَرَحًا شَدِيدًا وَشَكَرُوا اللَّهَ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ وَمَدَحُوا
بَرْزَوِيهِ وَاثْنَوْا عَلَيْهِ وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ تُفْتَحَ لِبَرْزَوِيهِ خَزَائِنُ الْأَوْلُوهِ
وَالزَّبَرَجَدِ وَالْيَاقُوتِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْخَزَائِنِ
مَا شَاءَ مِنْ مَالٍ وَكُسُوفٍ وَقَالَ : يَا بَرْزَوِيهِ إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ تَحْلِسَ
عَلَى مِثْلِ سَرِيرِي هَذَا وَتَلْبَسَ تَاجًا وَتَتَرَأَّسَ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْرَافِ .
فَسَجَدَ بَرْزَوِيهِ لِلْمَلِكِ وَدَعَا لَهُ وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ وَقَالَ : اكْرَمَ اللَّهُ
تَعَالَى الْمَلِكَ كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَحْسَنَ عَنِّي ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ .
فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مُسْتَعْنٍ عَنِ الْمَالِ بِمَا رَزَقَنِي اللَّهُ عَلَى يَدِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ
الْجَدِّ الْعَظِيمِ الْمَلِكِ وَلَا حَاجَةَ لِي بِالْمَالِ . لَكِنْ لَمَّا كَلَّفَنِي ذَلِكَ وَعَلِمْتُ
أَنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى الْخَزَائِنِ فَأَنَا أَخُذُ مِنْهَا طَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ
وَأَمْتِيَالًا لِأَمْرِهِ : ثُمَّ قَصَدَ خِزَانَةَ الْكِبَابِ فَأَخَذَ مِنْهَا لُحَفًا مِنْ طَرَائِفِ
خُرَاسَانَ وَمِنْ مَلَابِسِ الْمُلُوكِ

فَلَمَّا قَبِضَ بَرْزَوِيهِ مَا اخْتَارَهُ وَرَضِيَهُ مِنَ الْكِبَابِ قَالَ : اكْرَمَ
اللَّهُ الْمَلِكَ وَمَدَّ فِي عُمُرِهِ أَبَدَ الْأَبَدِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اكْرَمَ وَجَبَ
عَلَيْهِ الشُّكْرُ وَإِنْ كَانَ قَدْ اسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً فَقَدْ كَانَ فِيهِمَا
إِرْضَاءُ الْمَلِكِ . وَأَمَّا أَنَا فَمَا لَقِيْتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ لِمَا أَعَامُ
أَنْ لَكُمْ فِيهِ الشَّرَفُ يَا أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هَذَا

الْيَوْمَ تَابَا رِضَاكُمْ أَرَى الْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا وَالْشَاقَّ هِينًا وَالنَّصَبَ
وَالْأَذَى سُرُورًا وَلَذَّةً لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضًى وَقُرْبَةً عِنْدَكُمْ .
وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَاجَةً تُسَعِّفُنِي بِهَا وَتُعْطِينِي فِيهَا سُؤْلِي
فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ وَفِي قَضَائِهَا فَائِدَةٌ كَثِيرَةٌ : قَالَ أُنُوشِرَوَانُ :
فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَّةٌ فَإِنَّكَ عِنْدَنَا عَظِيمٌ وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا
فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا وَلَمْ نَزِدْ طَلِبَتَكَ فَكَيْفَ مَا سِوَى ذَلِكَ فَقُلْ وَلَا
نَحْتَشِمُ فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَبْدُوءَةٌ لَكَ

قَالَ بَرَزَوِيهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي فِي رِضَاكَ وَأَنْكِيَاشِي
فِي طَاعَتِكَ . فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزُمُنِي بِذَلِكَ مُنْجَتِي فِي رِضَاكَ وَلَوْ لَمْ
تُجْزِنِي لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدِي عَظِيمًا وَلَا وَاجِبًا عَلَى الْمَلِكِ . وَلَكِنْ
لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدًا إِلَى مُجَازَاتِي وَخَصَّنِي وَأَهْلَ بَيْتِي بِمُلُوكِ
الْمُرْتَبَةِ وَرَفَعَ الدَّرَجَةَ حَتَّى لَوْ قَدَّرَ أَنْ يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ لَفَعَلَ فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا أَفْضَلَ الْجَزَاءِ . قَالَ أُنُوشِرَوَانُ : أَذْكَرُ
حَاجَتِكَ فَعَلِيَّ مَا يَسُرُّكَ : فَقَالَ بَرَزَوِيهِ : حَاجَتِي أَنَّ يَأْمُرَ الْمَلِكُ أَعْلَاهُ
اللَّهُ تَعَالَى وَزِيرَهُ بَرْزَجَهْرَ بْنَ الْبُخْتِكَانِ وَيُسَمِّعَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمَلَ فِكْرُهُ
وَيَجْمَعَ رَأْيَهُ وَيَجْهَدَ طَاقَتَهُ وَيُفْرِغَ قَلْبَهُ فِي نَظْمِ تَأْلِيفِ كَلَامٍ مُتَقَنٍ
مُحْكَمٍ وَيَجْعَلُهُ بَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي وَيَصِفُ حَالِي وَلَا يَدَعُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ
فِي ذَلِكَ أَقْصَى مَا يَهْدِرُ عَلَيْهِ وَيَأْمُرُهُ إِذَا أَسْتَمْتُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ
الْأَبْوَابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ الْأَسَدِ وَالْثُورِ . فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ

ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ وَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَأَبْقَى لَنَا
 مَا لَا يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِيًا عَلَى الْأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هَذَا الْكِتَابُ
 فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ وَالْعُظَمَاءَ مَقَالَتهُ وَمَا نَمَتَ إِلَيْهِ
 نَفْسُهُ مِنْ مَحَبَّةٍ إِبْقَاءِ الذِّكْرِ وَاسْتَحْسَنُوا طَلِبَتَهُ وَاخْتَارُوهُ قَالَ كِسْرَى:
 حُبًّا وَكَرَامَةً لَكَ يَا بَرَزَوِيهَ إِنَّكَ لِأَهْلٌ أَنْ تُسَفَّ بِحَاجَتِكَ فَمَا
 أَقَلَّ مَا قَنَعَتْ بِهِ وَأَيْسَرُهُ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ عِنْدَكَ عَظِيمًا:
 ثُمَّ أَقْبَلَ أَنْوَشِرَوَانُ عَلَى وَزِيرِهِ بَرْزَجَهْمَرَ فَقَالَ لَهُ: قَدْ عَرَفْتَ مُنَاصِحَةَ
 بَرَزَوِيهِ لَنَا وَتَحَشُّسَهُ الْخَوَافِ وَالْمَهَالِكِ فِي مَا يُقَرِّبُهُ مِنَّا وَإِتْعَابَهُ
 بَدَنَهُ فِي مَا يَسُرُّنَا وَمَا أَتَى بِهِ إِلَيْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ وَمَا أَفَادَنَا اللَّهُ
 عَلَى يَدِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ الْبَاقِي لَنَا فَنَحْرُهُ وَمَا عَرْضَنَا عَلَيْهِ مِنْ
 خَزَائِنِنَا لِنَجْزِيَهُ بِذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ. فَلَمْ يَزَلْ نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ
 مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ يُبَيِّتُهُ وَطَلِبَتُهُ مِنَّا أَمْرًا يَسِيرًا رَأَاهُ هُوَ الثَّوَابَ مِنَّا لَهُ
 وَالْكَرَامَةَ الْجَلِيلَةَ عِنْدَهُ. فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ وَتُسَفِّفَهُ
 بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ. وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَسُرُّنِي وَلَا تَدْعُ شَيْئًا مِنْ
 الْإِجْتِهَادِ وَالْمُبَالَغَةِ إِلَّا بَلَقْتَهُ وَإِنْ نَأَلْتُكَ فِيهِ مَشَقَّةٌ وَهُوَ أَنْ تَكْتُبَ أَبَا
 مُضَارِعًا لِنَلِكِ الْأَبْوَابِ الَّتِي فِي الْكِتَابِ وَتَذْكُرَ فِيهِ فَضْلَ بَرَزَوِيهِ
 وَكَيْفَ كَانَ أَبْتَدَأَ أَمْرَهُ وَشَأْنَهُ وَتَنَسَّبَهُ إِلَيْهِ وَإِلَى حَسَبِهِ وَصِنَاعَتِهِ
 وَتَذْكُرَ فِيهِ بَعَثَهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي حَاجَتِنَا وَمَا أَفَدَنَا عَلَى يَدِهِ مِنْ
 هُنَاكَ وَشَرَّفَنَا بِهِ وَفَضَّلَنَا عَلَى غَيْرِنَا وَكَيْفَ كَانَ حَالُ بَرَزَوِيهِ وَقُدُومُهُ

مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ . قُلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ التَّخْرِيطِ وَالْإِطْنَابِ فِي
مَذْهِهِ وَبَالِغٍ فِي ذَلِكَ أَفْضَلَ الْمُبَالِغَةِ وَاجْتِهَدٍ فِي ذَلِكَ اجْتِهَادًا
يَسْرُ بَرَزَوِيهِ وَأَهْلَ الْمُلْكَةِ . فَإِنْ بَرَزَوِيهِ أَهْلٌ لِذَلِكَ مِنِّي وَمِنْ
جَمِيعِ أَهْلِ الْمُلْكَةِ وَمِنْكَ أَيْضًا لِمَحَبَّتِكَ لِلْعُلُومِ . وَاجْهَدْ أَنْ يَكُونَ
غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى بَرَزَوِيهِ أَفْضَلَ مِنْ أَغْرَاضِ
تِلْكَ الْأَبْوَابِ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ وَأَشَدُّ مُشَاكَلَةً لِحَالِ هَذَا الْكِتَابِ .
فَإِنَّكَ أَسْعَدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِذَلِكَ لِأَنْفِرَادِكَ بِهِ وَاجْمَعْهُ أَوَّلَ
الْأَبْوَابِ . فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْلِنِي لِاجْتِمَاعِ أَهْلِ
الْمُلْكَةِ وَتَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ فَيَظْهَرُ فَضْلُكَ وَاجْتِهَادُكَ فِي مَحَبَّتِنَا فَيَكُونَ
لَكَ بِذَلِكَ فَخْرٌ

فَلَمَّا سَمِعَ بَرَزَجُومُ مَقَالَةَ الْمَلِكِ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَقَالَ : أَدَامَ اللَّهُ
لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَقَاءَ وَبَلَغَكَ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ
وَالْأُولَى لَقَدْ شَرَّفْتَنِي بِذَلِكَ شَرَفًا بَاقِيًا إِلَى الْأَبَدِ . ثُمَّ خَرَجَ بَرَزَجُومُ
مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ فَوَصَفَ بَرَزَوِيهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَفَعَهُ أَبَوَاهُ إِلَى
الْمُعَلِّمِ وَمَضِيَهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقَائِرِ وَالْأَدْوِيَةِ وَكَيْفَ
تَعَلَّمَ خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أُنُوشِرَوَانُ إِلَى الْهِنْدِ فِي طَلَبِ
الْكِتَابِ وَلَمْ يَدَعْ مِنْ قَضَائِلِ بَرَزَوِيهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلَائِقِهِ وَمَذْهَبِهِ
أَمْرًا إِلَّا نَسَقَهُ وَأَتَى بِهِ بِأَجُودِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرْحِ . ثُمَّ أَعْلَمَ
الْمَلِكُ بِفَرَاعِهِ مِنْهُ . فَجَمَعَ أُنُوشِرَوَانُ أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ

وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ وَأَمَرَ يُزْجَمُ بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ وَبِرِزْوِيهِ فَأَتَمَّ إِلَى
 جَانِبِ يُزْجَمٍ وَأَبْتَدَأَ بِوَصْفِ رِزْوِيهِ حَتَّى أَتَتْهُ إِلَى آخِرِهِ قَرَحَ
 الْمَلِكُ بِمَا أَتَى بِهِ يُزْجَمُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ . ثُمَّ أَتَى الْمَلِكُ وَجَمِيعُ
 مَنْ حَضَرَ عَلَى يُزْجَمٍ وَشَكَرُوهُ وَمَدَحُوهُ وَأَمَرَ لَهُ الْمَلِكُ بِمَالٍ جَزِيلٍ
 وَكُسُوَةٍ وَحُلِيِّ وَأَوَانٍ . فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا غَيْرَ كُسُوَةٍ كَانَتْ
 مِنْ ثِيَابِ الْمُلُوكِ . ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذَلِكَ بِرِزْوِيهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ
 وَأَقْبَلَ بِرِزْوِيهِ عَلَى الْمَلِكِ وَقَالَ : أَدَامَ اللَّهُ لَكَ الْمُلْكَ وَالسَّعَادَةَ فَقَدْ
 بَلَغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ يُزْجَمُ مِنْ صَنْعَةِ
 الْكِتَابِ فِي أَمْرِي وَإِبْقَاءِ ذِكْرِي



نُحْبَةُ

مِنْ تَارِيخِ الْمُلُوكِ وَأَعْمَارِهِمْ

تَأْلِيفُ

أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرِ بْنِ يَزِيدَ الطَّبْرِيِّ

فِي افْتِتَاحِ الشَّامِ

مَعْرَكَةُ الْوَاقُصَةِ

كُتِبَ إِلَى السُّرِّيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُبَشَّرٍ وَسَهْلٍ وَأَبِي
عُثْمَانَ عَنْ خَالِدٍ وَعُبَادَةَ وَأَبِي حَارِثَةَ . قَالُوا : وَأَوْعَبَ الْقَوَادُ بِالنَّاسِ
نَحْوَ الشَّامِ وَعِكْرَمَةُ رَدُّهُ لِلنَّاسِ وَبَلَغَ الرُّومَ ذَلِكَ فَكَتَبُوا إِلَى هِرَقْلَ
وَخَرَجَ هِرَقْلُ حَتَّى يَنْزِلَ بِحِمَصَ فَأَعَدَّ لَهُمُ الْجُنُودَ وَعَبَّى لَهُمُ الْعَسَاكِرَ
وَأَرَادَ اشْتِغَالَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ عَنْ بَعْضٍ لِكَثْرَةِ جُنْدِهِ وَفُضُولِ
رِجَالِهِ وَأَرْسَلَ إِلَى عَمْرِو أَخَاهُ تَذَارِيقَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ . فَخَرَجَ نَحْوَهُمْ
فِي تِسْعِينَ أَلْفًا وَبَعَثَ مَنْ يَسُوقُهُمْ حَتَّى نَزَلَ صَاحِبُ السَّاقَةِ ثَبِيَّةَ
حَلِيقَ بِأَعْلَى فِلَسْطِينَ وَبَعَثَ جَرَجَةَ بْنَ نُودَرَا نَحْوَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي
سَفِينٍ فَعَسَكَرَ بِإِزَائِهِ وَبَعَثَ الدَّرَاقِصَ فَاسْتَقْبَلَ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ
وَبَعَثَ الْقَيْقَارَ بْنَ نَسْطُوسَ فِي سِتِّينَ أَلْفًا نَحْوَ أَبِي عُبَيْدَةَ . فَهَابَهُمُ
الْمُسْلِمُونَ . وَجَمِيعُ فِرْقِ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا سِوَى عِكْرَمَةَ
فِي سِتَّةِ آلَافٍ . فَهَرَّغُوا جَمِيعًا بِالْكَتْبِ وَبِالرُّسُلِ إِلَى عَمْرِو أَنْ مَا

الرأي . وكاتبهم ورأسهم أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا
اجتمعنا لم نقلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في
عدد يقرر فيه لأحد ممن استقبله . وأعد لنا لكل طائفة منا جندا
فأتعدوا اليرموك ليجمعوا به . وقد كتب إلى أبي بكر يمثل ما
كتبوا به عمرا قطع عليهم كتابه يمثل رأي عمرو وبلغ ذلك
هرقل فكتب إلى بطارقس أن اجتمعوا لهم فأنزلوا بالروم منزلا
واسع العطن شاسع المطرد ضيق المهرب . وعلى الناس التذارق
وعلى المقدمة جرجة وعلى مجبتيه باهان والدراقص وعلى الحرب
قيار وقال أبشروا فإن باهان في الإثر ميذا لكم . فقلوا فنزلوا
الواقصة وهو على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقا لهم وهو
لهم لا يدرك . وإنما أراد باهان وأصحابه أن يستثبت الروم
ويأنسوا بالمسلمين وترجع إليهم أفيدتهم عن طيرتها . وأثقل
المسلمون عن عسكرهم الذي اجتمعوا فيه فنزلوا عليهم بمحذاتهم
على طريقهم وليس للروم طريق إلا عليهم . فقال عمرو: أيها الناس
أبشروا حصرت الروم والله وقله جاء محصور بخير . فأقاموا بإزائهم
وعلى طريقهم ومخرجهم صفر من سنة ثلث عشرة وشهري ربيع
لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم . والله وهو
الواقصة من ورائهم والخندق من أمامهم . ولا يخرجون خرجة
إلا أدبل منهم المسلمون . حتى إذا سلخوا شهر ربيع الأول وقد

اسْتَمَدُوا أَبَا بَكْرٍ وَأَعْلَمُوهُ الشَّانَ فِي صَفَرٍ . فَكَتَبَ إِلَى خَالِدٍ لِيَلْحَقَ
 بِهِمْ وَأَمَرَهُ أَنْ يُخَلِّفَ عَلَى الْعِرَاقِ الْمُثَنَّى فَوَافَاهُمْ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ
 كَتَبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ
 وَعُمَيْرٍ وَالْمُهَلَّبِ قَالُوا : وَلَمَّا زَلَّ الْمُسْلِمُونَ الْيَرْمُوكَ وَاسْتَمَدُوا أَبَا
 بَكْرٍ قَالَ خَالِدٌ أَقْوَى لَهَا . فَبَثَّ إِلَيْهِ وَهُوَ بِالْعِرَاقِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ
 وَأَسْتَحْتَهُ فِي السَّيْرِ فَتَفَدَّ خَالِدٌ لِذَلِكَ فَطَلَعَ عَلَيْهِمْ خَالِدٌ وَطَلَعَ بَاهَانُ
 عَلَى الرُّومِ وَقَدْ قَدَّمَ قُدَّامَهُ الشَّامِيسَةَ وَالرَّهْبَانَ وَالْقِسِيَّيْنَ يُغِيرُونَهُمْ
 وَيُخَضِّضُونَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ . وَوَافَقَ قُدُومُ خَالِدٍ قُدُومَ بَاهَانَ فَخَرَجَ
 بِهِمْ بَاهَانُ كَأَلْمُقَدِّرٍ قَوْلِي خَالِدٌ قِتَالَهُ وَقَاتَلَ الْأَمْرَأَةَ مِنْ بَارَائِهِمْ
 فَهَزِمَ بَاهَانُ وَتَتَابَعَ الرُّومُ عَلَى الْهَزِيمَةِ فَأَقْتَحَمُوا خَنْدَقَهُمْ . وَتَيَمَّنَتْ
 الرُّومُ بِبَاهَانَ وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِخَالِدٍ وَحَرَدَ الْمُسْلِمُونَ وَحَرَدَ الرُّومُ
 وَهُمْ أَرْبَعُونَ وَمِائَتًا أَلْفٍ مِنْهُمْ ثَمَانُونَ أَلْفَ مُقِيدٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ
 مُسَلَّسٍ لِلْمَوْتِ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا مَرْبُطُونَ بِالْعِمَائِمِ وَثَمَانُونَ أَلْفَ
 رَاجِلٍ وَالْمُسْلِمُونَ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا يَمْنُ كَانُ مُقِيمًا . إِلَى أَنْ قَدِمَ
 عَلَيْهِمْ خَالِدٌ فِي تِسْعَةِ آلَافٍ فَصَارُوا سِتَّةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا . وَمَرِضَ أَبُو
 بَكْرٍ رَجَمَهُ اللَّهُ فِي جُمَادَى الْأُولَى وَتُوفِيَ لِلنِّصْفِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ
 قَبْلَ الْفَتْحِ بِعَشْرِ لَيَالٍ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ قَدْ سَمِيَ لِكُلِّ أَمِيرٍ مِنْ أَمْرَاءِ
 الشَّامِ كُورَةً . فَسَمِيَ لِأَبِي عُيَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ خِمَصَ .

وَلِيزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ دِمَشْقَ . وَلِشُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ الْأُرْدُنِّ .
وَلِعَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَلِعَلْقَمَةَ بْنَ مَخْصَنٍ فِلَسْطِينَ . فَلَمَّا فَرَّغَا مِنْهَا نَزَلَ
عَلْقَمَةُ وَسَارَ إِلَى مِصْرَ . فَلَمَّا شَارَفُوا الشَّامَ دَهَمَ كُلُّ أَمِيرٍ مِنْهُمْ
قَوْمٌ كَثِيرٌ فَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَجْتَمِعُوا بِمَكَانٍ وَاحِدٍ وَأَنْ يَلْقُوا جَمَعَ
الرُّومِ يَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ

مُرُورُ خَالِدٍ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ

كَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ وَهُوَ بِالْحِيرَةِ يَأْمُرُهُ أَنْ يُمِدَّ أَهْلَ الشَّامِ
بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُوَّةِ وَيَخْرِجَ فِيهِمْ وَيَسْتَحْفِظَ عَلَى ضَعْفَةِ النَّاسِ
رَجُلًا مِنْهُمْ . فَلَمَّا أَتَى خَالِدًا كَتَبَ أَبِي بَكْرٍ بِذَلِكَ قَالَ خَالِدٌ : هَذَا
عَمَلُ الْأَعْيَسِرِ ابْنِ أُمِّ شَيْلَةَ يَبْنِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حَسَدَنِي أَنْ يَكُونَ
فَتَحَ الْعِرَاقَ عَلَى يَدَيَّ . فَسَارَ خَالِدٌ بِأَهْلِ الْقُوَّةِ مِنَ النَّاسِ وَرَدَّ
الضُّعَفَاءَ وَالنِّسَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَمَرَ عَلَيْهِمُ عُمَيْرُ بْنُ سَدِيدٍ الْأَنْصَارِيَّ
وَأَسْتَحْلَفَ خَالِدٌ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بِالْعِرَاقِ مِنْ رِبِيعَةٍ وَغَيْرِهِمُ الْمُشْتَرِيَّ بْنَ
حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ . ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى عَيْنِ الثَّرِ فَاغَارَ عَلَى أَهْلِهَا
فَأَصَابَ مِنْهُمْ وَرَاطَ حِصْنًا بِهَا فِيهِ مُقَاتِلَةٌ كَانَتْ كَثْرَى وَضَعَهُمْ فِيهِ
حَتَّى اسْتَرْزَلَهُمْ . فَضْرَبَ أَعْنَاقَهُمْ وَسَبَى مِنْ عَيْنِ الثَّرِ وَمِنْ أَبْنَاءِ
تِلْكَ الْمُرَابِطَةِ سَبَايَا كَثِيرَةً فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ . فَكَانَ مِنْ تِلْكَ
السَّبَايَا أَبُو عَمْرَةَ مَوْلَى شَبَّانَ وَهُوَ أَبُو عَبْدِ الْأَعْلَى ابْنُ أَبِي عَمْرَةَ
وَعَبِيدَةُ مَوْلَى الْمُعْنَى مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي زُرَيْفٍ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ

مَوْلَى زَهْرَةَ وَخَيْرُ مَوْلَى أَبِي دَاوُدَ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَازِنِ
 بْنِ النَّجَّارِ وَيَسَارٌ وَهُوَ جَدُّ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ مَوْلَى قَيْسِ بْنِ مِخْزَمَةَ
 بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأَقْلَحُ مَوْلَى أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ
 أَحَدُ بَنِي مَلِكِ بْنِ النَّجَّارِ وَحِرَّانُ بْنُ أَبَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ .
 وَقَتَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ هَلَالَ بْنَ عُقْبَةَ بْنَ بَشْرِ النَّمِرِيِّ وَصَلَبَهُ بِعَيْنِ
 النَّمْرِ . ثُمَّ أَرَادَ السَّيْرَ مُقَوِّدًا مِنْ قُرَاقِرَ وَهُوَ مَاءٌ لِكَلْبٍ إِلَى سُوَى
 وَهُوَ مَاءٌ لِبَهْرَاءَ بَيْنَهُمَا خَمْسُ لَيَالٍ . فَلَمْ يَهْتَدِ خَالِدُ الطَّرِيقَ فَالْتَمَسَ
 دَلِيلًا فَدَلَّ عَلَى رَافِعِ بْنِ عَمِيرَةَ الطَّائِي فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : أَنْطَلِقْ بِالنَّاسِ :
 فَقَالَ لَهُ رَافِعٌ : إِنَّكَ لَنْ تُطِيقَ ذَلِكَ بِالْخَيْلِ وَالْأَثْقَالِ وَاللَّهُ إِنْ
 الرَّايِبِ الْمَفْرَدَ لِيَخَافَهَا عَلَى نَفْسِهِ وَمَا يَسْلُكُهَا إِلَّا مُغْرِرًا . إِنَّهَا لِحَمْسُ
 لَيَالٍ جِيَادٍ لَا يُصَابُ فِيهَا مَاءٌ مَعَ مَضَلَّتِهَا . فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : وَيَجُوكَ إِنَّهُ
 وَاللَّهِ إِنْ لِي بَدٌّ مِنْ ذَلِكَ إِنَّهُ قَدْ أَتَنِي مِنَ الْأَمِيرِ عَزْمَةٌ بِذَلِكَ
 فَمُرْ بِأَمْرِكَ . قَالَ أَسْتَكَثِرُوا مِنَ الْمَاءِ . مَنْ أَسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَصُرَّ
 أُذُنَ نَاقَتِهِ عَلَى مَا دَفْلِعَ فَإِنَّهَا الْمَهَالِكُ إِلَّا مَا دَفَعَ اللَّهُ . وَأَلْقَنِي
 عِشْرِينَ جَزُورًا عِظَامًا سِمَانًا مَشَارِفَ . فَأَتَاهُ بِهِنَّ خَالِدٌ فَعَمَدَ إِلَيْهِنَّ
 رَافِعٌ فَظَلَمَهُنَّ حَتَّى إِذَا أَجْهَدَهُنَّ عَطَشًا أَوْرَدَهُنَّ فَشَرِبْنَ حَتَّى إِذَا
 تَمَلَّاتْ عَمَدَ إِلَيْهِنَّ فَقَطَعَ مَشَافِرَهُنَّ ثُمَّ كَمَّهِنَّ لَيْلًا يَجْتَرِزْنَ . ثُمَّ
 لَخِلَى أَدْبَارَهُنَّ . ثُمَّ قَالَ لِحَالِدِ بْنِ قَسَارٍ خَالِدُ مَعَهُ مُغِدًّا بِالْخَيْلِ
 وَالْأَثْقَالِ . فَكَلَّمَا نَزَلَ مَنْزِلًا أَقْطَعَ أَرْبَعًا مِنْ تِلْكَ الشَّوَارِفِ فَأَخَذَ

مَا فِي أَكْرَاسِهَا فَسَقَاهُ الْحَيْلُ . ثُمَّ شَرِبَ النَّاسُ مِمَّا حَمَلُوا مَعَهُمْ مِنْ
 الْمَاءِ . فَلَمَّا خَشِيَ خَالِدٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الْمَقَارَةِ قَالَ لِرَافِعِ
 بْنِ عِمْرَةَ وَهُوَ أَرْمَدُ : وَيْحَكَ يَا رَافِعُ مَا عِنْدَكَ : قَالَ أَذْرَكَتُ الرِّيَّ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْعَلَمَيْنِ قَالَ لِلنَّاسِ : أَنْظَرُوا هَلْ تَرَوْنَ
 شَجِيرَةً مِنْ عَوْسَجٍ كَقَعْدَةِ الرَّجُلِ : فَقَالُوا مَا تَرَاهَا : فَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ
 وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . هَلَكْتُمْ وَاللَّهِ إِذَا وَهَّكْتُ . أَنْظَرُوا . فَطَلَبُوهَا
 فَوَجَدُوهَا قُطِعَتْ وَبَقِيََتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . فَلَمَّا رَأَاهَا الْمُسْلِمُونَ كَبَرُوا
 وَكَبَّرَ رَافِعُ بْنُ عِمْرَةَ ثُمَّ قَالَ : أَحْفَرُوا فِي أَصْلَاهَا : فَحَفَرُوا فَاسْتَخْرَجُوا
 عَيْنًا فَشَرَبُوا حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ فَأَتَتْصَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ
 الْمَنَازِلُ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا وَرَدَتْ هَذَا الْمَاءُ قَطُّ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَرَدَّتْهُ
 مَعَ أَبِي وَأَنَا غُلَامٌ . فَقَالَ شَاعِرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

لِلَّهِ عَيْنَا رَافِعٍ أَنِّي أَهْتَدَى فَوْزَ مِنْ قُرَاقِرٍ إِلَى سُوَى
 خِمْسًا إِذَا مَا سَارَهُ الْجَيْشُ بَكِي مَا سَارَهَا قَبْلَكَ إِنْسِي يُرَى
 فَلَمَّا أَتَاهُ خَالِدٌ إِلَى سُوَى أَغَارَ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ بِهِرَاءُ قَبْلَ
 الصُّبْحِ وَنَاسٌ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ خَمْرًا لَهُمْ فِي جَفْنَةٍ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَيْهَا
 وَمِنْهُمْ يَقُولُ

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ جَيْشِ أَبِي بَكْرٍ لَعَلَّ مَنَايَانَا قَرِيبٌ وَمَا نَذْرِي
 أَلَا عَلَّلَانِي بِالزُّجَاجِ وَكَرَّرَا عَلَيَّ كُنَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً تَجْرِي
 أَلَا عَلَّلَانِي مِنْ سُلَاقَةِ قَهْوَةٍ تُسَلِّي هُمُومَ النَّفْسِ مِنْ جَدِّ الْحَمْرِ

أَظُنُّ خِيُولَ الْمُسْلِمِينَ وَخَالِدًا سَطَرُكُمْ قَبْلَ الصَّبَاحِ مِنَ الْبَشْرِ
فَهَلْ لَكُمْ فِي السَّيْرِ قَبْلَ قِتَالِهِمْ وَقَبْلَ خُرُوجِ الْمُعْصِرَاتِ مِنَ الْحَذَرِ
قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ فَيَزْعُمُونَ أَنَّ مِنْهُمْ ذَلِكَ قُتِلَ تَحْتَ الْغَارَةِ
فَسَالَ دَمُهُ فِي تِلْكَ الْجَفْنَةِ ثُمَّ سَارَ عَلَى وَجْهِهِ ذَلِكَ حَتَّى أَغَارَ
عَلَى غَسَّانَ يَمْزِجُ رَاهِطٍ ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى قَنَاةٍ بُصْرَى وَعَلَيْهَا
أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَشُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ وَزَيْدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ
فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهَا فَرَابَطُوا حَتَّى صَالَحَتْ بُصْرَى عَلَى الْجَزْيَةِ وَفَتَحَهَا اللَّهُ
عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَكَانَتْ أَوَّلَ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الشَّامِ فَتَحَتْ فِي
خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ

مَرْكَةُ أَجْنَادِينَ

ثُمَّ سَارُوا جَمِيعًا إِلَى فِلَسْطِينَ مَدَدًا لِعَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَعَمْرٍو
مُعِيقٌ بِالْمَرْبَاتِ مِنْ غَوْرِ فِلَسْطِينَ وَسَمِعَتْ الرُّومُ بِهِمْ فَأَنْكَشَفُوا عَنْ
جَلْقٍ إِلَى أَجْنَادِينَ وَعَلَيْهِمْ تَذَارِقُ أَخُو هِرَقْلَ لِأَيِّهِ وَأُمِّهِ . وَأَجْنَادِينَ
بَلَدٌ بَيْنَ الرَّمْلَةِ وَبَيْتِ حَبْرِينَ مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ . وَسَارَ عَمْرٍو بْنُ
الْعَاصِ حِينَ سَمِعَ بِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَشُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ
وَزَيْدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ حَتَّى لَقِيَهُمْ فَاجْتَمَعُوا بِأَجْنَادِينَ حَتَّى عَسَكَرُوا
عَلَيْهِمْ

حَدَّثَنَا أَبُو حَمِيدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا سَلَمَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ
مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ يَعْنِي أَبْنَ الزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ :

كَانَ عَلَى الرُّومِ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ الْقَنْقَلَارُ كَانَ هِرَقْلُ اسْتَحْلَفَهُمْ
 وَاسْتَحْلَفَهُ عَلَى أَمْرِ الشَّامِ حِينَ سَارَ إِلَى الْقُسْطَنْطِينَةِ وَإِلَيْهِ أَنْصَرَفَ
 تَذَارِقُ بْنُ مَعَهُ مِنَ الرُّومِ . فَأَمَّا عُلَمَاءُ الشَّامِ فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ
 عَلَى الرُّومِ تَذَارِقُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . حَدَّثَنَا أَبُو حَمِيدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا سَلَمَةُ
 عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ : لَمَّا
 تَدَانَى الْعُسْكَرَانِ بَعَثَ الْقَنْقَلَارُ رَجُلًا غَرِيبًا فَقَالَ فَحَدَّثْتُ أَنَّ ذَلِكَ
 الرَّجُلَ رَجُلٌ مِنْ قُضَاعَةَ مِنْ يَزِيدَ بْنِ حَيْدَانَ يُقَالُ لَهُ أَبُو هَزَارِقَ
 فَقَالَ : أَذْخُلُ فِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَأَقِمُ فِيهِمْ يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ أُتْبِئِي
 بِخَبَرِهِمْ . قَالَ فَدَخَلَ فِي النَّاسِ رَجُلٌ عَرَبِيٌّ لَا يُنْكِرُ وَأَقَامَ فِيهِمْ
 يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ : مَا وَرَاءَكَ . قَالَ : بِاللَّيْلِ رُهْبَانٌ وَبِالنَّهَارِ
 فُرْسَانٌ وَلَوْ سَرَقَ أَبُو مَلِكِهِمْ قُطِعَتْ يَدُهُ وَلَوْ زَنَى رُجِمَ لِإِقَامَةِ
 الْحَقِّ فِيهِمْ . قَالَ الْقَنْقَلَارُ : لَئِنْ كُنْتُ صَدَقْتَنِي لَبَطَنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ
 مِنْ لِقَاءِ هَؤُلَاءِ عَلَى ظُهُورِهَا وَلَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنَ اللَّهِ أَنْ
 يُخْلِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَلَا يَنْصُرَنِي عَلَيْهِمْ وَلَا يَنْصُرَهُمْ عَلَيَّ . قَالَ : ثُمَّ
 تَرَاخَفَ النَّاسُ فَاقْتَسَلُوا . فَلَمَّا رَأَى الْقَنْقَلَارُ مَا رَأَى مِنْ قِتَالِ
 الْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلرُّومِ لُفُّوا رَأْسِي بِشَوْبٍ . قَالُوا لَهُ لِمَ . قَالَ يَوْمُ الْبُوسِ
 لَا أَحِبُّ أَنْ أَرَاهُ فَمَا رَأَيْتُ فِي الدُّنْيَا أَشَدَّ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ . قَالَ :
 فَاحْتَرَّ الْمُسْلِمُونَ رَأْسَهُ وَإِنَّهُ لَمُتَّفٌ . وَكَانَتْ وَقْعَةُ أَجْنَادِهِمْ فِي
 سَنَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لِلْيَمِينِ بَقِيَّتَا مِنْ جُمَادَى الْأُولَى وَقَتْلَ يَوْمَيْهِ .

الْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةً مِنْهُمْ سَلَمَةُ بْنُ هِشَامٍ بْنُ الْمَغِيرَةِ وَهَبَارُ بْنُ الْأَسْوَدِ
 بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ وَنُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّخَعِيُّ وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ
 وَائِلٍ وَجَمَاعَةٌ أُخَرُ مِنْ قُرَيْشٍ . قَالَ : وَلَمْ يُسَمَّ النَّاسُ مِنَ الْأَنْصَارِ
 أَحَدًا أُصِيبَ بِهَا . وَفِيهَا تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ لِثَمَانٍ لَيْالٍ بَقِيْنَ أَوْ سَبْعَ
 بَقِيْنَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ

فِي افْتِاحِ دِمَشَقَ

رَجَعَ الْحَدِيثُ إِلَى حَدِيثِ سَيْفٍ عَنْ أَبِي عَثْمَنِ عَنْ خَالِدٍ وَأَبِي
 عُبَادَةَ قَالَا : وَلَمَّا جَاءَ عُمَرُ الْكِتَابُ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بِالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ
 يَبْدَأَ بِهِ كَتَبَ إِلَيْهِ . أَمَّا بَعْدُ فَأَبْدُوا بِدِمَشَقَ وَأَنْهَدُوا فَإِنَّهَا حِصْنُ
 الشَّامِ وَبَيْتُ مَمْلَكَتِهِمْ وَأَشْغَلُوا عَنْكُمْ أَهْلَ فَحْلٍ بِحَيْلٍ تَكُونُ
 بِإِزَانِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ . وَأَهْلَ فِلَسْطِينَ وَأَهْلَ حِمَصَ . فَإِنْ فَتَحَهَا اللَّهُ
 قَبْلَ دِمَشَقَ فَذَلِكَ الَّذِي يَجِبُ وَإِنْ تَأَخَّرَ فَتَحَهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ
 دِمَشَقَ فَلْيَنْزِلْ بِدِمَشَقَ مِنْ يَمِينِكَ بِهَا وَدَعُوهَا وَأَنْطَلِقِ أَنْتَ وَسَائِرُ
 الْأُمَرَاءِ حَتَّى تُغِيرُوا عَلَى فَحْلٍ . فَإِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَنْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدُ
 إِلَى حِمَصَ وَدَعِ شُرَحْبِيلَ وَعُمَرَ وَخَالِدًا بِالْأَرْدَنِ وَفِلَسْطِينَ . وَأَمِيرُ
 كُلِّ بَلَدٍ وَجُنْدٍ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يُخْرِجَ مِنْ إِمَارَتِهِمْ . فَسَرَّحَ أَبُو عُبَيْدَةَ
 إِلَى فَحْلٍ أَحَدَ عَشَرَ قَوَادًا أَبَا الْأَعْوَرِ السَّلْمِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ
 عَامِرٍ الْحَرَشِيُّ وَعَامِرُ بْنُ حِشْمَةَ وَعُمَرُو بْنُ كَلْبٍ مِنْ يَحْصِبَ وَعُمَارَةُ بْنُ
 الصَّمِقِ بْنِ كَعْبٍ وَصَيْفِيُّ بْنُ عَلِيَّةَ بْنِ شَامِلٍ . وَعُمَرُو بْنُ فُلَانٍ

وَالْحَبِيبَ بْنَ عَمْرِو وَوَلِيدَةَ بْنَ عَامِرِ بْنِ خُثَيْمَةَ وَبِشَرَ بْنَ عَصَمَةَ وَعُمَارَةَ
 بْنَ مَخْشِيٍّ قَائِدَ النَّاسِ . وَمَعَ كُلِّ رَجُلٍ قُوَادٌ وَكَانَتْ الرُّوسَاءُ
 تَكُونُ مِنَ الصَّحَابَةِ حَتَّى لَا يَجِدُوا مَنْ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ . فَسَارُوا مِنْ
 الصُّفْرِ حَتَّى زَلُّوا قَرِيبًا مِنْ فَحْلٍ . فَلَمَّا رَأَتْ الرُّومُ أَنَّ الْجُنُودَ
 يُرِيدُهُمْ بَشُّوا الْمِيَاهَ حَوْلَ فَحْلٍ . فَارْدَعَتْ الْأَرْضُ ثُمَّ وَحَلَّتْ وَأَغْتَمَّ
 الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ فَحَبَسُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ فَارِسٍ
 وَكَانَ أَوَّلَ مَحْصُورٍ بِالشَّامِ أَهْلُ فَحْلٍ ثُمَّ أَهْلُ دِمَشَقَ

وَبِعَثُوا الْأَمْرَ . وَبَعَثَ أَبُو عُبَيْدَةَ ذَا الْكَلَاعِ حَتَّى كَانَ بَيْنَ
 دِمَشَقَ وَخِمَصَ رِذَاءً . وَبَعَثَ عَلْقَمَةَ بْنَ حَكِيمٍ وَمَسْرُوقًا وَكَانَا بَيْنَ
 دِمَشَقَ وَفَاسْطِينَ وَالْأَمِيرَ يُزَيْدَ قَفَصَلٍ وَقَفَصَلُ بَأَبِي عُيْدَةَ مِنْ
 الْمَرْجِ وَقَدِيمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَلَى مُجَنَّبِيهِ عَمْرُو وَأَبُو عُيْدَةَ . وَعَلَى
 الْحَيْلِ عِيَّاضُ وَعَلَى الرَّجْلِ شُرَحْبِيلُ . فَقَدِمُوا عَلَى دِمَشَقَ وَعَلَيْهِمْ
 نَسْطَاسُ بْنُ نِسْطُوسَ فَحَصَرُوا أَهْلَ دِمَشَقَ وَزَلُّوا حَوَالِيهَا . فَكَانَ
 أَبُو عُيْدَةَ عَلَى نَاحِيَةٍ وَعَمْرُو عَلَى نَاحِيَةٍ وَيُزَيْدُ عَلَى نَاحِيَةٍ وَهَرَقْلُ
 يَوْمِئِذٍ بِخِمَصَ وَمَدِينَةُ خِمَصَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ . فَحَاصَرُوا أَهْلَ دِمَشَقَ
 ثَمَحُوا مِنْ سَبْعِينَ لَيْلَةً حِصَارًا شَدِيدًا بِالزُّحُوفِ وَالتَّرَايِ وَالْمَجَانِيقِ
 وَهُمْ مُتَّصِمُونَ بِالْمَدِينَةِ يَرْجُونَ الْغِيَاثَ وَهَرَقْلُ مِنْهُمْ قَرِيبٌ . وَقَدْ
 اسْتَمَدُوهُ وَذُوا الْكَلَاعِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ خِمَصَ عَلَى رَأْسِ لَيْلَةٍ
 مِنْ دِمَشَقَ كَأَنَّهُ يُرِيدُ خِمَصَ وَجَاءَتْ خِيُولُ هَرَقْلَ مُنِيشَةً لِأَهْلِ

دِمَشْقَ فَأَشْجَتْهَا الْحَيُولُ الَّتِي مَعَ ذِي الْكُلَاعِ وَشَغَلَتْهَا عَنِ النَّاسِ .
فَارْزُوا وَرَزَلُوا بِإِزَانِهِ وَأَهْلُ دِمَشْقَ إِلَى حَالِهِمْ . فَلَمَّا أَقْبَنَ أَهْلُ
دِمَشْقَ أَنَّ الْإِمْدَادَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ فَشَاوُوا وَهَنُوا وَأَبْلَسُوا وَأَزْدَادَ
الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ طَمَعًا . وَقَدْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا كَأَنَّغَارِيَاتٍ قَبْلَ ذَلِكَ
إِذَا هَجَمَ الْبَرْدُ قَهَلَ النَّاسُ فَسَقَطَ النِّجْمُ وَالْقَوْمُ مُقْبِعُونَ

فَبِنْدَ ذَلِكَ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ وَتَدِيمُوا عَلَى دُخُولِ دِمَشْقَ وَوُلِدَ
لِلْبَطْرِيقِ الَّذِي عَلَى أَهْلِ دِمَشْقَ مَوْلُودٌ فَصَنَعَ عَلَيْهِ فَأَكَلَ الْقَوْمُ
وَشَرِبُوا وَعَدَلُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ وَلَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خَالِدٍ فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَنَامُ وَلَا يُنِيمُ وَلَا يَتَحَقَّى عَلَيْهِ
مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ . عُيُونُهُ ذَاكِيَةٌ وَهُوَ مُعْنَى بِمَا يَلِيهِ . قَدْ أُتِّخَذَ
جِبَالًا كَهَيْئَةِ السَّلَالِيمِ وَأَوْهَاقًا . فَلَمَّا أَمْسَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ نَهَضَ
وَمِنْ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ الَّذِينَ قَدِمَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَتَقَدَّمَهُمْ هُوَ وَالْقَعْقَاعُ
بْنُ عَمْرِو وَمَذْعُورُ بْنُ عَدِيٍّ وَأَمثالُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي أَوَّلِ يَوْمِهِ
وَقَالُوا : إِذَا سَمِعْتُمْ تَكْبِيرَنَا عَلَى السُّورِ فَارْقُوا إِلَيْنَا وَانْهَدُوا إِلَى الْبَابِ :
فَلَمَّا أَتَتْهُ إِلَى الْبَابِ الَّذِي يَلِيهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ الْمُتَقَدِّمُونَ رَمَوْا
بِالْحِجَالِ الشَّرَفَ وَعَلَى ظُهُورِهِمُ الْقَرِيبُ الَّتِي قَطَعُوا بِهَا خَنْدَقَهُمْ .
فَلَمَّا ثَبَتَ لَهُمْ وَهَقَّانِ تَسَلَّقَ فِيهِمَا الْقَعْقَاعُ وَمَذْعُورُ . ثُمَّ لَمْ يَدْعَا
أَحْبُولَةً إِلَّا ثَبَتَاهَا وَالْأَوْهَاقُ بِالشَّرَفِ . وَكَانَ الْمَكَانُ الَّذِي اقْتَحَمُوا
مِنْهُ أَحْصَنَ مَكَانٍ يُحِيطُ بِدِمَشْقَ أَكْثَرَهُ مَاءً وَأَشَدَّهُ مَدْخَلًا وَتَوَافَوْا

لِذَلِكَ فَلَمْ يَبْقَ مِمَّنْ دَخَلَ مَعَهُ إِلَّا رَقِيٌّ أَوْ دَنَا مِنَ الْبَابِ حَتَّى إِذَا اسْتَوَوْا عَلَى السُّورِ حَدَّرَ عَامَّةُ أَصْحَابِهِ وَأُنْحَدَرُ مَعَهُمْ وَخَلَفَ مَنْ يَحْيِي ذَلِكَ الْمَكَانَ لِمَنْ يَرْتَفِي . وَأَمَرَهُمْ بِالْتَّكْبِيرِ فَكَبَّرَ الَّذِينَ عَلَى رَأْسِ السُّورِ . فَهَذَا الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْبَابِ وَمَالَ إِلَى الْحِجَالِ بَشَرٌ كَثِيرٌ قَوَّثُوا فِيهَا وَأَنْتَهَى خَالِدٌ إِلَى مَنْ يَلِيهِ فَأَنَامَهُمْ وَأُنْحَدَرَ إِلَى الْبَابِ فَتَلَّوْا الْبَوَائِينَ وَثَارَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَفَزِعَ سَائِرُ النَّاسِ . فَأَخَذُوا مَوَاقِفَهُمْ وَلَا يَدْرُونَ مَا الشَّأْنُ وَتَشَاغَلَ أَهْلُ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِمَا بَيْنَهُمْ . وَقَطَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَمَنْ مَعَهُ أَغْلَاقَ الْبَابِ بِالسُّيُوفِ وَفَتَحُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ دَاخِلِهِ حَتَّى مَا بَقِيَ مِمَّا يَلِي بَابَ خَالِدٍ مُقَاتِلٌ إِلَّا أَنْيَمَ

وَلَمَّا شَدَّ خَالِدٌ عَلَى مَنْ يَلِيهِ وَبَلَغَ مِنْهُمْ الَّذِي أَرَادَ عَنُودَهُ وَارَزَّ مَنْ أَقَاتَ إِلَى الْأَبْوَابِ الَّتِي تَلِي غَيْرَهُ . وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ دَعَوْهُمْ إِلَى الْمُنَازَعَةِ فَأَبَوْا وَأَتَعَدُّوا فَلَمْ تَفْجَأْهُمْ إِلَّا وَهُمْ يَبُوحُونَ لَهُمْ بِالْصُّلْحِ . فَأَجَابُوهُمْ وَقَبِلُوا مِنْهُمْ وَفَتَحُوا لَهُمُ الْأَبْوَابَ وَقَالُوا : ادْخُلُوا فَأَمْنُونَا مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَابِ : وَدَخَلَ أَهْلُ كُلِّ بَابٍ بِصُلْحٍ مِنْ بَيْنِهِمْ وَدَخَلَ خَالِدٌ مِمَّا يَلِيهِ عَنُودَهُ . فَالْتَقَى خَالِدٌ وَالْقَوَادُ فِي وَسْطِهَا هَذَا اسْتِعْرَاضًا وَأَنْتِهَابًا وَهَذَا صُلْحًا وَتَسْكِينًا فَأَجْرُوا نَاحِيَةَ خَالِدٍ فَجَرَى الصُّلْحُ . فَصَارَ صُلْحٌ وَكَانَ صُلْحٌ دِمَشْقَ عَلَى مُقَاتِمَةِ الدِّيَارِ وَالْعَمَّارِ وَدِينَارٍ عَلَى كُلِّ رَأْسٍ . فَأَقْسَمُوا الْأَسْلَابَ فَكَانَ أَصْحَابُ

خَالِدٍ فِيهَا كَأَصْحَابِ سَائِرِ الْقَوَادِ وَجَرَى عَلَى الدِّيَارِ مَنْ بَقِيَ فِي
الصُّلْحِ جَرِيبٌ مِنْ كُلِّ جَرِيبِ أَرْضٍ وَوَقَفَ مَا كَانَ لِلْمُلُوكِ وَمَنْ
صَوَّبَ مَعَهُمْ فَيَسًا وَقَسَمُوا لِذِي الْكَلَّاعِ وَمَنْ مَعَهُ وَلَا يَبِي الْأَعْوَرِ
وَمَنْ مَعَهُ وَلِبِشِيرٍ وَمَنْ مَعَهُ وَبَعَثُوا بِالْبِشَارَةِ إِلَى عُمَرَ

فِي افْتِاحِ بِلَادِ فَارِسَ

وَقَعَةُ الْقَرْقِسِ

وَقَعَةُ الْقَرْقِسِ وَيُقَالُ لَهَا الْهَسُّ قَسُّ النَّاطِقِ وَيُقَالُ لَهَا الْجِسْرُ
وَيُقَالُ لَهَا الْمَرْوَحَةُ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: كَتَبَ إِلَى
السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَزِيَادَ بِإِسْنَادِهِمْ
قَالُوا: وَلَمَّا رَجَعَ الْجَالِنُوسُ إِلَى رُسْتَمَ وَمَنْ أَقْلَتَ مِنْ جُنُودِهِ قَالَ
رُسْتَمُ: أَيُّ الْعَجَمِ أَشَدُّ عَلَى الْعَرَبِ فِيمَا تَرُونَ: قَالُوا: بِهِمْ جَاذُوِيهِ.
فَوَجَّهَهُ وَمَعَهُ فِيهِ وَرَدَّ الْجَالِنُوسَ مَعَهُ: فَقَالَ لَهُ: قَدِمِ الْجَالِنُوسَ
فَإِنْ عَادَ لِمِثْلِهَا فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَأَقْبَلَ بِهِمْ جَاذُوِيهِ وَمَعَهُ دِرْفَسُ
كَأَيَّانَ رَأَى كِسْرَى وَكَانَتْ مِنْ جُلُودِ النَّمْرِ عَرْضَ ثَمَانِي أَذْرُعٍ
فِي طُولِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا. فَأَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدٍ حَتَّى نَزَلَ الْمَرْوَحَةَ
مَعَ الْبُرُوجِ وَالْعَاقُولِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِهِمْ جَاذُوِيهِ. إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا
إِلَيْنَا وَنَدْعَكُمْ وَالْعُبُورَ. وَإِمَّا أَنْ تَدْعُونَا نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ: فَقَالَ النَّاسُ:
لَا تَعْبُرُوا يَا أَبَا عُبَيْدٍ إِنَّا نَنْهَكَ عَنِ الْعُبُورِ. قَالُوا لَهُ: قُلْ لَهُمْ فَلْيَعْبُرُوا
وَكَانَ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ سَلِيطٌ. فَلَجَّ أَبُو عُبَيْدٍ وَتَرَكَ الرَّأْيَ

وَقَالَ: لَا يَكُونُوا أَجْرًا عَلَى الْمَوْتِ مِنَّا بَلْ نَعْبُرُ إِلَيْهِمْ . فَعَبَرُوا إِلَيْهِمْ
فِي مَنْزِلِ ضَيْقِ الْمَطَرِ وَالْمَذْهَبِ فَأَقْتَلُوا يَوْمًا وَأَبُو عُبَيْدٍ فِيهَا بَيْنَ
الْسِتَّةِ وَالْعَشْرَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ وَاسْتَبْطَأَ رَجُلٌ مِنْ
ثَقِيفٍ الْفَتْحَ وَأَلْفَ بَيْنِ النَّاسِ فَتَصَافَحُوا بِالسُّيُوفِ

فَعَبَرُوا إِلَيْهِمْ وَعَظَلَتِ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا وَأَلْحَمَ النَّاسُ الْحَرْبَ .
فَلَمَّا نَظَرَتْ الْخِيُولُ إِلَى الْفِيلَةِ عَلَيْهَا النَّجْلُ وَالنَّحْلُ عَلَيْهَا اتَّجَافِفُ
وَالْفَرَسَانِ عَلَيْهِمُ الشَّعْرُ رَأَتْ شَيْئًا مُنْكَرًا لَمْ تَكُنْ تَرَى مِثْلَهُ . فَجَعَلَ
الْمُسْلِمُونَ إِذَا حَمَلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يُقَدِّمُوا خِيُولَهُمْ . فَإِذَا حَمَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ
بِالْفِيلَةِ وَالْجَلَّالِ فَرَّقَتْ بَيْنَ كَرَادِيْسِهِمْ لَا تَقُومُ لَهَا النَّحْلُ إِلَّا
عَلَى نِقَارٍ وَخَرَقَهُمُ الْفَرَسُ بِالنُّشَابِ وَعَضَ الْمُسْلِمِينَ الْأَلْمُ وَجَعَلُوا
لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ . فَتَرَجَّلَ أَبُو عُبَيْدٍ وَتَرَجَّلَ النَّاسُ . ثُمَّ مَشَوْا إِلَيْهِمْ
فَصَافَحُوهُمْ بِالسُّيُوفِ . فَجَعَلَتِ الْفِيلَةُ لَا تَحْمِلُ عَلَى جَمَاعَةٍ إِلَّا دَفَعَتْهُمْ .
فَنَادَى أَبُو عُبَيْدٍ : احْتَرِشُوا الْفِيلَةَ وَقَطِّعُوا بَطْنَهَا وَأَقْلِبُوا عَنْهَا
أَهْلَهَا : وَوَأَبْ هُوَ الْفِيلُ الْأَبْيَضُ . فَتَعَلَّقَ بِبَطَانِهِ فَقَطَّعَهُ وَقَطَّعَ
الَّذِينَ عَلَيْهِ وَفَعَلَ الْقَوْمُ مِثْلَ ذَلِكَ فَمَا تَرَكَوا فِيلًا إِلَّا حَطُّوا أَهْلَهُ
وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ فَأَهْوَى الْفِيلُ لِأَبِي عُبَيْدٍ فَفَنَعَ مِشْفَرَهُ بِالسَّيْفِ فَأَثَّاهُ
الْفِيلُ بِيَدِهِ فَوَقَعَ فَخَبَطَهُ الْفِيلُ وَقَامَ عَلَيْهِ . فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ النَّاسُ
تَحْتَ الْفِيلِ خَشَعَتِ أَنْفُسُهُمْ وَأَخَذَ اللِّوَاءَ الَّذِي كَانَ أَمْرُهُ بَعْدَهُ
فَقَاتَلَ الْفِيلَ حَتَّى تَنَحَّى عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ فَأَجْتَرَّهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَاحْرَزُوا

وَسَلَّوْهُ وَتَجَرَ ثُمَّ الْفِيلُ يَدُهُ ذَاتَ أَبِي عُبَيْدٍ وَخَبَطَهُ الْفِيلُ وَقَامَ عَلَيْهِ وَتَتَابَعَ سَبْعَةٌ مِنْ ثَقِيفٍ كُلُّهُمْ يَأْخُذُ اللَّوَاءَ وَيُقَاتِلُ حَتَّى يَمُوتَ .
ثُمَّ لَخَذَ اللَّوَاءَ الْمُشَنَّى وَهَرَبَ النَّاسُ

فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْثَدٍ الثَّقَفِيَّ مَا لَقِيَ أَبُو عُبَيْدٍ وَخُلَقَاوُهُ
وَمَا يَصْنَعُ النَّاسُ بِأَدْرَهُمُ الْجِسْرَ فَقَطَعَهُ وَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ مُوتُوا
عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ أَمْرَاؤُكُمْ أَوْ تَغْفَرُوا وَأَجَارَ الْمُشْرِكُونَ الْمُسْلِمِينَ
إِلَى الْجِسْرِ وَجَشِعَ نَاسٌ فَتَوَاتَبُوا فِي الْفُرَاتِ فَفَرَّقَ مَنْ لَمْ يَصْبِرْ
وَأَسْرَعُوا فِيمَنْ صَبَرَ وَجَمَّى الْمُشَنَّى وَفُرْسَانٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ النَّاسَ
وَنَادَى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا دُونَكُمْ فَأَعْبَرُوا عَلَى هَيْئَتِكُمْ وَلَا تَذْهَبُوا خِفَانًا
لَنْ يُزَايِلَ حَتَّى تَرَاكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ وَلَا تُغْرِقُوا أَنْفُسَكُمْ :
فَوَجَدُوا الْجِسْرَ وَعَبَدُ اللَّهِ بْنُ مَرْثَدٍ قَائِمٌ عَلَيْهِ يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ الْعُبُورِ .
فَاتَوَا بِهِ الْمُشَنَّى فَضْرَبَهُ وَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ : قَالَ
لِيُقَاتِلُوا . وَنَادَى مَنْ عَبَرَ : فَجَاوُوا بِطُلُوجٍ فَضَمُّوا إِلَى السَّفِينَةِ الَّتِي
قَطَعُوا سَفَانَتَهَا وَعَبَرَ النَّاسُ . وَكَانَ آخِرُ مَنْ قُتِلَ عِنْدَ الْجِسْرِ سَلِيطُ
بْنُ قَيْسٍ . وَعَبَرَ الْمُشَنَّى وَجَمَّى جَانِبَهُ فَأَضْطَرَبَ عَسْكَرُهُ وَرَأَاهُمْ ذُو
الْحَاجِبِ فَلَمْ يَهْدِرْ عَلَيْهِمْ . فَلَمَّا عَبَرَ الْمُشَنَّى وَجَمَّى جَانِبَهُ أَرْفَضَ عَنْهُ
أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَهِيَ الْمُشَنَّى فِي قَائِهِ . كَتَبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ
عَنْ سَيْفٍ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَبِي عَثْمَانَ النَّهْدِيِّ قَالَ : هَلَكَ يَوْمَئِذٍ
أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَهَرَبَ آخَرُونَ وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ .

وَقْعَةُ الْبُؤَيْبِ

كُتِبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ
 وَزِيَادَ بِإِسْنَادِهِمْ قَالُوا: وَبِعِثَ الْمَثْنَى بَعْدَ الْجِسْرِ فِيمَنْ يَلِيهِ مِنَ
 الْمَدِينِ فَتَوَافُوا إِلَيْهِ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ وَبَلَغَ رُسْتَمُ وَالْفَيْرُزَانُ ذَلِكَ
 وَأَتَتْهُمُ الْعُيُونُ بِهِ وَبِمَا يَنْتَظِرُونَ مِنَ الْإِمْدَادِ وَاجْتَمَعَا عَلَى أَنْ
 يَبْعَثَا مِهْرَانَ الْهَمْدَانِيَّ حَتَّى يَمْدَا مِنْ رَأْيِهِمَا . فَخَرَجَ مِهْرَانُ فِي الْحَيُولِ
 وَأَمْرَاؤُهُ بِالْحِيرَةِ وَبَلَغَ الْمَثْنَى الْخَبْرُ وَهُوَ مُعْسَكِرٌ بِمَرْجِ السَّبَاخِ بَيْنَ
 الْقَادِسِيَّةِ وَخَفَّانَ فِي الَّذِينَ أَمَدُوهُ مِنَ الْعَرَبِ عَنْ خَيْرِ بَشِيرٍ وَكِتَانَةَ
 وَبَشِيرٍ يَوْمَئِذٍ بِالْحِيرَةِ . فَاسْتَبْطَنَ فُرَاتٌ بَادِقُلَى وَأَرْسَلَ إِلَى جَرِيرٍ
 وَمَنْ مَعَهُ إِنَّا جَاءَنَا أَمْرٌ لَمْ نَسْتَطِعْ مَعَهُ الْقِيَامَ حَتَّى تَقْدُمُوا عَلَيْنَا
 فَجَهِلُوا الْحَاقَ بِنَا وَمَوْعِدَكُمْ الْبُؤَيْبُ وَكَانَ جَرِيرٌ مُمِدًّا لَهُ . وَكُتِبَ إِلَى
 عَصْمَةَ وَمَنْ مَعَهُ وَكَانَ مُمِدًّا لَهُ يَمُنُّ ذَلِكَ وَإِلَى كُلِّ قَائِدٍ أَخْلَهُ يَمُنُّ
 ذَلِكَ وَخَذُوا عَلَى الْجُوفِ . فَسَلَكُوا عَلَى الْقَادِسِيَّةِ وَالْجُوفِ وَمَنْ
 سَلَكَ مَعَهُ طَرِيقَهُ فَأَتَتْهُوَ إِلَى الْمَثْنَى وَهُوَ عَلَى الْبُؤَيْبِ مِمَّا يَلِي مَوْضِعَ
 الْكُوفَةِ الْيَوْمَ وَعَلَيْهِمُ الْمَثْنَى وَهُوَ بِإِزَاءِ مِهْرَانَ وَعَسْكَرِهِ . فَقَالَ الْمَثْنَى
 لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ . مَا يُقَالُ لِلرُّقْعَةِ الَّتِي فِيهَا مِهْرَانُ وَعَسْكَرُهُ :
 قَالَ بُسْيَا . فَقَالَ الْكُذَى مِهْرَانُ وَهَلَاكَ عَسْكَرُهُ زَلَّ مَبْنًى لَا هُوَ
 السُّوسُ . وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ حَتَّى كَاتَبَهُ مِهْرَانُ إِمَّا أَنْ تَمِيرُوا إِلَيْنَا وَإِمَّا

أَنْ تَعْبُرَ إِلَيْكُمْ . فَقَالَ الْمُثَنَّى : أَعْبُرُوا فَعَبَرَ مِهْرَانُ فَتَزَلَّ عَلَى شَاطِئِ
 الْفُرَاتِ مَعَهُمْ فِي الْمِلْطَاطِ . فَقَالَ الْمُثَنَّى : كَذَلِكَ لِلرَّجُلِ . مَا يُقَالُ لَهُذِهِ
 أَرْقَعَةٌ الَّتِي زَلَّهَا مِهْرَانُ وَأَصْحَابُهُ وَعَسْكَرُهُ قَالَ شُومِيَا . وَذَلِكَ فِي
 رَمَضَانَ . فَتَادَى فِي النَّاسِ أَنْهَدُوا لِعَدُوِّكُمْ . فَتَنَاهَدُوا وَقَدْ كَانَ
 الْمُثَنَّى عَبَى الْجَيْشِ . فَجَعَلَ عَلَى مُجَنَّبِيهِ مَذْعُورًا وَالنُّسِيرَ وَعَلَى الْمَجْرَدَةِ
 عَاهِمًا وَعَلَى الطَّلَاحِ عَصِمَةً وَأَصْطَفَى الْقَرِيقَانَ وَقَامَ الْمُثَنَّى فِيهِمْ خَطِيبًا
 فَقَالَ : إِنَّكُمْ صَوَامٌ وَالصَّوْمُ مَرْقَةٌ وَمَضْعَفَةٌ وَإِنِّي أَرَى مِنْ الرَّأْيِ أَنْ
 تُفْطَرُوا . ثُمَّ تَقَوُّوا بِالطَّعَامِ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ : قَالُوا نَعَمْ : فَأَفْطَرُوا
 فَأَبْصَرَ رَجُلًا يَسْتَوْفِرُ وَيَسْتَنْتِلُ مِنَ الصَّفِّ فَقَالَ : مَا بَالُ هَذَا :
 فَقَالُوا مِمَّنْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ يَوْمَ الْجِسْرِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَقْتِلَ فَرْعَهُ
 بِالرُّمْحِ وَقَالَ : لَا أَبَا لَكَ أَلْزَمَ مَوْقِفَكَ فَإِذَا أَتَاكَ فِرْنُكَ فَأَغْنِهِ عَنْ
 صَاحِبِكَ وَلَا تَسْتَعْتِلْ . قَالَ : إِنِّي بِذَلِكَ لَجْدِيرٌ فَاسْتَقَرَّ وَلَزِمَ الصَّفَّ .
 كَتَبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ الشَّيْبَانِيِّ مِثْلَهُ

كَتَبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ عَنْ
 أَبِيهِ أَنَّ النَّجْمَ لَمَّا أُذِنَ لَهُمْ فِي الْعُبُورِ زَلُّوا شُومِيَا مَوْضِعَ دَارِ الرِّزْقِ .
 فَتَعَبُوا لَمَّا جَاؤُوا هُنَالِكَ . فَأَقْبَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي صُفُوفٍ ثَلَاثَةٍ مَعَ
 كُلِّ صَفٍّ فِيلٌ وَرَجُلُهُمْ أَمَامَ فِيلِهِمْ وَجَاؤُوا لَهُمْ رُجُلٌ . فَقَالَ الْمُثَنَّى
 لِلْمُسْلِمِينَ : الَّذِي تَسْمَعُونَ فَشَرٌّ فَالْزُمُوا الصَّمْتَ وَانْتَبِهُوا بَيْنَكُمْ
 هَمْسًا . فَدَنَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَجَاؤُوهُمْ مِنْ قُبَلِ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمٍ ثُمَّ حَوَّ

مَوْضِعَ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمِ الْيَوْمَ. فَلَمَّا دَنَوْا زَحَفُوا وَصَفَّ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا
بَيْنَ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمِ الْيَوْمَ وَمَا وَرَاءَهُ

• كَتَبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ
قَالَا: وَكَانَ عَلَى مُحَبِّتِي الْمُثَنَّى بَشِيرٌ وَيَشْرُ بْنُ أَبِي وَهْمٍ وَعَلَى مُجَرَّدَتِهِ
الْمُثَنَّى وَعَلَى الرَّجُلِ مَسْمُودٌ وَعَلَى الطَّلَاحِ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ النَّسِيرُ
وَعَلَى الرِّدْءِ مَذْعُورٌ وَكَانَ عَلَى مُحَبِّتِي مِهْرَانُ بْنُ الْأَزَادِيهِ مَرْزُبَانُ
الْحَيْرَةِ وَمَرْدَنْشَاهُ. وَأَمَّا خَرَجَ الْمُثَنَّى طَافَ فِي صُفُوفِهِ يَتَوَسَّدُ إِلَيْهِمْ
عَهْدَهُ وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ الشَّمْسُ وَكَانَ يُدْعَى الشَّمْسُ مِنْ ابْنِ عَرِيكَتِهِ
وَلِمَهَارَتِهِ. فَكَانَ إِذَا رَكِبَهُ قَاتِلٌ وَكَانَ لَا يَرْكَبُهُ إِلَّا لِقِتَالٍ يُودَعُهُ مَا
لَمْ يَكُنْ قِتَالٌ. فَوَقَفَ عَلَى الرَّايَاتِ رَايَةً رَايَةً يُخَضِّضُهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ
بَأَمْرِهِ وَيَنْهَاهُمْ بِمَا فِيهِمْ تَخْضِيعُهُمْ وَلِكُلِّهِمْ يَهْوُلُ: إِنِّي لَا زُجُوَانُ لَا
تَوْتِي الْعَرَبُ مِنْ قَبْلِكُمْ الْيَوْمَ. وَاللَّهِ مَا يَسُرُّنِي الْيَوْمَ لِنَفْسِي شَيْءٌ
إِلَّا وَهُوَ يَسُرُّنِي لِعَامَّتِكُمْ. فَيُجِيبُونَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ. وَأَنْصَتَهُمُ الْمُثَنَّى
فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَخَطَطَ النَّاسَ فِي الْمَكْرُوهِ وَالْمُحْبُوبِ. فَلَمْ يَسْتَطِعْ
أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُعَيِّبَ لَهُ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا. ثُمَّ قَالَ: إِنِّي مُكَبِّرٌ ثَلَاثًا فَتَهَيَّؤُوا
ثُمَّ أَجْمَلُوا مَعَ الرَّابِعَةِ: فَلَمَّا كَبَّرَ أَوَّلَ تَكْبِيرِهِ رَكَدَتْ خِيَلُهُمْ وَحَرَبُهُمْ
مَلِيًّا. فَلَمَّا رَأَى الْمُثَنَّى خَلَا فِي بَعْضِ صُفُوفِهِ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا
وَقَالَ: إِنَّ الْأَمِيرَ يَقْرَأُ عَلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَهْوُلُ: لَا تَفْضَحُوا الْمُسْلِمِينَ
الْيَوْمَ: فَقَالُوا نَعَمْ: وَاعْتَدَلُوا وَجَعَلُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَرَوْنَهُ وَهُوَ يَمْدُ حَيْثَهُ

لَمَّا بَرَى مِنْهُمْ فَأَعْتَبُوا بِأَمْرِ لَمْ يَحْجِ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ
فَرَمَوْهُ فَرَأَوْهُ يَضْحَكُ فَرَحًا وَالْقَوْمُ بَيْنَ عَجَلٍ وَمَا وَرَاءَهَا
فَلَمَّا طَالَ الْقِتَالُ وَاشْتَدَّ عَمْدُ الْمُشْتَى إِلَى أَنَسِ بْنِ هِلَالٍ قَالُوا:
يَا أَنَسُ إِنَّكَ أَمْرٌ عَرَبِيٌّ وَإِنْ لَمْ تَكُ عَلَى دِينِنَا . فَإِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ
جَمَلْتُ عَلَى مِهْرَانَ فَأَجْعَلْ مَعِيَ . وَقَالَ لَا بَنِ ذِي السَّهْمَيْنِ مِثْلَ ذَلِكَ
فَأَجَابَهُ . فَحَمَلَ الْمُشْتَى عَلَى مِهْرَانَ فَأَزَالَهُ حَتَّى دَخَلَ فِي مَبْنَتِهِ . ثُمَّ
خَالَطُوهُمْ فَأَجْتَمَعَ الْقَلْبَانِ وَارْتَفَعَ الْغَبَارُ وَالْمُحَنِّبَاتُ تُقْتَلُ لَا
يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْرُغُوا لِنَصْرِ أَمِيرِهِمْ لَا الْمُشْرِكُونَ وَلَا الْمُسْلِمُونَ .
وَأَرْتَمَتْ مَسْعُودٌ يَوْمَئِذٍ وَقَوَادٌ مِنْ قَوَادِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ كَانَ قَالَهُمْ:
إِذَا رَأَيْتُمُونَا أَصْبْنَا فَلَا تَدْعُوا مَا أَنتُمْ فِيهِ فَإِنَّ أَحَدَ الْجَيْشَيْنِ يَنْكَشِفُ
ثُمَّ يَنْصَرِفُ وَأَغْنُوا غَنَاءَ مَنْ يَلِيكُمْ : وَأَوْجَعَ قَلْبُ الْمُسْلِمِينَ فِي
قَلْبِ الْمُشْرِكِينَ وَقَتْلَ غُلَامٍ مِنَ التَّغْلِبِيِّينَ نَصْرَانِيٍّ مِهْرَانَ فَلَسْتَوَى
عَلَى فَرَسِهِ . فَجَمَلَ الْمُشْتَى سَلْبَهُ لِصَاحِبِ خَيْلِهِ . وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ
الْمُشْرِكُ فِي خَيْلٍ رَجُلٍ قَتَلَ وَسَلَبَ فَهُوَ الَّذِي هُوَ أَمِيرٌ عَلَى مَنْ
قَتَلَهُ وَكَانَ لَهُمْ قَائِدَانِ أَحَدُهُمَا جَرِيرٌ وَالْآخَرُ ابْنُ الْهَوَيْرِ فَأَقْتَسَمَا
كُتِبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ
مُحَفَّرٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ قَالَ : جَلَبَ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ أَفْرَاسًا . فَلَمَّا أَلْتَمَى
الزَّحْفَانِ يَوْمَ الْبُؤَيْبِ قَالُوا : لَا تُهَاتِلُ الْعَرَبَ مَعَ الْعَجَمِ فَأَصَابَ
أَحَدُهُمْ مِهْرَانَ يَوْمَئِذٍ وَهَدَّ عَلَى فَرَسٍ لَهُ وَرَدَ مُحَفَّفٌ بِجَنَافٍ أَصْفَرِ

بَيْنَ عَيْنَيْهِ هَالِكٌ وَعَلَى ذَنْبِهِ أَهْلَةٌ فَاسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ ثُمَّ اتَّسَى
 فَقَالَ: أَنَا الْغُلَامُ الثَّغْلِيُّ أَنَا قَتَلْتُ الْمَرْزُبَانَ : فَأَتَاهُ جَرِيرٌ وَابْنُ الْهَوَيْرِ
 فِي قَوْمِهِمَا فَأَخَذَا بِرِجْلَيْهِ فَأَزَلَاهُ . كَتَبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ
 سَيْفٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمَرْزُبَانَ أَنَّ جَرِيرًا وَالْمُنْذِرَ اشْتَرَكَاهُ فَأَخْتَصَمَا
 فِي سِلَاحِهِ فَتَقَاضِيَا إِلَى الْمُثَنَّى . فَجَعَلَ سِلَاحُهُ بَيْنَهُمَا وَالْمِنْطَقَةُ وَالسِّوَارَيْنِ
 بَيْنَهُمَا وَأَفْتَوْا قَابَ الْمُشْرِكِينَ . كَتَبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ
 سَيْفٍ عَنْ أَبِي رَوْقٍ قَالَ : وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَأْتِي الْبُوَيْبَ فَنَرِي فِيهَا
 بَيْنَ مَوْضِعِ السُّكُونِ وَبَنِي سُلَيْمٍ عِظَامًا يَيْضًا تَلُوحُ مِنْ هَامِهِمْ
 وَأَوْصَالِهِمْ يُعْتَبَرُ بِهَا . قَالَ وَحَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ شَهِدَهَا أَنَّهُمْ كَانُوا
 يَحْزُرُونَهَا بِمِائَةِ أَلْفٍ قَتِيلٍ مِنَ الْعَجَمِ وَمَا عُنِيَ عَلَيْهَا حَتَّى دَفَنَهَا
 أَذْفَانُ الْيُوتِ

كَتَبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ الْحَرِثِ
 قَالَ : لَمَّا أَهْلَكَ اللَّهُ مِهْرَانَ اسْتَمَكَنَ الْمَسَامُونَ مِنَ الْغَارَةِ عَلَى السَّوَادِ
 فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِجْلَةَ فَخَرُّوَهَا لَا يَخَافُونَ كَيْدًا وَلَا يَأْقُونَ فِيهِ مَا نَعَاءُ .
 وَاتَّقَضَتْ مَسَاحِ الْعَجَمِ فَرَجَعَتْ إِلَيْهِمْ وَأَعْتَصَمُوا بِسَابِاطٍ وَسَرَّهِمْ
 أَنْ يَتْرُكُوا مَا وَرَاءَ دِجْلَةَ . فَكَانَتْ وَقْعَةُ الْبُوَيْبِ فِي رَمَضَانَ
 سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ قَتَلَ اللَّهُ مِهْرَانَ وَجَيْشَهُ وَأَفْعَمُوا جَنْبَتِي الْبُوَيْبِ
 عِظَامًا حَتَّى اسْتَوَى وَمَا عُنِيَ عَلَيْهَا التُّرَابُ أَرْمَانَ الْفَتَنِ وَمَا يُثَارُ
 هُنَالِكَ شَيْءٌ إِلَّا وَقَعُوا مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ . وَهُوَ مَا بَيْنَ السُّكُونِ

وَمَرْهَبَةٌ وَبَنِي سُلَيْمٍ وَكَانَ مَغِيضًا لِلْفُرَاتِ أَرْمَانُ الْأَكَاكِسِرَةِ
يَصُبُّ فِي الْجُوفِ. وَقَالَ الْأَعُورُ الْعَبْدِيُّ الشَّيْءُ
هَاجَتْ لِأَعُورِ دَارِ الْحَيِّ إِخْنَانَا وَاسْتَبَدَلَتْ بَعْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ خَفَانَا
وَقَدْ أَرَانَا هَاكَ وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ إِذْ بِالْبَجِيلَةِ قَتْلُ جُنْدٍ مِهْرَانَا
أَرْمَانُ سَارَ الْمُثَنَّى بِالْحَيُولِ لَهُمْ قَتَلَ الزَّحَفَ مِنْ فُرْسٍ وَجِيَالَانَا
سَمَا لِمِهْرَانَ وَالْجَيْشِ الَّذِي مَعَهُ حَتَّى أَبَادَهُمْ مَثْنَى وَوَحْدَانَا



من كتاب الفخري في الآداب السلطانية
والدول الإسلامية

ذكر خلافة هرون الرشيد (١)

بُوع بالخلافة في سنة سبعين ومئة . كان الرشيد من أفضل
الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم كان يحج سنة ويفزو سنة .
كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة . قالوا : وكان يصلي في كل
يوم مئة ركعة . وحج ماشياً . ولم يحج خليفة ماشياً غيره . وكان إذا
حج معه مئة من الفقهاء وأبناؤهم . وإذا لم يحج أحج ثمانمائة
رجل بالنفقة السابقة . والكسوة الظاهرة . وكان يتشبه في أفعاله
بالتصور إلا في بذل المال . فإنه لم ير خليفة أسمع منه بالمال .
وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر . وكان يحب الشعر

(١) اما هرون الرشيد احد الخلفاء العباسيين فقد ولد في سنة ٧٦٥ في ري من
ميديا وتوفي في سنة ٨٠٩ في طوس . وقد اشتهر هذا الخليفة بمحاربته جيوش الملكة
ايرينا في اسيا الصغرى لما قام مقام اخيه موسى الهادي على السدة الملوكية في سنة ٧٨٦ .
فشق على موسى فلاح اخيه هارون فقصده قتله . فلما رأت والدتهما ان لا بد من قتل
احد ولدكما اختارت موت موسى على هارون الذي رفع شان دولة العباسيين الى اعلى
ذرى المظنة والمجد . ففتح الفتوحات الشهيرة في اسيا وحارب مراراً ايرينا ونيكفور
الى ان اجبرهما على اداء الجزية واتسعت اتصالاته حتى المغرب . وتحاب مع كارلوس
الكبير ملك فرنسا . ومما امتاز به هذا الخليفة حسن التفاته الى العلوم والصنائع فازهرت
في ايام دولته . فخط العلماء والادباء عصا الترحال عند بلاطه . غير انه كثيراً ما ابدى
من القساوة المنكرة لاسيما ضد البرامكة الذين كانوا قد حازوا ملو اذامه

وَالشُّعْرَاءُ وَيَمِيلُ إِلَى أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْفِقْهِ وَيُكْرَهُ الْمِرَاءُ فِي الدِّينِ .
وَكَانَ يُحِبُّ الْمَدِيحَ لَا سِيَّامًا مِنْ شَاعِرٍ فَصِيحٍ . وَتُجْزِلُ الْعَطَاءُ عَلَيْهِ
قَالَ الْأَصْبَعِيُّ : صَنَعَ الرَّشِيدُ طَعَامًا وَزَخْرَفَ بِحَالِهِ وَلَحْظَرَ
أَبَا الْمَتَاهِيَةِ وَقَالَ لَهُ : صِفْ لَنَا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ نَعِيمِ هَذِهِ الدُّنْيَا :
فَقَالَ أَبُو الْمَتَاهِيَةِ :

عِشْ مَا بَدَأَ لَكَ سَالِمًا فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ
فَقَالَ الرَّشِيدُ : أَحْسَنْتَ ثُمَّ مَاذَا : فَقَالَ :

يُسْعَى عَلَيْكَ بِمَا أَشْتَهَيْتَ لَدَى الرُّوَاحِ أَوْ الْبُكُورِ
فَقَالَ : حَسَنٌ ثُمَّ مَاذَا : فَقَالَ :

فَإِذَا الْفُؤُوسُ تَقَقَّقَتْ فِي ظِلِّ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ
فَهُنَاكَ تَعْلَمُ مُوقِنًا مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ
فَبَكَى الرَّشِيدُ . فَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى : بَعَثَ إِلَيْكَ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ لِتُسَرَّهُ فَحَزَنَتْهُ : فَقَالَ الرَّشِيدُ : دَعَهُ فَإِنَّهُ رَأَى فِي عَمَى
فِكْرِهِ أَنْ يَزِيدَنَا مِنْهُ .

وَكَانَ الرَّشِيدُ يَتَوَاضَعُ لِلْعُلَمَاءِ . قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ :
وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ النَّاسِ . أَكَلْتُ مَعَ الرَّشِيدِ يَوْمًا . فَصَبَّ عَلَى يَدَيِ
الْمَاءِ رَجُلٌ فَقَالَ لِي : يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ . أَتَدْرِي مَنْ صَبَّ الْمَاءَ عَلَى يَدَيْكَ :
فَقُلْتُ لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ أَنَا . فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ
تَفْعَلُ هَذَا إِجْلَالًا لِلْعِلْمِ . قَالَ نَعَمْ .

فِي أَيَّامِهِ خَرَجَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ بْنِ
عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، شَرَحَ كَيْفِيَّةَ الْحَالِ فِي ذَلِكَ

• كَانَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَدْ خَافَ مِمَّا جَرَى عَلَى أَخَوَيْهِ النَّفْسِ

الزُّكِّيَّةِ وَإِبْرَاهِيمَ قَتِيلَ بَاخْمَرِي، فَمَضَى إِلَى الدَّيْلَمِ، فَأَعْتَقَدُوا فِيهِ

اِسْتَحْقَاقَ الْإِمَامَةِ وَبَايَعُوهُ وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْأَمْصَارِ وَقَوِيَتِ

شَوْكَتُهُ، فَأَعْتَمَ الرَّشِيدُ لِذَلِكَ، وَنَدَبَ إِلَيْهِ الْفَضْلَ بْنَ يَحْيَى فِي

خَمْسِينَ أَلْفًا وَوَلَّاهُ جُرْجَانَ وَطَبْرِسْتَانَ وَالرِّيَّ وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَتَوَجَّهَ

الْفَضْلُ بِالْجُنُودِ، فَلَطَفَ بِيَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَحَذَرَهُ وَخَوَّفَهُ وَرَغَّبَهُ،

فَالَ يَحْيَى إِلَى الصُّلْحِ وَطَلَبَ أَمَانًا بِخَطِّ الرَّشِيدِ وَأَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ فِيهِ

الْقَضَاءُ وَالْفُقَهَاءُ وَجِلَّةُ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَجَابَهُ الرَّشِيدُ إِلَى ذَلِكَ وَسُرَّ بِهِ

وَكَتَبَ لَهُ أَمَانًا بَلِيغًا بِخَطِّهِ، وَشَهِدَ عَلَيْهِ فِي الْقَضَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَمَشَائِخِ

بَنِي هَاشِمٍ وَسَيَرِ الْأَمَانِ مَعَ هَدَايَا وَتُخَفٍ، فَقَدِمَ يَحْيَى مَعَ الْفَضْلِ

فَأَمَّيَهُ الرَّشِيدُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِكُلِّ مَا أَحَبَّ، ثُمَّ حَبَسَهُ عِنْدَهُ وَأَسْتَنْتَى

الْفُقَهَاءَ فِي نَقْضِ الْأَمَانِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَفْتَى بِصِحَّتِهِ فَحَاجَّهُ، وَمِنْهُمْ

مَنْ أَفْتَى بِبُطْلَانِهِ فَأَبْطَلَهُ، ثُمَّ قَتَلَهُ بَعْدَ ظُهُورِ آيَةٍ لَهُ عَظِيمَةٍ

شَرَحَ الْآيَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي قَضِيَّةِ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

حَضَرَ رَجُلٌ مِنَ آلِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عِنْدَ الرَّشِيدِ وَسَعَى

بِيَحْيَى وَقَالَ: إِنَّهُ بَعْدَ الْأَمَانِ فَعَلَّ وَصَنَعَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى نَفْسِهِ،

فَأَحْضَرَهُ الرَّشِيدُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَجَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الزُّبَيْرِيِّ، وَسَأَلَهُ عَنْ

ذَلِكَ فَأَنْكَرَ . فَوَاقَفَهُ الزُّبَيْرِيُّ فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا
فَأُحْلِفُ : فَقَالَ الزُّبَيْرِيُّ : وَاللَّهِ الطَّالِبِ الْغَالِبِ وَأَرَادَ أَنْ يُتِمَّمَ
الْيَمِينَ : فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : دَعْ هَذِهِ الْيَمِينَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا تَجَدَّ الْعَبْدُ
لَمْ يُعْجَلْ عُقُوبَتُهُ . وَلَكِنْ أُحْلِفُ لِي بِيَمِينِ الْبَرَاءَةِ . وَهِيَ يَمِينُ عُظْمَى
صُورَتِهَا أَنْ يَهُولَ عَنْ نَفْسِهِ : بَرَى مِنْ حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ . وَدَخَلَ فِي
حَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهَا إِنْ كَانَ كَذَاً وَكَذَاً : فَلَمَّا سَمِعَ الزُّبَيْرِيُّ هَذِهِ
الْيَمِينَ أَرْتَاعَ لَهَا وَقَالَ : مَا هَذِهِ الْيَمِينُ الْغَرِيبَةُ وَأَمْتَنَ مِنْ أُلْحَافِ
بِهَا : فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : مَا مَعْنَى أَمْتَنَ ذِكْ . إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَمَا تَقُولُ
فَمَا خَوْفُكَ مِنْ هَذِهِ الْيَمِينِ : فَخَافَ بِهَا . فَمَا خَرَجَ مِنَ الْمَجْلِسِ حَتَّى
ضَرَبَ بِرِجْلِهِ وَمَاتَ . وَقِيلَ مَا أَنْقَضَى النَّهَارُ حَتَّى مَاتَ . فَحَمَلُوهُ إِلَى
الْقَبْرِ وَحَطُّوهُ فِيهِ وَأَرَادُوا أَنْ يَطْمُوا الْقَبْرَ بِالْتُّرَابِ . فَكَانُوا كَأَمَّا
جَعَلُوا التُّرَابَ فِيهِ ذَهَبَ التُّرَابُ وَلَا يَنْظُمُ الْقَبْرُ فَعَلِمُوا أَنَّهَا آيَةٌ
سَمَاوِيَّةٌ . فَسَقُّوا الْقَبْرَ وَرَاحُوا . وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ أَبُو فِرَاسٍ بْنُ
حَمْدَانَ فِي مِيمَتِهِ بِقَوْلِهِ :

يَا جَاهِدًا فِي مَسَاوِيهِمْ يُكْتَبُهَا

عَذْرُ الرَّشِيدِ بِيَحْيَى كَيْفَ يَنْكَبُ

ذَاقَ الزُّبَيْرِيُّ غِبَّ الْحِنْتِ وَأَنْكَشَفَتْ

عَنْ ابْنِ فَاطِمَةَ الْأَقْوَالُ وَالْأَتَهْمُ

وَمَعَ ظُهُورٍ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ قَتَلَ يَحْيَى فِي الْحَبْسِ شَرَّ قَتْلَةٍ

وَكَانَتْ دَوْلَةُ الرَّشِيدِ مِنْ أَحْسَنِ الدُّوَلِ وَأَكْثَرَهَا وَقَارًا وَرَوْنَقًا
وَحَيْرًا وَأَوْسَعَهَا رُقْعَةً مَمْلَكَةً . جَبَى الرَّشِيدُ مُعْظَمَ الدُّنْيَا . وَكَانَ أَحَدُ
عَمَلِهِ صَاحِبَ مِصْرَ . وَلَمْ يَجْتَمِعْ عَلَى بَابِ خَلِيفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَشْرَاءِ
وَالْفُقَهَاءِ وَالْأَهْرَاءِ وَالْقُضَاةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّدَمَاءِ وَالْمُغَنِّينَ مَا اجْتَمَعَ عَلَى
بَابِ الرَّشِيدِ . وَكَانَ يَصِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَجْزَلَ صَلَوةٍ وَيَرْفَعُهُ إِلَى
أَعْلَى دَرَجَةٍ . وَكَانَ فَاضِلًا شَاعِرًا رَاقِيَةً لِلْأَخْبَارِ وَالْأَثَارِ وَالْأَشْعَارِ .
صَحِيحَ الذَّوْقِ وَالْتِمِيزِ مَهِيًا عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْأَمَامَةِ . قَبِضَ عَلَى مُوسَى
بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . وَأَحْضَرَهُ فِي قُبَّةٍ إِلَى بَغْدَادَ . فَحَبَسَهُ بِدَارِ
السِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ . ثُمَّ قُتِلَ وَأُظْهِرَ أَنَّهُ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ

شَرَحَ كَيْفِيَّةَ الْحَالِ فِي ذَلِكَ . كَانَ بَعْضُ حُصَادِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ
مِنْ أَقَارِبِهِ قَدْ وَشَى بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ وَقَالَ لَهُ : إِنَّ النَّاسَ يَحْمِلُونَ إِلَى
مُوسَى خَمْسَ أَمْوَالِهِمْ وَيَتَّقِدُونَ إِمَامَتَهُ وَإِنَّهُ عَلَى عِزِّهِ الْخُرُوجِ عَلَيْكَ .
وَأَكْثَرُ فِي الْقَوْلِ فَوْقَ ذَلِكَ عِنْدَ الرَّشِيدِ بِمَوْقِعِ أَهْمِهِ وَأَقْلَقَتُهُ . ثُمَّ أُعْطِيَ
الْوَأَشِيَّ مَالًا أَحَالَهُ بِهِ عَلَى الْبِلَادِ . فَلَمْ يَسْتَمِعْ بِهِ وَمَا وَصَلَ الْمَالُ
مِنَ الْبِلَادِ إِلَّا وَقَدْ مَرَضَ مَرَضَةً شَدِيدَةً وَمَاتَ فِيهَا . وَأَمَّا الرَّشِيدُ
فَإِنَّهُ حَجَّ فِي تِلْكَ السَّنَةِ . فَلَمَّا وَرَدَ الْمَدِينَةَ قَبِضَ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ
وَحَمَلَهُ فِي قُبَّةٍ إِلَى بَغْدَادَ . فَحَبَسَهُ عِنْدَ السِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ وَكَانَ
الرَّشِيدُ بِالرُّقَّةِ . فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ قَتْلًا خَفِيًّا . ثُمَّ أَذْخَلُوا عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِنْ
الْعُدُولِ بِالْكَرْخِ لِشَاهِدُوهُ إِظْهَارًا أَنَّهُ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ . صَلَوَاتُ

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمَاتَ الرَّشِيدُ بِطُوسَ . وَكَانَ خَرَجَ إِلَى خُرَاسَانَ
لِحَارَبَةِ رَافِعِ بْنِ الْأَيْثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ . وَكَانَ هَذَا رَافِعٌ قَدْ خَرَجَ
وَحَلَعَ الطَّلَاعَةَ وَتَغَلَّبَ عَلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَتَلَ عَامِلَهَا وَمَلَكَهَا وَقَوَّيْتُ شَوْكَتَهُ
فَخَرَجَ الرَّشِيدُ بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ . فَمَاتَ بِطُوسَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَمِئَةٍ
شَرَحُ حَالِ الْوِزَارَةِ فِي أَيَّامِهِ

لَمَّا بُويعَ بِالْخِلَافَةِ اسْتَوَزَرَ كَاتِبَهُ قَبْلَ الْخِلَافَةِ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ بْنِ
بَرْمَكٍ وَظَهَرَتْ دَوْلَةُ بَنِي بَرْمَكٍ مَذْ حَيْثُ

شَرَحُ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الْبَرْمَكِيَّةِ وَذِكْرُ مَبْدِئِهَا وَمَآلِهَا . كَانُوا
قَدِيمًا عَلَى دِينِ الْمَجُوسِ . ثُمَّ اسْلَمَ مَنْ اسْلَمَ مِنْهُمْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ .
وَهَذِهِ الدَّوْلَةُ الْبَرْمَكِيَّةُ كَانَتْ غُرَّةً فِي جَبْهَةِ الدَّهْرِ وَتَاجًا عَلَى مَفْرَقِ
الْعَصْرِ . ضُرِبَتْ بِمَكَارِمِهَا الْأَمْثَالُ . وَشُدَّتْ إِلَيْهَا الرِّحَالُ . وَنَيْطَتْ
بِهَا الْأَمْثَالُ . وَبَذَلَتْ لَهَا الدُّنْيَا أَفْلَاحَ انْكَبَادِهَا . وَمُنَحَّتْهَا أَوْفَرَ إِسْعَادِهَا .
فَكَانَ يَحْيَى وَبَنُوهُ كَالنُّجُومِ زَاهِرَةً . وَالنُّجُورِ زَاخِرَةً . وَالسُّيُولِ دَافِعَةً .
وَالْعُيُوثِ مَاطِرَةً . أَسْوَاقُ الْأَدْبَابِ عِنْدَهُمْ نَافِقَةٌ . وَمَرَائِبُ ذَوِي
الْحُرْمَاتِ عِنْدَهُمْ عَالِيَةٌ . وَالدُّنْيَا فِي أَيَّامِهِمْ عَامِرَةٌ . وَابْنَةُ الْمَمْلَكَةِ
ظَاهِرَةٌ . وَهُمْ مَلْجَأُ اللَّهِيْفِ وَمُقْتَصِمُ الطَّرِيدِ . وَلَهُمْ يَهْلُ أَبُو نُوَّاسٍ .
سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا قُدِّمَتْ . بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَاحِيْنٍ وَغَادِ
ذِكْرُ وَزَارَةِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لِلرَّشِيدِ . لَمَّا جَلَسَ الرَّشِيدُ عَلَى
سَرِيرِ الْمَمْلَكَةِ اسْتَوَزَرَ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ . وَكَانَ كَاتِبَهُ وَنَائِبَهُ

وَوَزِيرَهُ قَبْلَ الْخِلَافَةِ . فَهَضَّ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بِأَعْبَاءِ الدَّوْلَةِ أُنْتَمَ نُهُوضِ .
 وَسَدَّ الثُّغُورَ . وَتَدَارَكَ الْخُلَلَ . وَجَبَى الْأَمْوَالَ . وَعَمَرَ الْأَطْرَافَ .
 وَأَظْهَرَ رَوْتَقَ الْخِلَافَةِ . وَتَصَدَّى لِمِهْمَاتِ الْمَمْلَكَةِ . وَكَانَ كَاتِبًا
 بَلِيغًا لَبِيبًا أَدِيبًا شَدِيدًا صَائِبَ الْأَرْأَاءِ حَسَنَ التَّذْيِيرِ . ضَاطِحًا لِمَا
 تَحْتَ يَدِهِ . قَوِيًّا عَلَى الْأُمُورِ . جَوَادًا يُبَارِي الرِّيحَ كَرَمًا وَجُودًا .
 مُمَدِّحًا بِكُلِّ لِسَانٍ . حَلِيمًا عَفِيفًا وَقُورًا مَهِيْبًا وَلَهُ يَقُولُ الْقَائِلُ :

لَا تَرَانِي مُصَافِحًا كَفَّ يَحْيَى إِنِّي إِنْ فَعَلْتُ ضَيِّعْتُ مَالِي
 لَوْ يَمْسُ الْبَخِيلُ رَاحَةً يَحْيَى لَسَخَتْ نَفْسُهُ بِبَذْلِ النَّوَالِ

وَمِنْ آرَاءِ يَحْيَى السَّدِيدَةِ مَا قَالَهُ لِلْهَادِي . وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ
 يَخْلَعَ أَخَاهُ هَارُونَ مِنَ الْخِلَافَةِ وَيُبَايِعَ لِابْنِهِ جَعْفَرِ بْنِ الْهَادِي .
 وَكَانَ يَحْيَى كَاتِبَ الرَّشِيدِ وَهُوَ يَتَرَجَّى أَنْ يَتَوَلَّى هَارُونَ الْخِلَافَةَ
 فَيَصِيرَ هُوَ وَزِيرَ الدَّوْلَةِ . فَخَلَا الْهَادِي بِيَحْيَى وَوَهَبَ لَهُ عِشْرِينَ أَلْفَ
 دِينَارٍ . وَحَادَثَهُ فِي خَلْعِ هَارُونَ أَخِيهِ وَالْمُبَايَعَةِ لَجَعْفَرِ ابْنِهِ . فَقَالَ
 لَهُ يَحْيَى : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ فَعَلْتَ حَمَلْتَ النَّاسَ عَلَى نَكْثِ
 الْإِيمَانِ وَنَقْضِ الْعُهُودِ . وَتَجَرَأَ النَّاسُ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ . وَلَوْ تَرَكْتَ
 أَخَاكَ هَارُونَ عَلَى وِلَايَةِ الْعَهْدِ ثُمَّ بَايَعْتَ لَجَعْفَرٍ بَعْدَهُ كَانَ ذَلِكَ
 أَوْكَدَ فِي يَمِينِهِ : فَتَرَكَ الْهَادِي ذَلِكَ مُدَّةً . ثُمَّ غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ
 الْوَلَدِ . فَأَحْضَرَ يَحْيَى مَرَّةً ثَانِيَةً وَفَاوَضَهُ فِي ذَلِكَ . فَقَالَ لَهُ يَحْيَى :
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . لَوْ حَدَّثَ بِكَ حَادِثُ الْمَوْتِ وَقَدْ خَلَعْتَ أَخَاكَ

وَبَايَعْتَ لِأَتْنِكَ جَعْفَرٍ وَهُوَ صَغِيرٌ دُونَ الْبُلُوغِ . أَفْتَرَى كَأَنَّ
خِلَافَتَهُ تَصَحُّ . وَكَانَ مَشَاحِجُ بَنِي هَاشِمٍ يَرْضَوْنَ ذَلِكَ وَيُسَلِّمُونَ
الْخِلَافَةَ إِلَيْهِ : قَالَ لَا . قَالَ يَحْيَى : فَدَعِ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَأْتِيَهُ عَفْوًا .
وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْمُهْدِيُّ بَايَعَ لِهَرُونَ لَوْجَبَ أَنْ تُبَايَعَ أَنْتَ لَهُ إِمْلًا
تَخْرُجَ الْخِلَافَةُ مِنْ بَنِي أَبِيكَ : فَصَوَّبَ الْهَادِي رَأْيَهُ . وَكَانَ الرَّشِيدُ
بَعْدَ ذَلِكَ يَرَى هَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ أَيَادِي يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ عِنْدَهُ

وَمِنْ مَكَارِمِهِ . قِيلَ إِنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا نَكَبَ الْبَرَامِكَةَ وَأَسْتَأْصَلَ
شَافَتَهُمْ . حَرَّمَ عَلَى الشُّعْرَاءِ أَنْ يَرْثُوهُمْ وَأَمَرَ بِالْمَوْلَخَذَةِ عَلَى ذَلِكَ .
فَاجْتَارَ بَعْضُ الْحُرْسِ يَبْعُضُ الْخُرَبَاتِ . فَرَأَى إِنْسَانًا وَقِفًا وَفِي
يَدِهِ رُقْعَةٌ فِيهَا شِعْرٌ يَتَضَمَّنُ رِثَاءَ الْبَرَامِكَةِ وَهُوَ يُنْشِدُهُ وَيَبْكِي .
فَأَخَذَهُ الْحُرْسُ وَأَتَى بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ وَقَصَّ عَلَيْهِ الصُّورَةَ . فَاسْتَحْضَرَهُ
الرَّشِيدُ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ . فَأَعْتَرَفَ بِهِ . فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : أَمَا سَمِعْتَ
تَحْرِيمِي لِرِثَائِهِمْ . لَا أَفْعَانُ بِكَ وَلَا ضَمَنٌ . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
إِنْ أَذِنْتَ لِي فِي حِكَايَةِ حَالِي حَكِيَّتَهَا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْتَ وَرَأْيُكَ .
قَالَ قُل . قَالَ : إِنِّي كُنْتُ مِنْ أَصْغَرِ كُتَّابِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَأَرْقَمِهِمْ
حَالًا . فَقَالَ لِي يَوْمًا : أُرِيدُ أَنْ تُضَيِّفَنِي فِي دَارِكَ يَوْمًا فَهَاتُ : يَا مَوْلَانَا
أَنَا دُونَ ذَلِكَ وَدَارِي لَا تَصْلُحُ لِهَذَا . قَالَ : لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ . قُلْتُ :
فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَأَمْلِكْنِي مُدَّةً حَتَّى أَصْلِحَ شَأْنِي وَمَنْزِلِي . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ
أَنْتَ وَرَأْيُكَ . قَالَ : كَمْ أَهْلُكَ . قُلْتُ سِتَّةً . قَالَ كَثِيرٌ . قُلْتُ فَشُورًا .

قُلْ نَمَّ . فَمَضَيْتُ وَشَرَعْتُ فِي إِصْلَاحِ الْمَنْزِلِ وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ .
 فَلَمَّا تَهَيَّأَتِ الْأَسْبَابُ أَعْلَمْتُ الْوَزِيرَ بِذَلِكَ فَقَالَ : نَحْنُ غَدَا عِنْدَكَ .
 فَمَضَيْتُ وَتَهَيَّأْتُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ . فَحَضَرَ الْوَزِيرُ
 فِي غَدٍ وَمَعَهُ ابْنَاهُ جَعْفَرٌ وَالْفَضْلُ وَعِدَّةٌ يَسِيرَةٌ مِنْ خَوَاصِرِ أَتْبَاعِهِ .
 فَقَرَّلَ عَنْ دَأْيَتِهِ وَزَلَّ وَلَدَاهُ جَعْفَرٌ وَالْفَضْلُ وَمَنْ مَعَهُ وَقَالَ : يَا فُلَانُ
 أَنَا جَائِعٌ فَجْعَلْ لِي بِشْيَءَ . فَقَالَ لِي الْفَضْلُ ابْنُهُ : الْوَزِيرُ يُحِبُّ
 الْقَرَارِيجَ الْمَشْوِيَّةَ . فَجَعَلُ مِنْهَا مَا حَضَرَ . فَدَخَلَتْ وَأَحْضَرْتُ شَيْئًا .
 فَأَكَلَ الْوَزِيرُ ثُمَّ قَامَ يَتَمَشَّى فِي الدَّارِ وَقَالَ : يَا فُلَانُ قَرَّبْنَا فِي
 دَارِكَ . فَقُلْتُ : يَا مَوْلَانَا هَذِهِ هِيَ دَارِي لَيْسَ لِي غَيْرُهَا . قَالَ بَلَى
 لَكَ غَيْرُهَا . قُلْتُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ سِوَاهَا . فَقَالَ : هَاتُوا بَنَاءً . فَلَمَّا
 حَضَرَ قَالَ لَهُ : أَفْتَحْ فِي هَذَا الْحَانِطِ بَابًا . فَمَضَى لِيَفْتَحَ . فَقُلْتُ : يَا مَوْلَانَا
 كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُفْتَحَ بَابٌ إِلَى بُيُوتِ الْحِيرَانِ وَاللَّهُ أَوْصَى بِحِفْظِ
 الْجَارِ . قَالَ : لَا بَأْسَ فِي ذَلِكَ ثُمَّ فَتَحَ الْبَابَ . فَقَامَ الْوَزِيرُ وَأَبْنَاهُ
 فَدَخَلُوا فِيهِ وَأَنَا مَعَهُمْ فَخَرَجَ مِنْهُ إِلَى بُسْتَانٍ حَسَنِ كَثِيرِ الْأَشْجَارِ
 وَالْمَاءِ يَتَدَفَّقُ فِيهِ وَبِهِ مِنَ الْمَقَاصِيرِ وَالْمَسَاكِينِ مَا يَرُوقُ كُلُّ نَاطِرٍ
 وَفِيهِ مِنَ الْآلَاتِ وَالْفُرُشِ وَالْخُدَمِ وَالْجَوَارِي كُلُّ جَمِيلٍ بَدِيعٍ
 فَقَالَ : هَذَا الْمَنْزِلُ وَجَمِيعُ مَا فِيهِ لَكَ . فَقَبَّلْتُ يَدَهُ وَدَعَوْتُ لَهُ وَتَحَقَّقْتُ
 الْقِصَّةَ . فَإِذَا هُوَ مِنْ يَوْمٍ حَادَثَنِي فِي مَعْنَى الدَّعْوَةِ . قَدْ أَرْسَلَ وَاشْتَرَى
 الْأَمْلَاقَ الْجَاوِرَةَ لِي . وَعَمَّرَهَا دَارًا حَسَنَةً وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ

شَيْءٌ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ وَكُنْتُ أَرَى الْعِمَارَةَ وَأَحْسِبُهَا لِبَعْضِ الْجِيرَانِ .
 فَقَالَ لِأَبْنِهِ جَعْفَرٍ : يَا بُنَيَّ هَذَا مَنْزِلٌ وَعِيَالٌ . وَالْمَادَّةُ مِنْ أَيْنَ تَكُونُ
 لَهُ . قَالَ جَعْفَرٌ : قَدْ أُعْطِيَتْهُ الضَّيْعَةُ الْفُلَانِيَّةُ عَمَّا فِيهَا وَسَاكُنُ لَهُ
 بِذَلِكَ كِتَابًا . فَالْتَمَتَ إِلَى أَبِيهِ الْفَضْلِ وَقَالَ لَهُ : يَا بُنَيَّ . فَمِنْ الْآنِ
 إِلَى أَنْ يَدْخُلَ دَخْلُ هَذِهِ الضَّيْعَةِ مَا الَّذِي يُنْفِقُ . فَقَالَ الْفَضْلُ : عَلَى
 عَشْرَةِ آلَافٍ دِينَارٍ أَجْمَلًا إِلَيْهِ . فَقَالَ : فَخَوَّلَا لَهُ مَا فُلْتَمَا . فَكَتَبَ لِي
 جَعْفَرٌ بِالضَّيْعَةِ وَحَمَلَ الْفَضْلُ إِلَى الْمَالِ فَأَثَرَيْتُ وَارْتَفَعَتْ حَالِي
 وَكَسَبْتُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهُ مَا لَا طَائِلًا أَنَا أَتَقَلَّبُ فِيهِ إِلَى الْيَوْمِ . فَوَاللَّهِ
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَجِدُ فُرْصَةً أَتَمَكَّنُ فِيهَا مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَالِدِعَاءِ
 لَهُمْ إِلَّا أَنْتَهَزْتُهَا مُكَافَأَةً لَهُمْ عَلَى إِحْسَانِهِمْ وَلَنْ أَقْدِرَ عَلَى مُكَافَأَتِهِ .
 فَإِنْ كُنْتُ قَاتِلِي عَلَى ذَلِكَ . فَأَفْعَلْ مَا بَدَأَ لَكَ . فَرَقَّ الرَّشِيدُ
 لِذَلِكَ وَأَطْلَقَهُ وَأَذِنَ لِجَمِيعِ النَّاسِ فِي رِثَائِهِمْ .

قِيلَ إِنَّ هَرُونَ الرَّشِيدَ حَجَّ . وَمَعَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ .
 وَمَعَهُ وَلَدَاهُ الْفَضْلُ وَجَعْفَرٌ . فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ جَلَسَ الرَّشِيدُ
 وَمَعَهُ يَحْيَى . فَأَعْطَى النَّاسَ . وَجَلَسَ الْأَمِينُ وَمَعَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى
 فَأَعْطَى النَّاسَ . وَجَلَسَ الْمَأْمُونُ وَمَعَهُ جَعْفَرٌ فَأَعْطَى النَّاسَ . فَأَعْطَوْا
 فِي تِلْكَ السَّنَةِ ثَلَاثَ أَعْطِيَّاتٍ ضُرِبَتْ بِكَثْرَتِهَا الْأَمْثَالُ . وَكَانُوا
 يُسَمُّونَهُ عَامَ الْأَعْطِيَّاتِ الثَّلَاثِ وَأَثَرَى النَّاسُ بِسَبَبِ ذَلِكَ . وَفِي
 ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ

أَتَانَا بَنُو الْأَمَلِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ فَيَا طَيْبَ أَخْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَنَظَرٍ
 لَهُمْ رِحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى الْعِدَى وَآخَرَى إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْأَسْتَرِ
 إِذَا نَزَلُوا بَطْحَاءَ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ بِبَيْحِي وَبِالْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَجَعْفَرِ
 قُظْلَمُ بَنْدَاذُ وَتَجَلُّوْا لَنَا الدُّجَى بِبَكَّةَ مَا تَعُو ثَلَاثَةُ أَقْمَرِ
 فَمَا خُلِقَتْ إِلَّا لِجُودِ أَكْفُهُمْ وَأَقْدَامُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادِ مِنْبَرِ
 إِذَا رَا ضَ يَحْيَى الْأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ وَنَاهِيكَ مِنْ رَاعٍ لَهُ وَمُدِيرِ
 كَانَ يَحْيَى يَقُولُ: مَا خَاطَبَنِي أَحَدٌ إِلَّا هَيْبَتُهُ . حَتَّى يَتَكَلَّمَ . فَإِذَا تَكَلَّمَ كَانَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ . إِمَّا أَنْ تَرِيدَ هَيْبَتَهُ أَوْ تَضْمَعِلَ . وَكَانَ
 يَقُولُ: الْمَوَاعِيدُ شِبَاكُ الْكِرَامِ يَصِيدُونَ بِهَا مُحَامِدَ الْأَحْرَارِ . كَانَ يَحْيَى إِذَا رَكِبَ يُعِدُّ صُرَرًا فِي كُلِّ صُرَّةٍ مِثْلًا دِرْهَمٍ . يَدْفَعُهَا إِلَى
 الْمُتَعَرِّضِينَ لَهُ

سِيرةُ وَلَدِهِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى

كَانَ الْفَضْلُ مِنْ كِرَامِ الدُّنْيَا وَأَجْوَادِ أَهْلِ عَصْرِهِ . وَكَانَ قَدْ أَرْضَعَتْهُ أُمُّ هُرُونِ الرَّشِيدِ . وَأَرْضَعَتْهُ أُمُّهُ الرَّشِيدُ . وَفِي ذَلِكَ
 يَقُولُ مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَنْصَةَ كَفَى لَكَ فَخْرًا أَنْ أَكْرَمَ حُرَّةً
 غَذَتْكَ بِذِي وَالْحَلِيفَةِ وَاحِدِ لَقَدْ زِنْتَ يَحْيَى فِي الْأَشَاهِدِ كُلِّهَا
 كَمَا زَانَ يَحْيَى خَالِدًا فِي الْأَشَاهِدِ وَلَاهُ الرَّشِيدُ خُرَاسَانَ . فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَبُو الْهَوَلِ الشَّاعِرُ مَادِحًا
 مُعْتَذِرًا مِنْ شِعْرِ كَانَ هَجَاهُ بِهِ فَأَنشَدَهُ

سَرَى نَحْوَهُ مِنْ غَضَبِ الْفَضْلِ عَارِضٌ
 لَهُ لُجَّةٌ فِيهَا الْبَوَارِقُ وَالرَّعْدُ
 وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مُلْقٍ فِرَاشَهُ
 عَلَى مَذْرَجٍ يَتَكَادُهُ الْأَسَدُ الْوَرْدُ
 وَمَا لِي إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ
 مِنْ الْجُرْمِ مَا يَخْشَى عَلَى مِثْلِهِ الْحَقْدُ
 فَجَدُّ بِالرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ
 وَرَأَيْكَ فِيمَا كُنْتَ عَوِّدْتَنِي بَعْدُ
 فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ: لَا أُحْتَلُّ تَفْرِيقَكَ بَيْنَ رِضَايَ وَإِحْسَانِي.
 وَهَمَّا مَقْرُونَانِ فَإِنْ أَرَدْتَهُمَا مَعًا وَإِلَّا فَدَعُهُمَا مَعًا . ثُمَّ وَصَلَهُ
 وَرَضِيَ عَنْهُ

حَدَّثَ إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيُّ قَالَ: كُنْتُ قَدْ رَبَّيْتُ جَارِيَةً
 وَتَقَفْتُهَا وَعَلَّمْتُهَا حَتَّى بَرَعَتْ . ثُمَّ أَهْدَيْتُهَا إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى .
 فَقَالَ لِي يَا إِسْحَقُ . إِنَّ رَسُولَ صَاحِبِ مِصْرَ قَدْ وَرَدَ إِلَيَّ يَسْأَلُنِي
 حَاجَةً أَقْتَرِحُهَا عَلَيْهِ . فَدَعِ هَذِهِ الْجَارِيَةَ عِنْدَكَ فَإِنِّي سَأَطْلُبُهَا
 وَأُعْلِمُهُ أَنِّي أُرِيدُهَا . فَإِنَّهُ سَوْفَ يَخْضُرُ إِلَيْكَ وَيُسَاوِمُكَ فِيهَا . فَلَا
 تَأْخُذْ فِيهَا أَقْلًا مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . قَالَ إِسْحَقُ فَمَضَيْتُ بِالْجَارِيَةِ
 إِلَى مَنْزِلِي . فَجَاءَ إِلَيَّ رَسُولُ صَاحِبِ مِصْرَ وَسَأَلَنِي عَنْ الْجَارِيَةِ
 فَأَخْرَجْتُهَا إِلَيْهِ . فَبَذَلَ فِيهَا عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ فَأَمْتَمْتُ . فَصَمِدَ

إِلَى عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَأَمْتَمْتُ . فَصَعِدَ إِلَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا فَأَمْلَكْتُ
نَفْسِي حَتَّى قُلْتُ لَهُ بِعْتُكَ . وَسَلَّمْتُ الْجَارِيَةَ إِلَيْهِ وَقَبَضْتُ مِنْهُ الْمَالَ .
ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ مِنَ الْعَدِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فَقَالَ : يَا إِسْحَقُ بِكُمْ
بِعْتَ الْجَارِيَةَ . قُلْتُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا
تَأْخُذْ مِنْهُ أَقْلٌ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا . قُلْتُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي وَاللَّهِ مَا
مَلَكْتُ نَفْسِي مُنْذُ سَمِعْتُ لَفْظَةَ ثَلَاثِينَ . فَتَبَسَّمَ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ
صَاحِبِ الرُّومِ قَدْ سَأَلَنِي أَيْضًا حَاجَةً وَسَأَقْرَحُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْجَارِيَةَ
وَأَدْلُهُ عَلَيْكَ فَخُذْ جَارِيَتَكَ وَأَنْصَرِفْ إِلَى مَنْزِلِكَ . فَإِذَا سَاوَمَكَ
فِيهَا فَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ أَقْلٌ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ

فَأَخَذْتُ الْجَارِيَةَ وَأَنْصَرَفْتُ إِلَى مَنْزِلِي . فَأَتَانِي رَسُولُ صَاحِبِ
الرُّومِ وَسَاوَمَنِي فِي الْجَارِيَةِ . فَطَلَبْتُ خَمْسِينَ أَلْفًا فَقَالَ : هَذَا كَثِيرٌ
وَلَكِنْ تَأْخُذْ مِنِّي ثَلَاثِينَ أَلْفًا : فَوَاللَّهِ مَا مَلَكْتُ نَفْسِي مُنْذُ سَمِعْتُ
لَفْظَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا حَتَّى قُلْتُ لَهُ . قَدْ بِعْتُكَ . ثُمَّ قَبَضْتُ الْمَالَ مِنْهُ وَسَلَّمْتُ
الْجَارِيَةَ إِلَيْهِ . وَمَضَيْتُ مِنَ الْعَدِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فَقَالَ : مَا
صَنَعْتَ وَبِكُمْ بِعْتَ الْجَارِيَةَ يَا إِسْحَقُ . قُلْتُ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا . قَالَ
سُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْخُذَ فِيهَا أَقْلٌ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا .
قُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ وَاللَّهِ إِنِّي لَمَّا سَمِعْتُ قَوْلَهُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا اسْتَرْخَيْتُ
جَمِيعَ أَعْضَادِي . فَضَمِكَ وَقَالَ : خُذْ جَارِيَتَكَ وَأَذْهَبْ إِلَى مَنْزِلِكَ .
فَهِيَ عِنْدَ يَحْيَى إِلَيْكَ رَسُولُ صَاحِبِ خُرَاسَانَ . فَهَوَّ نَفْسَكَ وَلَا

تَأْخُذُ مِنْهُ أَقْلٌ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا . قَالَ إِسْحَقُ : فَأَخَذْتُ الْجَارِيَةَ وَمَضَيْتُ
إِلَى مَنْزِلِي . فَجَاءَنِي رَسُولُ صَاحِبِ خُرَاسَانَ وَسَاوَمَنِي فِيهَا . فَطَلَبْتُ
خَمْسِينَ أَلْفًا فَقَالَ لِي : هَذَا كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَأْخُذُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا . فَقَوَّيْتُ
نَفْسِي وَأَمْتَعْتُ . فَصَعِدَ مَعِيَ إِلَى أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . فَكَادَ عَقْلِي
يَذْهَبُ مِنَ الْفَرَحِ . وَلَمْ أَتَمَّاكْ أَنْ قُلْتُ لَهُ بِعْتُكَ : فَأَحْضَرَ الْمَالَ
وَأَقْبَضَنِيهِ وَسَلَّمْتُ الْجَارِيَةَ إِلَيْهِ . وَمَضَيْتُ مِنَ الْغَدِ إِلَى الْفَضْلِ فَقَالَ
لِي : بِكُمْ بَيْتُ الْجَارِيَةِ : قُلْتُ : بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا . وَوَاللَّهِ لَمَا سَمِعْتُهَا مِنْهُ كَادَ
عَقْلِي يَذْهَبُ . وَقَدْ حَصَلَ عِنْدِي جُعِلَتْ فِدَاكَ مِئَةُ أَلْفِ دِينَارٍ . وَلَمْ
يَبْقَ لِي أَمَلٌ . فَأَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ . فَأَمَرَ بِالْجَارِيَةِ فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ
وَقَالَ يَا إِسْحَقُ خُذْ جَارِيَتَكَ وَأَنْصَرِفْ . قَالَ إِسْحَقُ : فَقُلْتُ هَذِهِ
الْجَارِيَةُ وَاللَّهِ أَعْظَمُ النَّاسِ بَرَكَهً فَأَعْتَقْتُهَا وَتَرَوُجْتُهَا فَوَلَدَتْ لِي
أَوْلَادِي

قِيلَ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامَ ابْنَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ الْعَبَّاسِ حَضَرَ يَوْمًا عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَمَعَهُ سَفْطٌ فِيهِ جَوْهَرٌ
وَقَالَ لَهُ : إِنْ حَاصِلِي قَدْ قَصُرَ عَمَّا أحتاجُ إِلَيْهِ . وَقَدْ عَلَانِي دَيْنٌ
مَبْلَغُهُ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ . وَإِنِّي أَسْتَجِي أَنْ أَعْلِمَ أَحَدًا بِذَلِكَ وَأَنْفُ
أَنْ أَسْأَلَ أَحَدًا مِنَ التُّجَّارِ أَنْ يُقْرِضَنِي ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مَعِيَ
رَهْنٌ يَفِي بِالْقِيَمَةِ . وَأَنْتَ أَتَقَاكَ اللَّهُ لَكَ تِجَارٌ يُعَامِلُونَكَ . وَأَنَا
أَسْأَلُكَ أَنْ تُقْرِضَ لِي مِنْ أَحَدِهِمْ هَذَا الْمَبْلَغَ وَتُعْطِيَهُ هَذَا الرَّهْنَ :

فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ: أَسْمِعْ وَالطَّاعَةُ وَلَكِنْ تُجِيعُ هَذِهِ الْحَاجَةَ أَنْ تُقِيمَ
 عِنْدِي هَذَا الْيَوْمَ . فَأَقَامَ عِنْدَهُ . ثُمَّ إِنَّ الْفَضْلَ أَخَذَ السَّفَطَ مِنْهُ وَهُوَ
 مَخْتُومٌ بِخَتْمِهِ . وَأَرْسَلَ مَعَهُ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ . وَنَفَذَ الدَّرَاهِمَ
 وَالسَّفَطَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَأَخَذَ خَطَّ وَكِيلِهِ بِقَبْضِهِ . فَأَقَامَ مُحَمَّدٌ فِي دَارِ
 الْفَضْلِ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ . ثُمَّ أَنْصَرَفَ إِلَى دَارِهِ فَوَجَدَ السَّفَطَ وَمَعَهُ
 أَلْفُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ . فَسُرَّ بِذَلِكَ سُرُورًا عَظِيمًا . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ بَكَرَ
 إِلَى الْفَضْلِ لِيَشْكُرَهُ عَلَى ذَلِكَ . فَوَجَدَهُ قَدْ بَكَرَ إِلَى دَارِ الرَّشِيدِ .
 فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَى دَارِ الرَّشِيدِ . فَلَمَّا عَلِمَ الْفَضْلُ بِهِ خَرَجَ مِنْ بَابِ آخَرٍ
 وَمَضَى إِلَى دَارِ أَبِيهِ . فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ . فَحِينَ عَلِمَ بِهِ خَرَجَ بِبَابِ آخَرٍ
 وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ . فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ وَاجْتَمَعَ بِهِ وَشَكَرَهُ عَلَى فِعْلِهِ
 وَقَالَ: إِنِّي بَكَرْتُ إِلَيْكَ لِأَشْكُرَكَ عَلَى إِحْسَانِكَ: فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ:
 إِنِّي فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ فَرَأَيْتُ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَ أَلْفَ الْيَوْمِ حَمَلَتْهَا أُمْسُ
 إِلَيْكَ تَقْضِي بِهَا دَيْنَكَ . ثُمَّ تَحْتَاجُ قَتَرِيضُ . فَبَعْدَ قَلِيلٍ يَمْلُوكَ
 مِثْلُهَا . فَبَكَرْتُ الْيَوْمَ إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَالَكَ وَأَخَذْتُ
 لَكَ مِنْهُ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ أُخْرَى . فَلَمَّا حَضَرَتْ إِلَى بَابِ أَمِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ خَرَجْتُ أَنَا بِبَابِ آخَرٍ وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ لَمَّا حَضَرْتُ إِلَى
 بَابِ أَبِي لِأَنِّي مَا كُنْتُ أَوْثَرُ أَنْ أَلْقَاكَ حَتَّى يُحْمَلَ الْمَالُ إِلَى مَنْزِلِكَ
 وَقَدْ جُمِلَ: فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ: يَا شَيْءُ أَجَازِيكَ عَلَى هَذَا الْإِحْسَانِ
 مَا عِنْدِي شَيْءٌ أَجَازِيكَ بِهِ إِلَّا أَنِّي أَلْتَرِّمُ بِالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ

وَبِالطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ وَالْعَجِّ أَنِّي مَا أَقِفُ عَلَى بَابِ غَيْرِكَ وَلَا أَسْأَلُ
 سِوَاكَ: قَالُوا: وَحَلَفَ مُحَمَّدٌ أَيْمَانًا مُوَكَّدَةً وَكَتَبَ بِهَا خَطَّهُ وَأَشْهَدَ
 بِهَا عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَقِفُ بِبَابِ غَيْرِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى. فَلَمَّا ذَهَبَتْ
 دَوْلَةُ الْبَرَامِكَةِ وَتَوَلَّى الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ الْوِزَارَةَ بَعْدَهُمْ أُحْتَاجَ
 مُحَمَّدٌ فَقَالُوا لَهُ: لَوْ رَكَبْتَ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ فَلَمْ يَفْعَلْ وَالتَّرَمَّ
 بِالْيَمِينِ فَلَمْ يَرْكَبْ إِلَى أَحَدٍ وَلَمْ يَقِفْ عَلَى بَابِ أَحَدٍ حَتَّى مَاتَ

سيرة جعفر بن يحيى البرمكي

كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فَصِيحًا لَيِّبًا ذَكِيًّا فَطِنًا كَرِيمًا حَلِيمًا. وَكَانَ
 الرَّشِيدُ يَأْتِسُ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنَسِهِ بِأَخِيهِ الْفَضْلِ. لِسُؤْلِهِ أَخْلَاقَ
 جَعْفَرٍ وَشِرَاسَةَ أَخْلَاقِ الْفَضْلِ. قَالَ الرَّشِيدُ يَوْمًا لِيَحْيَى: يَا أَبِي مَا
 بَالُ النَّاسِ يُسَمُّونَ اللَّهَ ذُلَّ الْوَزِيرِ الصَّغِيرِ وَلَا يُسَمُّونَ جَعْفَرًا
 بِذَلِكَ: فَقَالَ يَحْيَى: لِأَنَّ الْفَضْلَ يَخْلُفُنِي. قَالَ: فَضُمَّ إِلَى جَعْفَرٍ
 أَعْمَالًا كَأَعْمَالِ الْفَضْلِ. فَقَالَ يَحْيَى: إِنْ خِدَمْتِكَ وَمَنَاوَشَتَكَ تَشْغَلَانِي
 عَنْ ذَلِكَ. فَجَعَلَ إِلَيْهِ أَمْرَ دَارِ الرَّشِيدِ. وَسُمِّيَ بِالْوَزِيرِ الصَّغِيرِ أَيْضًا
 قَالَ الرَّشِيدُ يَوْمًا لِيَحْيَى: قَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْقُلَ دِيْوَانَ الْخِطَائِمِ
 مِنْ الْفَضْلِ إِلَى جَعْفَرٍ. وَقَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ مَكَاتِبَتِهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى
 فَكُتِبَ أَنْتَ إِلَيْهِ. فَكَتَبَ يَحْيَى إِلَى الْفَضْلِ: قَدْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 أَعْلَى - اللَّهُ أَمْرُهُ أَنْ تُحَوَّلَ الْخِطَائِمُ مِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكَ. فَأَجَابَهُ

الْفَضْلُ: قَدْ سَمِعْتُ لِمَا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَخِي وَمَا أَنْتَقَلْتُ عَنِّي
نِعْمَةً صَارَتْ إِلَيْهِ وَلَا غَرَبَتْ عَنِّي رُتَبَةٌ طَلَعَتْ عَلَيْهِ. فَقَالَ جَعْفَرٌ:
لِلَّهِ دَرُّ أَخِي مَا أَكْبَسَ نَفْسَهُ وَأَظْهَرَ دَلَائِلَ الْفَضْلِ عَلَيْهِ وَأَقْوَى
مِنَهُ الْعَقْلَ عِنْدَهُ وَأَوْسَعَ فِي الْبَلَاغَةِ ذُرْعَهُ

قِيلَ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى الْيَرْمُكِيَّ جَلَسَ يَوْمًا لِلشُّرْبِ وَأَحَبَّ
الْخُلُوةَ. فَأَحْضَرَ نُدَمَاءَهُ الَّذِينَ يَأْتِسُ بِهِمْ. وَجَلَسَ مَعَهُمْ وَقَدْ هَيَّ
الْمَجْلِسُ وَابْسُوا الثِّيَابَ الْمَصْبُغَةَ وَكَانُوا إِذَا جَاسُوا فِي مَجْلِسِ الشَّرَابِ
وَاللَّهْوِ. لَبِسُوا الثِّيَابَ الْحُمْرَ وَالصُّفْرَ وَالْخَضِرَ. ثُمَّ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ
يَحْيَى تَقَدَّمَ إِلَى الْحَاجِبِ أَنْ لَا يَأْذَنَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى
سِوَى رَجُلٍ مِنَ النُّدَمَاءِ كَانَ قَدْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ اسْمُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ
صَالِحٍ. ثُمَّ جَلَسُوا يَشْرَبُونَ. وَدَارَتْ الْكَاسَاتُ. وَخَفَقَتِ الْعِيدَانُ.
وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ أَقَارِبِ الْخَلِيفَةِ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحِ بْنِ
عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ. وَكَانَ شَدِيدَ الْوَقَارِ وَالْدِّينِ وَالْحِشْمَةِ.
وَكَانَ الرَّشِيدُ قَدْ أَلْتَمَسَ مِنْهُ أَنْ يُنَادِمَهُ وَيَشْرَبَ مَعَهُ وَبَذَلَ لَهُ عَلَى
ذَلِكَ أَمْوَالًا جَلِيلَةً فَلَمْ يَقْعَلْ. فَأَتَفَقَ أَنَّ هَذَا عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ
صَالِحٍ حَضَرَ إِلَى بَابِ جَعْفَرَ بْنِ يَحْيَى لِيُخَاطِبَهُ فِي حَوَائِجِ لَهُ.
فَظَنَّ الْحَاجِبُ أَنَّهُ هُوَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ الَّذِي تَقَدَّمَ جَعْفَرُ بْنُ
يَحْيَى بِالْإِذْنِ لَهُ وَأَنْ لَا يُدْخَلَ غَيْرُهُ. فَأَذِنَ الْحَاجِبُ لَهُ. فَدَخَلَ
عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ الْعَبَّاسِيُّ عَلَى جَعْفَرَ بْنِ يَحْيَى. فَلَمَّا رَأَاهُ جَعْفَرٌ

كَادَ عَقْلُهُ يَذْهَبُ مِنَ الْحَيَاءِ وَقَطَنَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ قَدْ اشْتَبَهَتْ عَلَى
 الْحَاجِبِ بِطَرِيقِ اشْتِبَاهِ الْأَسْمِ . وَقَطَنَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ أَيْضًا
 لِلْقِصَّةِ وَظَهَرَ لَهُ التَّجَلُّلُ فِي وَجْهِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى . فَأَنْبَسَطَ عَبْدُ الْمَلِكِ
 وَقَالَ : لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ أَحْضِرُوا لَنَا مِنْ هَذِهِ الثِّيَابِ الْمَصْبُغَةِ شَيْئًا .
 فَأَحْضَرَ لَهُ قَمِيصٌ مَصْبُوعٌ فَلَبِسَهُ وَجَلَسَ يُبَاسِطُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى
 وَيَمَازِحُهُ وَقَالَ : أَسْقُونَا مِنْ شَرَابِكُمْ فَسَقَوْهُ رَطَلًا وَقَالَ : أَرْفُقُوا بِنَا
 فَلَيْسَ لَنَا عَادَةٌ بِهَذَا . ثُمَّ بَاسَطَهُمْ وَمَازَحَهُمْ وَمَا زَالَ حَتَّى أَنْبَسَطَ
 جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَزَالَ انْتِبَاضُهُ وَحَيَاؤُهُ . فَفَرَحَ جَعْفَرٌ بِذَلِكَ فَرَحًا
 شَدِيدًا وَقَالَ لَهُ : مَا حَاجَتُكَ . قَالَ جِئْتُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ فِي ثَلَاثِ
 حَوَائِجَ . أُرِيدُ أَنْ تُتَخَاطَبَ الْخَلِيفَةُ فِيهَا . أَوَّلُهَا أَنْ عَلَيَّ دَيْنًا مَبْلَغُهُ
 أَلْفُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ أُرِيدُ قَضَاءَهُ . ثَانِيهَا أُرِيدُ وَلَايَةً لِأَبْنِي يُشْرَفُ
 بِهَا قَدْرُهُ . وَثَالِثُهَا أُرِيدُ أَنْ تُرَوِّجَ وَلَدِي بِابْنَةِ الْخَلِيفَةِ فَإِنَّهَا بِنْتُ
 عَمِّهِ وَهُوَ كُفُوٌ لَهَا . فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى : قَدْ قَضَى اللَّهُ هَذِهِ الْحَوَائِجَ
 الثَّلَاثَ . أَمَّا الْمَالُ فَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ يُحْمَلُ إِلَى مَنْزِلِكَ . وَأَمَّا الْوَلَايَةُ
 فَقَدْ وَلَّيْتُ أَبْنَكَ مِصْرَ . وَأَمَّا الزَّوْاجُ فَقَدْ زَوَّجْتُهُ فَلَانَةَ ابْنَةِ مَوْلَانَا
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِدَاقٍ مَبْلَغُهُ كَذَا وَكَذَا . فَأَنْصَرَفَ فِي أَمَانٍ
 اللَّهُ . فَرَاحَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى مَنْزِلِهِ . فَرَأَى الْمَالَ قَدْ سَبَقَهُ . وَلَمَّا كَانَ
 مِنَ الْغَدِ حَضَرَ جَعْفَرٌ عِنْدَ الرَّشِيدِ وَعَرَفَهُ مَا جَرَى وَأَنَّه قَدْ وَلَّاهُ
 مِصْرَ وَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ . فَعَجِبَ الرَّشِيدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَمْضَى الْعَقْدَ وَالْوَلَايَةَ .

فَمَا خَرَجَ جَعْفَرٌ مِنْ دَارِ الرَّشِيدِ حَتَّى كَتَبَ لَهُ التَّقْلِيدَ بِمِصْرَ وَأَخْضَرَ
الْقَضَاةَ وَالشُّهُودَ وَعَقَدَ الْعَقْدَ

وَقِيلَ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِ مِصْرَ
عَدَاوَةٌ وَوَحْشَةٌ وَكَانَ كُلُّ مِنْهُمَا مُجَانِبًا لِلْآخَرِ . فَرَزَّ بَعْضُ النَّاسِ
كِتَابًا عَنْ لِسَانِ جَعْفَرَ بْنِ يَحْيَى إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ مَضْمُونُهُ . أَنَّ
حَامِلَ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ أَصْحَابِنَا . وَقَدْ أَثَرَ الْفُرْجَ فِي الدِّيَارِ
الْمِصْرِيَّةِ فَأُرِيدُ أَنْ تُحْسِنَ الْإِلْتِفَاتَ إِلَيْهِ وَبَالِغَ فِي الْوَصِيَّةِ . ثُمَّ
أَخَذَ الْكِتَابَ وَمَضَى إِلَى مِصْرَ وَعَرَضَهُ عَلَى صَاحِبِهَا . فَلَمَّا وَقَفَ
عَلَيْهِ تَعَجَّبَ مِنْهُ وَفَرِحَ بِهِ . إِلَّا أَنَّهُ حَصَلَ عِنْدَهُ أَرْتَابٌ وَشَكٌّ فِي
الْكِتَابِ . فَأَكْرَمَ الرَّجُلَ وَأَثَرَلَهُ فِي دَارِ حَسَنَةٍ وَأَقَامَ لَهُ مَا يَحْتَاجُ
إِلَيْهِ وَأَخَذَ الْكِتَابَ مِنْهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى وَكِيلِهِ بِبَغْدَادَ وَقَالَ لَهُ : قَدْ وَصَلَ
شَخْصٌ مِنْ أَصْحَابِ الْوَزِيرِ بِهَذَا الْكِتَابِ وَقَدْ أَرَبْتُ بِهِ . فَأُرِيدُ
أَنْ تَتَحَقَّقَ لِي عَنْ حَقِيقَةِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ . وَهَلْ هَذَا خَطُّ الْوَزِيرِ
أَمْ لَا : وَأَرْسَلَ كِتَابَ الْوَزِيرِ صُحْبَةً مَكْتُوبَةٍ بِهِ إِلَى وَكِيلِهِ . فَجَاءَ الْوَكِيلُ
إِلَى وَكِيلِ الْوَزِيرِ وَحَدَّثَهُ بِالْقِصَّةِ وَأَرَاهُ الْكِتَابَ . فَأَخَذَهُ وَكِيلُ
الْوَزِيرِ وَدَخَلَ إِلَى الْوَزِيرِ وَعَرَّفَهُ الْحَالَ . فَلَمَّا وَقَفَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى
عَلَى الْكِتَابِ عَلِمَ أَنَّهُ مُزَوَّرٌ عَلَيْهِ . وَكَانَ عِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ نُدَمَائِهِ
وَنُوَابِهِ . فَرَمَى الْكِتَابَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ : أَهَذَا خَطِّي . فَتَأَمَّلُوهُ
وَأَنْكَرُوهُ كُلُّهُمْ وَقَالُوا : هَذَا مُزَوَّرٌ عَلَى الْوَزِيرِ . فَعَرَّفَهُمْ صُورَةَ الْحَالِ

وَأَنَّ الَّذِي زَوَّرَ هَذَا الْكِتَابَ مُوجُودٌ بِمِصْرَ عِنْدَ صَاحِبِهَا وَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ
عَوْدَ الْجَوَابِ بِتَحْقِيقِ حَالِهِ وَقَالَ لَهُمْ : مَا تَرَوْنَ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ نَفْعَلَ
فِي هَذَا . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَلَ هَذَا الرَّجُلُ حَتَّى تَنْحَنِمَ
هَذِهِ الْمَادَّةُ وَلَا يَرْجِعَ أَحَدٌ يَتَجَرَّأُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْفِعْلِ . وَقَالَ آخَرُ :
يَنْبَغِي أَنْ تُقَطَعَ يَمِينُهُ الَّتِي زَوَّرَ بِهَا هَذَا الْخَطَّ . وَقَالَ آخَرُ : يَنْبَغِي أَنْ
يُوجَعَ ضَرْبًا وَيُطْلَقَ حَالُ سَبِيلِهِ . وَكَانَ أَحْسَنُهُمْ مُحْضَرًا مَنْ دَالَ :
يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عُقُوبَتُهُ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ حَرَمَانَهُ وَأَنْ يُعَرَّفَ صَاحِبُ
مِصْرَ بِحَالِهِ لِيَجْرِمَهُ فَيَكْفِيَهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ أَنَّهُ قَدْ قَطَعَ هَذِهِ الْمَسَافَةَ
الْبَعِيدَةَ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى مِصْرَ ثُمَّ يَرْجِعُ خَائِبًا . فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنْ حَدِيثِهِمْ .
قَالَ جَمْعٌ : سُبْحَانَ اللَّهِ أَلَيْسَ فَيْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ . قَدْ عَادْتُمْ مَا كَانَ
بَيْنِي وَبَيْنَ صَاحِبِ مِصْرَ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْمُجَانَبَةِ وَأَنْ كُلَّ وَاحِدٍ
مِنَّا كَانَتْ تَمْنَعُهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَنْ يَفْتَحَ بَابَ الصُّلْحِ . فَقَدْ قَضَى اللَّهُ
لَنَا رَجُلًا قَمَحَ بَيْنَنَا بَابَ الْمَصَالِحَةِ وَالْمُسَاوَاتَةِ وَأَزَالَ بَيْنَنَا تِلْكَ
الْعَدَاوَةَ . فَكَيْفَ يَكُونُ جَزَاؤُهُ مَا ذَكَرْتُمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ : ثُمَّ أَخَذَ الْقَامَ
وَكَتَبَ عَلَى ظَاهِرِ الْكِتَابِ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ : سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ
حَصَلَ لَكَ الشُّكُّ فِي خَطِّي . هَذَا خَطُّ يَدِي وَالرَّجُلُ مِنْ أَعَزِّ
أَصْحَابِي وَأُرِيدُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِ وَتُعِيدَهُ إِلَيَّ سَرِيعًا فَإِنِّي مُشْتَاقٌ
إِلَيْهِ مُخْتِاجٌ إِلَى حُضُورِهِ : فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابُ وَفِي ظَاهِرِهِ خَطُّ
الْوَزِيرِ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ كَادَ يَطِيرُ مِنَ التَّمَرَحِ وَأَحْسَنَ إِلَى الرَّجُلِ .

غَايَةِ الْإِحْسَانِ وَوَاصِلَهُ بِإِلٍ كَثِيرٍ وَتُحْفٍ جَمِيلَةٍ . ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ
رَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ وَهُوَ أَحْسَنُ النَّاسِ حَالًا . فحَضَرَ إِلَى مَجْلِسِ جَعْفَرٍ
وَوَقَعَ يُقْبِلُ الْأَرْضَ وَيَبْكِي . فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ : مَنْ أَنْتَ أَخِي قَالَ :
يَا مَوْلَانَا أَنَا عَبْدُكَ وَصَنِيعَتُكَ الْمَزُورُ الْكَذَّابُ الْمُتَجَرِّئُ . فَدَرَفَهُ
جَعْفَرٌ وَبَشَّ بِهِ وَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ وَقَالَ لَهُ : كَمْ
وَصَلَ إِلَيْكَ مِنْهُ . فَقَالَ : مِئَةٌ . أَلْفِ دِينَارٍ . فَاسْتَقْلَمَهَا جَعْفَرٌ وَقَالَ :
لَا زِمْنَا حَتَّى نُضَاعِفَهَا لَكَ . فَلَا زِمَهُ مُدَّةً فَكَسَبَ مَعَهُ مِثْلَهَا

وَمَا زَالَتْ دَوْلَةُ الْبَرَامِكَةِ فِي عُلُوٍّ وَارْتِفَاعٍ وَتَرَايَدَ حَتَّى
انْتَحَرَفَتْ عَنْهُمْ الدُّنْيَا . أَمَارَةٌ تَدُلُّ عَلَى انْتِحِرَافِ دَوْلَتِهِمْ
حَدَّثَ بُخْتِشُوعُ الطَّيِّبُ قَالَ : دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الرَّشِيدِ وَهُوَ
جَالِسٌ فِي قَصْرِ الْخُلْدِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ . وَكَانَ الْبَرَامِكَةُ يَسْكُنُونَ
بِحَذَائِهِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَرْضُ دِجْلَةٍ . قَالَ : فَظَنَرُ
الرَّشِيدُ فَرَأَى اعْتِرَاكَ الْخُيُولِ وَأَزْدِحَامِ النَّاسِ عَلَى بَابِ يَمْحَى بْنِ
خَالِدٍ فَقَالَ : جَزَى اللَّهُ يَمْحَى خَيْرًا تَصْدَى لِلْأُمُورِ وَأَرَا حِنِيٍّ مِنَ الْكَذِّ
وَوَفَرَ أَوْقَاتِي عَلَى اللَّذَّةِ . ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَوْقَاتٍ . وَقَدْ شَرَعَ
يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِمْ . فَظَنَرُ فَرَأَى الْخُيُولَ كَمَا رَأَاهَا تِلْكَ الْمَرَّةَ . فَقَالَ أَسْتَبِدُّ
يَمْحَى بِالْأُمُورِ دُونِي . فَلِلْخِلَافَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَهُ وَلَيْسَ لِي مِنْهَا إِلَّا
أَسْمَاهَا . قَالَ : فَعَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَنْكِبُهُمْ ثُمَّ نَكَبَهُمْ عَقِيبَ ذَلِكَ .

شرح السَّبَبِ فِي نَكَّةِ الْبَرَامِكَةِ وَكَيْفَةِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ

اِخْتَلَفَ أَصْحَابُ السَّيْرِ وَالتَّوَارِيخِ فِي ذَلِكَ . فَقِيلَ كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الرَّشِيدَ كَلَّفَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى قَتْلَ رَجُلٍ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ . فَتَخَرَّجَ جَعْفَرٌ مِنْ ذَلِكَ . وَأَطْلَقَ الطَّالِبِيُّ وَسُيِّىَ إِلَى الرَّشِيدِ بِجَعْفَرٍ فَقَالَ لَهُ : مَا فَعَلَ الطَّالِبِيُّ قَالَ : هُوَ فِي الْحَبْسِ : قَالَ الرَّشِيدُ : بِحَيَاتِي . فَقَطَّنَ جَعْفَرَ قَالَ : لَا وَحَيَاتِكَ وَلَكِنْ أَغْلَقْتَهُ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ مَكْرُوهٌ . فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : نَعَمْ مَا فَعَلْتَ . فَلَمَّا قَامَ جَعْفَرٌ قَالَ الرَّشِيدُ : قَتَلَنِي اللَّهُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْكَ ثُمَّ نَكَّبَهُمْ . وَقِيلَ إِنْ أَعْدَاءَ الْبَرَامِكَةِ مِثْلَ الْفَضْلِ بْنِ الرَّيِّعِ . مَا زَالُوا يَسْمَعُونَ بِهِمْ إِلَى الرَّشِيدِ وَيَذْكُرُونَ لَهُ أَسْتَبْدَادَهُمْ بِالْمُلْكِ وَاجْتِنَانَهُمْ لِلْأَمْوَالِ حَتَّى أَوْغَرُوا صَدْرَهُ فَأَوْقَعَ بِهِمْ . وَقِيلَ إِنْ جَعْفَرًا وَالْفَضْلَ ابْنِي يَحْيَى ظَهَرَ مِنْهُمَا مِنَ الْإِذْلَالِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ نَفُوسُ الْمُلُوكِ . فَنَكَّبَهُمْ لِذَلِكَ . وَقِيلَ إِنْ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ رُبِّي وَهُوَ بِمَكَّةَ يَطُوفُ حَوْلَ الْبَيْتِ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ رِضَاكَ فِي أَنْ تَسْلُبَنِي أَهْلِي وَمَالِي وَوَلَدِي . فَاسْلُبْنِي إِلَّا الْفَضْلَ وَلَدِي . ثُمَّ وَلَّى فَلَمَّا مَشَى قَلِيلًا عَادَ وَقَالَ : يَا رَبِّ إِنَّهُ سَمِعْتُ عِبْلِي أَنْ يَسْتَنِي عَلَيْكَ اللَّهُمَّ وَالْفَضْلَ . فَنَكَّبَهُم الرَّشِيدُ بَعْدَ قَلِيلٍ وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ .

شرح مقتل جعفر بن يحيى

والقبض على أهله

كَانَ الرَّشِيدُ قَدْ حَجَّ . فَلَمَّا عَادَ مِنَ الْحَجِّ سَارَ مِنَ الْحِيرَةِ إِلَى
الْأَنْبَارِ فِي السُّفْنِ وَجَعَلَ يَشْرَبُ وَرَكِبَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى الصَّيْدِ
وَجَعَلَ يَشْرَبُ تَارَةً وَيَأْكُلُ أُخْرَى وَتَحَفُّ الرَّشِيدُ وَهَذَا يَأْتِيهِ
وَعِنْدَهُ بِمُخْتِشُوعٍ الطَّيِّبُ وَأَبُو زَكَارِيَّا الْأَعْمَى يُغْنِيهِ فَأَمَّا أَظْلُ الْأَسَاءِ
دَعَا الرَّشِيدُ مَسْرُورًا الْخَادِمَ . وَكَانَ مُبْغِضًا لَجَعْفَرٍ وَقَالَ : أَذْهَبَ فَيُجْنِي
بِرَأْسِ جَعْفَرٍ وَلَا تُرَاجِعْنِي . فَوَافَاهُ مَسْرُورٌ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَهَجَمَ عَلَيْهِ
وَأَبُو زَكَارِيَّا يُغْنِيهِ

فَلَا تَبْعُدُ فَكُلُّ فِتْنٍ سَيَّاتِي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُغَادِي
فَلَمَّا دَخَلَ مَسْرُورٌ قَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى : لَقَدْ سَرَرْتَنِي
بِمَجِيئِكَ وَسُوءَتِي بِدُخُولِكَ عَلَيَّ بِغَيْرِ إِذْنٍ . فَقَالَ الَّذِي جِئْتُ بِهِ
أَعْظَمُ أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يُرِيدُ بِكَ . فَوَقَعَ عَلَى رِجْلَيْهِ
فَقَبَلَهُمَا وَقَالَ لَهُ : عَاوِذُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الشَّرَابَ قَدْ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ
وَقَالَ : دَعْنِي أَدْخُلُ دَارِي فَأَوْصِي . فَقَالَ : الدُّخُولُ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ .
وَأَمَّا الْوَصِيَّةُ فَأَوْصِ بِمَا بَدَأَ لَكَ فَأَوْصِي . ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مَنْزِلِ الرَّشِيدِ
وَعَدَلَ بِهِ إِلَى قُبَّةٍ وَضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَتَى بِرَأْسِهِ عَلَى تَرْسٍ إِلَى الرَّشِيدِ
وَبَدَنَهُ فِي نَظْمٍ وَوَجَّهَ الرَّشِيدُ فَقَبَضَ عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَأَهْلِهِ
وَأَصْحَابِهِ وَحَبَسَهُمْ بِالرَّقَّةِ وَأَسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ . وَمِنْ ظَرِيفٍ مَا وَقَعَ

فِي ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْعِمْرَانِيُّ الْمُؤَرِّخُ قَالَ: حَدَّثَ فُلَانٌ قَالَ: دَخَلْتُ
الدِّيْوَانَ فَنَظَرْتُ فِي بَعْضِ تَذَاكِرِ الثُّوَابِ فَرَأَيْتُ فِيهَا أَرْبَعَ مِئَةِ أَلْفِ
دِينَارٍ ثَمَنَ خَلْعَةٍ لِحُفَرَاءِ بَنِي يَحْيَى الْوَزِيرِ. ثُمَّ دَخَلْتُ بَعْدَ أَيَّامٍ فَرَأَيْتُ
تَحْتَ ذَلِكَ عَشْرَةَ قَرَارِيطَ ثَمَنَ نَفْطٍ وَبَوَارِي لِإِحْرَاقِ جُثَّةِ جَعْفَرِ
بَنِي يَحْيَى فَحَبِيتُ مِنْ ذَلِكَ. ثُمَّ اسْتَوَزَرَ الرَّشِيدُ بَعْدَ الْبَرَامِكَةِ
الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ وَكَانَ حَاجِبَهُ

وِزَارَةُ أَبِي الْعَبَّاسِ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ

فَكَانَ حَاجِبًا لِلْمَنْصُورِ وَالْمُهْدِيِّ وَالْهَادِي وَالرَّشِيدِ. فَلَمَّا نَكَبَ
الرَّشِيدُ الْبَرَامِكَةَ اسْتَوَزَرَهُ بَعْدَهُمْ. كَانَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ شَهِمَا
خَيْرًا بِأَحْوَالِ الْمُلُوكِ وَأَذَاهِمُ. وَلَمَّا وَلِيَ الْوِزَارَةَ تَهَوَّسَ بِالْأَدَبِ
وَجَمَعَ إِلَيْهِ أَهْلَ الْعِلْمِ فَحَصَلَ مِنْهُ مَا أَرَادَ فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ. وَكَانَ
أَبُو نُوَاسٍ مِنْ شُعْرَائِهِ الْمُتَقَطِّعِينَ إِلَيْهِ فَمِنْ شِعْرِهِ فِي آلِ الرَّبِيعِ
عَبَّاسُ عَبَّاسُ إِذَا اضْطَرَمَّ الْوُغَى

وَالْفَضْلُ فَضْلُ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمَا زَالَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ عَلَى وِزَارَتِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ الرَّشِيدُ
بَطُوسَ. فَجَمَعَ الْفَضْلُ الْعُسْكَرَ وَمَا فِيهِ وَرَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ. أُنْتَهَى
ذِكْرُ خِلَافَةِ هُرُونِ الرَّشِيدِ

ذِكْرُ خِلَافَةِ أَبِي أَحْمَدَ عَبْدِ اللَّهِ

الْمُسْتَعَصِمِ بِاللَّهِ

بُويِعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَسِتِّينَ هُوَ آخِرُ الْخُلَفَاءِ (١).
كَانَ الْمُسْتَعَصِمُ رَجُلًا خَيْرًا مُتَدَيِّنًا لَيْنَ الْجَانِبِ سَهْلَ الْعَرِيكََةِ عَفِيفَ
الْأَسَانِ طَاهِرَ الذِّيلِ حَمَلَ الْكِتَابَ وَكَتَبَ خَطًّا مَلِيحًا وَكَانَ سَهْلَ
الْأَخْلَاقِ وَكَانَ خَفِيفَ الْوِطَاقَةِ . إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُسْتَضْعَفَ الرَّأْيِ
ضَعِيفَ الْبَطْشِ قَلِيلَ الْخَبَرَةِ بِأُمُورِ الْمَمْلَكَةِ . مَطْمَوعًا فِيهِ غَيْرَ مَهِيبٍ
فِي النَّفُوسِ وَلَا مُطَّلِعٍ عَلَى حَفَائِقِ الْأُمُورِ . وَكَانَ زَمَانُهُ يَنْتَهِي
أَكْثَرُهُ بِسَمَاعِ الْأَغَانِيِ وَالْتِهَرُجِ عَلَى الْمَسَاخِرَةِ . وَفِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ

(١) الخلفاء هم الذين خلفوا محمد بن عبد الله بنى الاسلام وتولوا الامر من بعده
بين العرب وكان في يدهم امر السياسة والدين معاً . وهم اولاً خلفاء المشرق وكانت
دار خلافتهم مكة الى وفاة الامام علي بن ابي طالب . ثم الشام في دولة بني امية . ثم بغداد
في دولة بني العباس . وكانت مدتهم جميعاً ٦٢٢ سنة وذلك من سنة ٦٣٦ للميلاد الى
سنة ١٢٥٨

ثانياً خلفاء الاندلس راول من ولي الخلافة هنالك عبد الرحمن الاموي من ملوك
الشام وذلك سنة ٦٥٧ وكانت مدتهم ٣٧٤ سنة اي من التاريخ المذكور الى سنة ١٠٣١
ثالثاً خلفاء مصر وهم الفاطميون واول من ولي الخلافة منهم عبيد الله من سلالة
فاطمة بنت محمد وذلك سنة ٩٠٩ واستمرت خلافتهم ٢٦٢ سنة حتى اضمحلت سنة
١١٧١ على يد الملك صلاح الدين الايوبي

وكان تقليد الخلافة في صدر الاسلام بالمبايعة الى ان جاء معاوية بن ابي سفيان
الاموي في آخر القرن الاول فنسخ المبايعة وقرر الخلافة في صلبه واستمر الحال على ذلك
الى سنة ٩٣٥ حيث خلعهم امير الامراء عن امر السياسة . وبقيت الخلافة متداركة
بين العرب الى ظهور السلطان سليم العثماني فاستلم الخلافة من المتوكل آخر خلفاء بني العباس
وذلك سنة ١٥١٦ فكانت مدة جميعهم ٨٨٠ سنة (بولي)

يَجْلِسُ بِخِزَانَةِ الْكُتُبِ جُلُوسًا لَيْسَ فِيهِ كَبِيرٌ فَائِدَةٌ . وَكَانَ أَصْحَابُهُ
مُسْتَوِلِينَ عَلَيْهِ وَكُلُّهُمْ جُهَالٌ مِنْ أَرْذَالِ الْعَوَامِ إِلَّا وَزِيرَهُ مُؤَيَّدٌ
الَّذِينَ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلْقَمِيِّ . فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَعْيَانِ النَّاسِ وَعُقَلَاءِ الرِّجَالِ .
وَكَانَ مَكْفُوفَ الْيَدِ مَرْدُودَ الْقَوْلِ يَتَرَقَّبُ الْعِزْلَ وَالْقَبْضَ صَبَاحَ
مَسَاءً . وَكَانَتْ عَادَةُ الْخُلَفَاءِ أَكْثَرِهِمْ أَنْ يَحْبِسُوا أَوْلَادَهُمْ وَأَقَارِبَهُمْ
وَبِذَلِكَ جَرَتْ سُنَّتُهُمْ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ الْمُسْتَعَصِمِ . فَلَمَّا وَلِيَ الْمُسْتَعَصِمُ
أَطْلَقَ أَوْلَادَهُ الثَّلَاثَةَ وَلَمْ يَحْبِسْهُمْ وَهُمْ الْأَمِيرُ الْكَبِيرُ أَبُو الْعَبَّاسِ
أَحْمَدُ وَالْعَامَّةُ تُسَمِّيهِ أَبَا بَكْرٍ لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ بِذَلِكَ
لَأَنَّهُ لَمَّا نَهَبَ الْكَرْخُ نُسَبَ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ إِلَيْهِ . وَقِيلَ إِنَّهُ هُوَ
الَّذِي أَشَارَ بِذَلِكَ وَالْأَمِيرُ الْأَوْسَطُ وَهُوَ أَبُو الْفَضَائِلِ عَبْدُ
الرَّحْمَنِ كَانَ شَهْمًا خَرَجَ إِلَى بَيْنِ يَدَيِ السُّلْطَانِ هَوْلًا كَوَّ وَوَقَعَ
كَلَامُهُ بِمَوْضِعِ الْإِسْتِحْسَانِ فِي الْحُضْرَةِ السَّاطِنَةِ وَالْأَمِيرِ الْأَصْفَرِ
أَبُو الْمُنَاقِبِ

حَدَّثَنِي صَفِيُّ الدِّينِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ فَاخِرِ الْأَرْمَوِيِّ وَكَانَ قَدْ
صَارَ فِي آخِرِ أَيَّامِ الْمُسْتَعَصِمِ مُقَرَّبًا عِنْدَهُ وَمِنْ خَوَاصِهِ . وَكَانَ قَدْ
اسْتَعَدَّ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ خِزَانَةَ كُتُبٍ وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ نَفَائِسِ الْكُتُبِ
وَسَلَّمَ مَفَاتِيحَهَا إِلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ . فَصَارَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ يَجْلِسُ بِبَابِ
الْخِزَانَةِ يَنْسَخُ لَهُ مَا يُرِيدُ . وَإِذَا خَطَرَ لِلْخَلِيفَةِ الْجُلُوسُ فِي خِزَانَةِ
الْكُتُبِ جَاءَ إِلَيْهَا وَعَدَلَ عَنْ الْخِزَانَةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ مُسَامَةً

إِلَى الشَّيْخِ صَدْرِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ النِّيَّارِ . قَالَ . أَغْنَى عَبْدُ الْمُؤْمِنِ :
 كُنْتُ مَرَّةً جَالِسًا فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ وَأَنَا أَلَسَّخُ وَهُنَاكَ مَرْتَبَةٌ بِرِسْمِ
 الْخَلِيفَةِ إِذَا جَاءَ إِلَى هَذَاكَ جَلَسَ عَلَيْهَا وَقَدْ بُسِطَتْ عَلَيْهَا مِلْحَفَةٌ
 لَتَرُدَّ عَنْهَا الْغُبَارُ . فَجَاءَ خُوَيْدِيمٌ صَغِيرٌ وَنَامَ قَرِيبًا مِنَ الْمَرْتَبَةِ الْمَذْكُورَةِ
 وَاسْتَرْقَ فِي النَّوْمِ فَتَقَلَّبَ حَتَّى تَلَفَّفَ فِي تِلْكَ الْمِلْحَفَةِ الْمَبْسُوطَةِ
 عَلَى الْمَرْتَبَةِ ثُمَّ تَقَلَّبَ حَتَّى صَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى الْمِسْنَدِ . قَالَ وَأَنَا
 مَشْغُولٌ بِالنَّسْخِ فَأَحْسَسْتُ بَوَطْءٍ فِي الدَّهْلِيزِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ الْخَلِيفَةُ
 وَهُوَ يَسْتَدْعِينِي بِالْإِشَارَةِ وَيُخَفِّفُ وَطْأَهُ . فَكُنْتُ إِلَيْهِ مُنْزَعِجًا وَقَبَّاتُ
 الْأَرْضِ فَقَالَ لِي : هَذَا الْخُوَيْدِيمُ الَّذِي قَدْ نَامَ حَتَّى تَلَفَّفَ فِي هَذِهِ
 الْمِلْحَفَةِ وَصَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى الْمِسْنَدِ مَتَى هَجَمْتُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَقِظَ
 وَيَعْلَمُ أَنِّي قَدْ شَاهَدْتُهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ تَنْقَطِرُ مَرَاتُهُ مِنَ الْخَوْفِ .
 فَأَيَّقَظُهُ أَنْتَ بِرَفْقٍ فَإِنِّي سَأَخْرُجُ إِلَى الْبُسْتَانِ ثُمَّ أَعُودُ . قَالَ
 وَخَرَجَ الْخَلِيفَةُ فَدَخَلْتُ إِلَى الْخُوَيْدِيمِ وَأَيَّقَظْتُهُ فَأَنْتَبَهَ ثُمَّ أَصْلَحْنَا
 الْمَرْتَبَةَ ثُمَّ دَخَلَ الْخَلِيفَةُ

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ بَغْدَادَ حَدَّثْتُ أَنَّ الشَّيْخَ صَدَرَ الدِّينِ بْنِ
 النِّيَّارِ شَيْخَ الْخَلِيفَةِ قَالَ : دَخَلْتُ مَرَّةً إِلَى خِزَانَةِ الْكُتُبِ عَلَى عَادَتِي
 وَفِي كُفِّي مِندِيلٌ فِيهِ رِقَاعٌ كَثِيرَةٌ لِمَجَاعَةٍ مِنْ أَرْبَابِ الْحَوَائِجِ .
 فَطَرَحْتُ الْمِندِيلَ وَفِيهِ الرِّقَاعُ فِي مَوْضِعِي ثُمَّ قُمْتُ لِبَعْضِ شَأْنِي .
 فَلَمَّا عُدْتُ إِلَى الْخِزَانَةِ بَعْدَ سَاعَةٍ سَلَّمْتُ الرِّقَاعَ مِنَ الْمِندِيلِ حَتَّى

أَتَامَلَهَا وَأَقْدَمَ مِنْهَا أُلْمُهُمْ فَرَأَتْهَا جَمِيعُهَا وَعَالِيَهَا تَوَفَّيْعُ الْخَلِيفَةِ بِالْإِجَابَةِ
إِلَى جَمِيعِ مَا فِيهَا . فَعَلِمْتُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْحِزَانَةِ عِنْدَ قِيَامِي
فَرَأَى الْمُنْدِيلَ وَفِيهِ الرِّقَاعُ فَفَتَحَهَا وَوَقَعَ عَلَى جَمِيعِهَا

وَالْأُسْتَعْمُ هُوَ آخِرُ خُلَفَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ وَلَمْ يَجْرِ
فِي أَيَّامِ الْأُسْتَعْمِ شَيْءٌ يُؤْثِرُ سِوَى نَهَبِ الْكَرْخِ وَبُسِ الْأَثَرُ ذَلِكَ .
وَفِي آخِرِ أَيَّامِهِ قَوِيَتْ الْأَرَاخِيفُ بِوُجُودِ عَسْكَرِ الْمَغُولِ صُحْبَةَ السُّلْطَانِ
هُوَ لَا كُوْفَامُ يُحَرِّكُ ذَلِكَ مِنْهُ عَزْمًا وَلَا نَبَهَ مِنْهُ هِمَّةٌ وَلَا أَحْدَثَ
عِنْدَهُ هَمًّا . وَكَانَ كُلَّمَا سَمِعَ عَنِ السُّلْطَانِ مِنَ الْإِحْتِيَاظِ وَالْإِسْتِعْدَادِ
شَيْءٌ ظَهَرَ مِنَ الْخَلِيفَةِ نَقِضُهُ مِنَ التَّهْرِيطِ وَالْإِهْمَالِ . وَلَمْ يَكُنْ
يَتَصَوَّرُ حَقِيقَةَ الْحَالِ فِي ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُ هَذِهِ الدَّوْلَةَ يَسَّرَ اللَّهُ
إِحْسَانَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ . وَكَانَ وَزِيرُهُ مُؤَيَّدُ الدِّينِ بْنُ
الْعَلَقَمِيِّ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الْحَالِ فِي ذَلِكَ وَيَكَاتِبُهُ بِالْتَّحْذِيرِ وَالْتَّنْبِيهِ
وَيُشِيرُ عَلَيْهِ بِالتَّقْطِيقِ وَالْإِسْتِعْدَادِ وَهُوَ لَا يَزْدَادُ إِلَّا غُفُولًا . وَكَانَ
خَوَاصُهُ يُوهَمُونَهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا كَبِيرُ خَطَرٍ وَلَا هُنَاكَ مُخْذَرٌ
وَأَنَّ الْوَزِيرَ إِنَّمَا يُعْظِمُ هَذَا لِتُنْفِقَ سَوْفُهُ وَلِتَبْرُزَ إِلَيْهِ الْأَمْوَالُ لِيُجِنِّدَ
بِهَا الْعَسَاكِرَ فَيَقْطَعَ مِنْهَا لِنَفْسِهِ . وَمَا زَاثُ غَفْلَةِ الْخَلِيفَةِ تَنْمِي
وَقِظَةُ الْجَانِبِ الْآخِرِ تَتَضَاعَفُ حَتَّى وَصَلَ الْعَسْكَرُ السُّلْطَانِي إِلَى
هَمْدَانَ وَأَقَامَ بِهَا مُدَيِّدَةً . ثُمَّ تَوَاتَرَتْ الرُّسُلُ السُّلْطَانِيَّةُ إِلَى الدِّيَوَانِ
الْمُسْتَعْمِي فَوَقَعَ التَّعْيِينَ مِنْ دِيَوَانِ الْخَلِيفَةِ عَلَى وَلَدِ أَسْتَاذِ الدَّارِ

وَهُوَ شَرَفُ الدِّينِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْجُوزِيِّ قُبِثَ رَسُولًا إِلَى خِدْمَةِ
الذُّرَّكَاهِ السُّلْطَانِيَّةِ بِهَمْدَانَ . فَلَمَّا وَصَلَ وَسَمِعَ جَوَابَهُ عُلِمَ أَنَّهُ جَوَابُ
مُغَالَطَةٍ وَمُدَافَعَةٍ

فَحِينَئِذٍ وَقَعَ الشَّرُوعُ فِي قَصْدِ بَغْدَادَ وَبَثَّ الْعَسَاكِرَ إِلَيْهَا .
فَتَوَجَّهَ عَسْكَرُ كَيْفٍ مِنَ الْمُغُولِ وَالْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ بَاجُو إِلَى تَكْرِيتَ
لِيَعْبُرُوا مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ وَيَقْصِدُوا بَغْدَادَ مِنْ غَرْبِهَا
وَيَقْصِدَهَا الْعَسْكَرُ السُّلْطَانِيُّ مِنْ شَرْقِهَا . فَلَمَّا عَبَرَ عَسْكَرُ بَاجُو مِنْ
تَكْرِيتَ وَاتَّخَذَ إِلَى أَعْمَالِ بَغْدَادَ أَجْزَلَ النَّاسِ مِنْ دُجَيْلٍ وَالْإِسْحَاقِيِّ
وَنَهْرِ مَلِكٍ وَنَهْرِ عَيْسَى وَدَخَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ بِبَنَاتِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ
حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ أَوْ الْمَرْأَةُ يَقْذِفُ نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ وَكَانَ الْمَلَّاحُ إِذَا
عَبَرَ أَحَدًا فِي سَفِينَةٍ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ يَأْخُذُ أَجْرَهُ سِوَارًا مِنْ
ذَهَبٍ أَوْ طِرَازًا مِنْ زَرْكَشٍ أَوْ عِدَّةٍ مِنَ الدَّنَانِيرِ . فَلَمَّا وَصَلَ
الْعَسْكَرُ السُّلْطَانِيُّ إِلَى دُجَيْلٍ وَهُوَ يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِينَ أَلْفَ فَارِسٍ
خَرَجَ إِلَيْهِ عَسْكَرُ الْخَلِيفَةِ صُحْبَةً مُقَدَّمِ الْجُيُوشِ مُجَاهِدِ الدِّينِ أَبِيكَ
الدَّوَيْدَارِ وَكَانَ عَسْكَرًا فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ . فَالتَقُوا بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ
مِنْ بَغْدَادَ قَرِيبًا مِنَ الْبَلَدِ فَكَانَتِ الْقَلْبَةُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لِعَسْكَرِ
الْخَلِيفَةِ . ثُمَّ كَانَتِ الْكُرَّةُ لِلْعَسْكَرِ السُّلْطَانِيِّ فَأَبَادُوهُمْ قَتْلًا وَأَسْرَاءَ .
وَأَعْلَنَهُمْ عَلَى ذَلِكَ نَهْرٌ فَتَحَوْهُ فِي طُولِ اللَّيْلِ فَكَثُرَتِ الْوُحُولُ فِي
طَرِيقِ الْمُنْهَزِمِينَ فَلَمْ يَبْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَمَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ أَوْ

مَنْ دَخَلَ الْبَرِّيَّةَ وَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الشَّامِ . وَتَحَا الدَّوِيدَارُ فِي
جَمِيعَةٍ مِنْ عَسَاكِرِهِ وَوَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ وَسَاقَ بِأُجُوحٍ حَتَّى دَخَلَ الْبَلَدَ
مِنْ جَانِبِهِ الْغَرْبِيِّ وَوَقَفَ بِعَسَاكِرِهِ مُحَازِي التَّاجِ وَجَاسَتْ عَسَاكِرُهُ
خِلَالَ الدِّيَارِ وَأَقَامَ مُحَازِي التَّاجِ أَيَّامًا

أَمَّا حَالُ الْعَسْكَرِ السُّلْطَانِيِّ فَإِنَّهُ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ رَابِعِ مُحَرَّمٍ
مِنْ سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ثَارَتْ غَبْرَةٌ عَظِيمَةٌ شَرْقِيَّ بَغْدَادَ
عَلَى دَرْبِ يَعْقُوبَ بِحَيْثُ عَمَتْ الْبَلَدَ فَأُزْعِجَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ وَصَعِدُوا
إِلَى أَعَالِي السُّطُوحِ وَالْمَنَائِرِ يَتَشَوَّفُونَ . فَأُنْكَشِفَتِ الْغَبْرَةُ عَنْ عَسَاكِرِ
السُّلْطَانِ وَخِيُولِهِ وَلَهْفِهِ وَكَرَاعِهِ وَقَدْ طَبَقَ وَجْهَ الْأَرْضِ وَأَحَاطَ
بِبَغْدَادَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا . ثُمَّ شَرَعُوا فِي اسْتِعْمَالِ أَسْبَابِ الْحِصَارِ
وَشَرَعَ الْعَسْكَرُ الْخَلِيفِي فِي الْمُدَافَعَةِ وَالْمُقَاوَمَةِ إِلَى يَوْمٍ تَاسِعٍ وَعِشْرِي
مُحَرَّمٍ . فَلَمْ يَشْعُرِ النَّاسُ إِلَّا وَرَايَاتُ الْمَغُولِ ظَاهِرَةً عَلَى سُورِ بَغْدَادَ
مِنْ بَرْجٍ يُسَمَّى بَرْجَ الْعَجَمِيِّ مِنْ نَاحِيَةِ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ بَغْدَادَ يُقَالُ
بَابُ كَلَوَادِي . وَكَانَ هَذَا الْبُوجُ أَقْصَرَ أَبْرَاجِ السُّورِ . وَتَقَعَمَ الْعَسْكَرُ
السُّلْطَانِيُّ هُجُومًا وَدُخُولًا فَجَرِيَ مِنَ الْقَتْلِ الذَّرِيعُ وَالنَّهْبُ الْعَظِيمُ .
وَالْتَهْتِكَ الْبَلِيغُ مَا يَعْظُمُ بَمَاعُهُ جَمَلَةً . فَمَا الظَّنُّ بِتَفَاصِيلِهِ وَكَانَ مَا كَانَ
بِمَا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظَنُّ ظَنًّا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ . وَأَمَرَ السُّلْطَانُ بِخُرُوجِ
الْخَلِيفَةِ وَوَلَدِهِ وَنِسَائِهِ إِلَيْهِ . فَخَرَجُوا فَحَضَرَ الْخَلِيفَةُ بَيْنَ يَدَيْ
الَّذِي زَكَاهُ . فَيُقَالُ إِنَّهُ عُوتِبَ وَوُجِّحَ بِمَا مَعْنَاهُ نِسْبَةُ الْعَجَزِ وَالْهَرِيطِ

وَالْفُؤْلَ إِلَيْهِ . ثُمَّ أُوصِلَ إِلَى الْيَاسَا (١) وَوَلَدَاهُ الْأَكْبَرُ وَالْأَوْسَطُ .
وَأَمَّا بَنَاتُهُ فَأَسِيرْنَ ثُمَّ اسْتَشْهَدَ الْمُسْتَعِصِمُ فِي رَابِعِ صَفَرِ سَنَةِ سِتِّ
وَحَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ

إِنْتَهَى ذِكْرُ خِلَافَةِ الْمُسْتَعِصِمِ بِاللَّهِ

(١) الْيَاسَاهِي قَانُونِ الْمُنَايَاتِ فِي دَوْلَةِ الْمَغُولِ



مِنْ كِتَابِ

الْمَوَاعِظِ وَالْإِعْتِبَارِ فِي ذِكْرِ الْخِطَاطِ وَالْآثَارِ

لِتَقِيَّ الدِّينِ الْمُقْرِزِيَّ

ذِكْرُ خِلَافَةِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ (١)

الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَبُو عَلِيٍّ مَنْصُورُ بْنُ الْعَزِيزِ نَزَارِ بْنِ الْمُعْزِ لِدِينِ
اللَّهِ أَبِي تَمِيمٍ مَعْدِيٍّ وَلَدَ بِالْقَصْرِ مِنَ الْقَاهِرَةِ الْمُعْزِيَّةِ لَيْلَةَ الْخَمِيسِ
الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِينَ
فِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ وَالطَّالِعِ مِنْ بُرْجِ السَّرَطَانِ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ
دَرَجَةً . وَسَلِمَ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ فِي مَدِينَةِ بَلْبَاسٍ بَعْدَ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِ
الثَّلَاثَاءِ ثَامِنِ وَعِشْرِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِينَ .
وَسَارَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ بِسَائِرِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَالْعَزِيزُ
فِي قُبَّةٍ عَلَى نَاقَةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَعَلَى الْحَاكِمِ دُرَاعَةٌ مُصَمَّمَةٌ وَعِمَامَةٌ فِيهَا
الْجَوْهَرُ وَبِيَدِهِ رُمْحٌ وَقَدْ تَقَلَّدَ السِّيفَ وَلَمْ يُفَقِّدْ مِنْ جَمِيعِ مَا كَانَ
مَعَ الْعَسَاكِرِ شَيْئًا وَدَخَلَ الْقَصْرَ قَبْلَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ . وَأَخَذَ فِي

(٢) الْحَاكِمُ بَأَمْرِ اللَّهِ هُوَ أَحَدُ الْخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِمِصْرَ وَلِي الْعَهْدِ بَعْدَ أَبِيهِ سَنَةَ ٩٩٦
وَكَانَ شَرِسًا جَانِرًا سَفَاكَ دِمَاءَ وَاضْطَهَدَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَأَمَرَ بِقُلْعِ الْكَرْمِ . وَكَانَتْ
وَفَاتِهِ سَنَةَ ١٠٢١ قَتَلَا يَدِ فَقِيٍّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَكَانَ يَدَّيْهِ أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ هَلِي ابْنِ أَبِي
طَالِبٍ وَيَدْعُو نَفْسَهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْقَائِمَ مَقَامَ اللَّهِ وَطَلَّ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ وَأَقَامَ دِينًا
جَدِيدًا وَهُوَ دِينُ الدَّرُوْزِ الْمُقِيمِينَ الْآنَ فِي سُورِيَّةٍ وَمِصْرَ وَأَصْحَابُهُ يُزْعَمُونَ أَنَّهُ نَقَلَ
لِيَ السَّمَاءِ (بُولِي)

جهاز أبيه العزيز بالله ودفعه. ثم بكر سائر أهل الدولة إلى
القصر يوم الخميس وقد نصب للحاكم سرير من ذهب عليه مرتبة
مذهبة في الإيوان الكبير. وخرج من قصره راكبا وعليه مئة
الجوهر والناس وقوف في صحن الإيوان. فقبلوا له الأرض ومشوا
بين يديه حتى جلس على السرير. فوقف من رسته الوقوف
وجلس من له عادة أن يجلس وسلم الجميع عليه بالإمالة واللقب
الذي اختير له وهو الحاكم بأمر الله وكان سنة يومئذ إحدى
عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام.

فجعل أبا محمد الحسن بن عمار الكتامي واسطة ولقبه بأمين
الدولة وأسقط مكوسا كانت بالساحل ورد إلى الحسين بن جوهر
القائد البريد والإنشاء. فكان يخلفه ابن سورين وأقر عيسى بن
نسطورس على ديوان الخاص وقد سليمان بن جعفر بن فلاح الشام.
فخرج بنجوتكين بدمشق وسار منها لدافسة سليمان بن جعفر بن
فلاح. فبلغ الرملة وأنضم إليه ابن الجراح الطائي في كثير من
العرب وواقع ابن فلاح فانهزم وفر. ثم أسير وجعل إلى القاهرة
فأكرم. وأختلف أهل الدولة على ابن عمار ووقعت حروب آل
إلى صرفه عن الوساطة وله في النظر أحد عشر شهرا غير خمسة
أيام. فلزم داره وأطلقت له رسوم وجرايات. وأقيم الطواشي
برجوان الصقلي مكانه في الوساطة لثلاث بقين من رمضان

سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِينَ. فَجَعَلَ كَاتِبَهُ فَهْدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ يُوقِعُ عَنْهُ
وَلَقَبَهُ بِالرَّئِيسِ وَصَرَفَ سُلَيْمَانَ بْنَ فَلَاحٍ عَنِ الشَّامِ بِجَيْشِ بْنِ
الْعَصَامَةِ. وَقَدْ قُتِلَ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكُتَيْبِيُّ مَدِينَةَ صُورَ. وَقَدْ يَأْنَسُ
الْحَادِمَ بَرَقَةَ وَمَيْسُورًا الْحَادِمَ طَرَابُلسَ وَمِمَّا الْحَادِمَ غَزَّةَ وَعَسْقلَانَ.
فَوَاقَعَ جَيْشَ الرُّومِ عَلَى قَامِيَّةٍ وَقَتَلَ مِنْهُمْ خَمْسَةَ آلَافٍ رَجُلٍ وَغَزَا
إِلَى أَنْ دَخَلَ مَرْعَشَ. وَقَدْ وَظِفَةُ قَضَاءِ الْقُضَاةِ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنَ
ابْنَ عَلِيٍّ بْنِ النُّعْمَانِ فِي صَفَرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ بَعْدَ مَوْتِ قَاضِي
الْقُضَاةِ مُحَمَّدِ بْنِ النُّعْمَانِ. وَقَتَلَ الْأَسْتَاذَ بَرْجَوَانَ لِأَرْبَعِ بَيْتِينَ مِنْ
رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِينَ وَلَهُ فِي النَّظَرِ سَنَتَانِ وَثَمَانِيَّةُ
أَشْهُرٍ غَيْرَ يَوْمٍ وَاحِدٍ

وَرَدَّ النَّظَرَ فِي أُمُورِ النَّاسِ وَتَدْبِيرِ الْمَمْلَكَةِ وَالتَّوْقِيعَاتِ إِلَى
الْحُسَيْنِ بْنِ جَوْهَرَ وَلَقِبَ بِقَائِدِ الْقَوَادِ فَخَلَفَهُ الرَّئِيسُ فَهْدٌ. وَاتَّخَذَ
الْحَاكِمُ مَجْلِسًا فِي الدَّلِيلِ يَخْضَرُ فِيهِ عِدَّةٌ مِنْ أَعْيَانِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ أَبْطَلَهُ
وَمَاتَ جَيْشُ بْنُ الْعَصَامَةِ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ تِسْعِينَ وَثَلَاثِينَ.
فَوَصَلَ ابْنُهُ بِرَكَّةَ إِلَى الْقَاهِرَةِ وَمَعَهُ دَرَجٌ يَخْطُ أَبِيهِ فِيهِ وَصِيَّتُهُ
وَبُنْتُ بِمَا خَلَفَهُ مُنْصَلًّا. وَأَنَّ ذَلِكَ جَمِيعُهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَاكِمِ
بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ مِنْ أَوْلَادِهِ مِنْهُ دِرْهَمًا. وَكَانَ مَبْلَغُ ذَلِكَ
جَمِيعُهُ ثَمَنُ الْمِائَتَيْنِ أَلْفَ دِينَارٍ مَا بَيْنَ عَيْنٍ وَمَتَاعٍ وَدَوَابٍّ. قَدْ
أَوْقَفَ جَمِيعَ ذَلِكَ تَحْتَ الْقَصْرِ فَأَخَذَ الْحَاكِمُ الدَّرَجَ وَنَظَرَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ

إِلَى أَوْلَادِ جَيْشٍ وَخَلَعَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ بِمَحْضَرَةِ وَجُوهِ الدَّوْلَةِ : قَدْ
وَقَفْتُ عَلَى وَصِيَّةِ أَبِيكُمْ رَحِمَهُ اللَّهُ وَمَا وَصَّى بِهِ مِنْ عَيْنٍ وَمَتَاعٍ
فَتُخَذُوهُ هَنِيئًا مُبَارَكًا لَكُمْ فِيهِ فَأَنْصَرَفُوا بِجَمِيعِ التَّرِكَةِ

وَمَنْعَ النَّاسِ كَافَّةً مِنْ مُخَاطَبَتِهِ أَحَدٌ وَمُكَاتَبَتِهِ بِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا
إِلَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَدَهُ . وَأُبَيِّحُ دَمَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ . وَفِي شَوَالٍ
قَتَلَ ابْنُ عُمَارٍ وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَاصَلَ الْحَاكِمُ الرُّكُوبَ
فِي اللَّيْلِ كُلِّ لَيْلَةٍ . وَكَانَ يَشُقُّ الشَّوَارِعَ وَالْأَزِقَّةَ وَيَبَايِعُ النَّاسَ فِي
الْوَقِيدِ وَالزَّيْنَةِ وَأَنْفَقُوا الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ عَلَى الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ
وَالْعَنَاءِ وَاللَّهْوِ وَكَثُرَ تَفَرُّجُهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَرَجُوا فِيهِ عَنْ الْحَدِّ
فَمَنْعَ النِّسَاءِ مِنَ الْخُرُوجِ فِي اللَّيْلِ . ثُمَّ مَنْعَ الرِّجَالَ مِنَ الْجُلُوسِ فِي
الْحَوَانِيتِ

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ أَمَرَ التَّصَارِي وَالْيَهُودَ بِشَدِّ الزَّانِئِينَ
وَلِبْسِ الْعِيَارِ . وَمَنْعَ النَّاسِ مِنَ أَكْلِ الْمُلُوحِيَا وَالْجَرَجِيرِ وَالْمُتَوَكِّلِيَّةِ
وَالدَّلِينِسِ وَذَبْحِ الْأَبْقَارِ السَّائِمَةِ مِنَ الْعَاهَةِ إِلَّا فِي أَيَّامِ الْأَصْحِيَّةِ .
وَمَنْعَ مَنْ يَبِيعُ الْقُقَاعَ وَعَمَلِهِ الْبَثَّةَ وَأَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ الْحَمَامَ إِلَّا
بِمَنْزَرٍ وَأَنْ لَا تَكْشِفَ أَمْرَأَةٌ وَجْهَهَا فِي طَرِيقٍ وَلَا خَلْفَ جَنَازَةٍ وَلَا
تَتَبَرَّجَ وَلَا يُبَاعَ شَيْءٌ مِنَ السَّبَكِ بِغَيْرِ قَشْرِ وَلَا يَصْطَادُهُ أَحَدٌ مِنَ
الصَّيَّادِينَ . وَتَتَّبِعُ النَّاسَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَشَدَّدُ فِيهِ وَضُرِبَ جَمَاعَةٌ
بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ مَا أُمِرُوا بِهِ وَنَهَوْا عَنْهُ مِمَّا ذُكِرَ . وَخَرَجَتْ

الْعَسَاكِرُ لِقَتَالِ بَنِي قُرَّةَ مِنْ أَهْلِ الْبَحْيرَةِ . وَكَتَبَ عَلَى أَبْوَابِ
الْمَسَاجِدِ وَعَلَى الْجَامِعِ بِمِصْرَ وَعَلَى أَبْوَابِ الْحَوَانِيتِ وَالْأُتُجَرِ وَالْمَقَابِرِ
سَبَّ السَّلَفِ (١) وَلَعَنَهُمْ وَآذَرَهُ النَّاسَ عَلَى نَقْشِ ذَلِكَ وَكِتَابَتِهِ
بِالْأَصْبَاغِ فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ . وَأَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِي
فَدَخَلُوا فِي الدَّعْوَةِ وَجُعِلَ لَهُمْ يَوْمَانِ فِي الْأُسْبُوعِ وَكَثُرَ الْإِزْدِحَامُ
عَلَى ذَلِكَ وَمَاتَ فِيهِ جَمَاعَةٌ

وَمَنَعَ النَّاسَ مِنَ الْخُرُوجِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ فِي الطَّرِيقَاتِ وَأَنْ لَا
يُظْهَرَ أَحَدٌ بِهَا لِبَيْعٍ وَلَا شِرَاءٍ . فَخَلَّتِ الطَّرِيقُ مِنَ الْمَسَارَةِ وَكُثِرَتْ
أَوَانِي الْخُمُورِ وَأَرِيَمَتْ مِنْ سَائِرِ الْأَمَّاكِينِ . وَاشْتَدَّ خَوْفُ النَّاسِ
بَأَسْرِهِمْ وَقَوِيَتْ الشَّنَاعَاتُ وَزَادَ الْإِضْطِرَابُ فَاجْتَمَعَ كَثِيرٌ مِنْ
الْكَتَّابِ وَغَيْرِهِمْ تَحْتَ الْقَصْرِ وَضَجُّوا يَسْأَلُونَ أَلَمْ تَوْفَّقْتِ عِدَّةَ
أَمَانَاتٍ لَجَمِيعِ الطَّوَائِفِ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَاعَةِ
وَالرَّعِيَّةِ . وَأَمَرَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ فَقُتِلَ مِنْهَا مَا لَا يُحْصَى حَتَّى قُتِلَتْ .
وَفُتِحَتْ دَارُ الْحِكْمَةِ بِالْقَاهِرَةِ وَجُمِلَ إِلَيْهَا الْكُتُبُ وَدَخَلَ إِلَيْهَا
النَّاسُ وَاشْتَدَّ الطَّلَبُ عَلَى الرِّكَايَةِ الْمُسْتَعْدِمِينَ فِي الرِّكَابِ وَقَتَلَ
مِنْهُمْ كَثِيرًا . ثُمَّ عَفَا عَنْهُمْ وَكَتَبَ لَهُمْ أَمَانَاتٍ وَمَنَعَ النَّاسَ كَافَّةً مِنَ
الدَّخُولِ مِنْ بَابِ الْقَاهِرَةِ وَهُمْ رُكَّابٌ . وَمَنَعَ الْمَكَارِبِينَ أَنْ يَدْخُلُوا

(١) اسم السلف يطلق على ما ذهب إليه الأئمة على عايشة زوجة محمد وإبي بكر
وعمر ومثان وطلحة وابن الزبير ومعاوية وعمر بن العاص

يَحْمِيهِمْ إِلَى الْقَاهِرَةِ وَمَنَعَ النَّاسَ مِنَ الْمَشْيِ مُلَاصِقَ الْقَصْرِ . وَقُتِلَ
قَاضِي الْقَضَاةِ حُسَيْنُ بْنُ النُّعْمَانِ وَأُحْرِقَ بِالنَّارِ . وَقُتِلَ عَدَدٌ مِنَ
النَّاسِ كَثِيرٌ ضَرَبَتْ أَعْنَاقُهُمْ .

وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ خَرَجَ أَبُو رَكُوةَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ وَادَّعَى
أَنَّهُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ . فَهَامَ بِأَمْرِهِ بَنُو قُرَّةَ لِكَثْرَةِ مَا أَوْقَعَ بِهِمُ الْحَاكِمُ
وَبَايَعُوهُ وَأَسْتَجَابَ لَهُ لَوَاتِهِ وَمَزَاتِهِ وَزَنَاتِهِ وَأَخَذَ بَرْقَةً وَهَزَمَ جُيُوشَ
الْحَاكِمِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَغَنِمَ مَا مَعَهُمْ . فَخَرَجَ لِقِتَالِهِ الْقَائِدُ فَضْلُ بْنُ صَالِحٍ
فِي رَيْعِ الْأَوَّلِ وَوَاقِعُهُ فَأَنْهَزَمَ مِنْهُ فَضْلٌ وَأَشْتَدَّ الْإِضْطِرَابُ بِعَصْرِ
وَتَرَايَدَتِ الْأَسْعَارُ . وَأَشْتَدَّ الْإِسْتِعْدَادُ لِعَارِيَةِ أَبِي رَكُوةَ وَزَلَّتِ
الْعَسَاكِرُ بِالْجِيزَةِ . وَسَارَ أَبُو رَكُوةَ فَوَاقِعَهُ الْقَائِدُ فَضْلٌ وَقُتِلَ عِدَّةٌ
مِنْ مَعَهُ . فَعَظُمَ الْأَمْرُ وَأَشْتَدَّ الْخَوْفُ وَخَرَجَ النَّاسُ فَبَاتُوا فِي
الشَّوَارِعِ خَوْفًا مِنْ هُجُومِ عَسَاكِرِ أَبِي رَكُوةَ . وَأَسْتَمَرَّتِ الْحُرُوبُ
فَأَنْهَزَمَ أَبُو رَكُوةَ فِي ثَالِثِ ذِي الْحِجَّةِ عَلَى الْيَوْمِ . وَتَبِعَهُ الْقَائِدُ
فَظُلَّ بَعْدَ أَنْ بَعَثَ إِلَى الْقَاهِرَةِ سِتَّةَ آلَافٍ رَأْسٍ وَمِائَةِ أَسِيرٍ إِلَى
أَنْ قُبِضَ عَلَيْهِ فِي بِلَادِ الثُّوبَةِ . وَأُخْضِرَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فَقُتِلَ بِهَا
وَحُلِعَ عَلَى الْقَائِدِ فَضْلٍ وَسِيرَتِ الْبَشَائِرُ بِقَتْلِهِ فِي الْأَعْمَالِ .

وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثِينَ أَمَرَ بِمُحْوِي سَبِّ السَّافِ فَحُمِي
سَائِرُ مَا كُتِبَ مِنْ ذَلِكَ وَغَلَّتِ الْأَسْعَارُ لِنَقْصِ النِّيلِ . فَإِنَّهُ بَلَغَ سِتَّةَ
عَشَرَ أَصْبَعًا مِنْ سَبْعِ عَشْرَةِ ذِرَاعَاتٍ ثُمَّ نَقَصَ وَمَاتَ نَجُوتَكَيْنِ فِي ذِي

الْحَجَّةَ وَأَشْتَدَّ الْفَلَاءُ فِي ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَوَلَّى عَلِيٌّ ابْنُ فَلَاحٍ دِمَشْقَ .
وَقَبِضَ جَمِيعُ مَا هُوَ مُحْبَسٌ عَلَى الْكُنَائِسِ . وَجُعِلَ فِي الدِّيَّوَانِ وَأُحْرِقَ
عِدَّةُ صُلْبَانٍ عَلَى بَابِ الْجَامِعِ بِمَصْرَ وَكُتِبَ إِلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ
بِذَلِكَ . وَفِي سَادِسَ عَشَرَ رَجَبٍ قَرَّرَ مَالِكُ بْنُ سَعِيدٍ الْهَارِقِيُّ فِي
وِظِيفَةِ قَضَاءِ الْقُضَاةِ وَتَسَلَّمَ كُتُبَ الدَّعْوَةِ الَّتِي تُقْرَأُ بِالْقَصْرِ عَلَى
الْأَوْلِيَاءِ وَصَرَفَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ النُّعْمَانِ عَنْ ذَلِكَ

وَتَوَقَّعَتْ زِيَادَةُ النِّيلِ وَأَسْتَسْقَى النَّاسُ مَرَّتَيْنِ وَأَمَرَ بِإِبْطَالِ
عِدَّةٍ مَكُوسٍ وَتَعَذَّرَ وَجُودُ الْخُبْزِ لِفَلَايِهِ وَقَلَّتْهُ . وَفُتِحَ الْخَلِيجُ فِي
رَابِعِ ثَوْتٍ وَالْمَاءُ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَأَشْتَدَّ الْفَلَاءُ . وَفِي تَاسِعِ
مُحْرَمٍ وَهُوَ نِصْفُ ثَوْتٍ نَقَصَ مَاءُ النِّيلِ وَلَمْ يُوفِ سِتُّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا .
فَمَنَعَ النَّاسَ كَافَّةً مِنَ التَّظَاهُرِ بِالْفَنَاءِ وَمِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ لِلتَّفَرُّجِ .
وَمَنَعَ مِنْ بَيْعِ السُّكَّرَاتِ وَمَنَعَ كَافَّةً مِنَ الْخُرُوجِ قَبْلَ الْفَجْرِ
وَبَعْدَ الْعِشَاءِ إِلَى الطَّرَفَاتِ . وَأَشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْكَافَّةِ لِشِدَّةِ مَا
دَاخَلَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ مَعَ شِدَّةِ الْفَلَاءِ وَتَرَايَدَ الْأَمْرَاضُ فِي النَّاسِ
وَالْمَوْتُ

وَتَرَايَدَتِ الْأَمْرَاضُ وَكَثُرَ الْمَوْتُ وَعَزَّتِ الْأَذْوِيَةُ وَأَعِيدَتِ
الْمَكُوسُ الَّتِي رُفِعَتْ وَهْدِمَتْ كُنَائِسُ كَانَتْ بِطَرِيقِ الْمَقْسِ .
وَهْدِمَتْ كَنِيسَةُ بِحَارَةِ الرُّومِ مِنَ الْقَاهِرَةِ وَنُهِبَ مَا فِيهَا وَقُتِلَ
كَثِيرٌ مِنَ الْخُدَّامِ وَالْكَتَّابِ وَمِنَ الصَّقَالِيَةِ بَعْدَ مَا قُطِعَتْ أَيْدِي

بعضهم من الكتاب بالسَّاطورِ على خشبةٍ من وسطِ الذَّرَاعِ وَقُتِلَ
 الْقَائِدُ فَضْلُ بْنُ صَالِحٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ . وَفِي حَادِي عَشَرَ صَفَرٍ
 صَرَفَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ الرُّوذِبَارِيَّ وَقَرَّرَ مَكَانَهُ ابْنُ عَبْدِونَ النَّصْرَانِيَّ
 الْكَاتِبُ وَلَقِبَ بِالْكَافِي . فَوَقَعَ عَنِ الْحَاكِمِ وَنَظَرَ . وَكُتِبَ بِهِمْ
 كَنِيْسَةُ الْقُمَامَةِ وَجَدَّدَ دِيوَانًا يُقَالُ لَهُ الدِّيَوَانُ الْمَفْرَدُ بِهِمْ مِنْ
 قِبَضِ مَالِهِ مِنَ الْمُتَوَلِّينَ وَغَيْرِهِمْ . وَكَثُرَتِ الْأُمْرَاضُ وَعَزَّتِ
 الْأَدْوِيَةُ وَشَهَرَ جَمَاعَةٌ وَجَدَ عِنْدَهُمْ قُقَاعٌ وَمُلُخِيَا وَدَلِيْسٌ وَتُرْسٌ
 وَضَرْبٌ وَهَدِمَ دَيْرُ الْقَصْرِ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى النَّصَارَى وَالْيَهُودِ فِي
 الزَّامِهِمْ لَيْسَ الْغِيَارُ وَكُتِبَ . بِإِبْطَالِ أَخَذِ الْحُدُسِ وَالنَّجَاوَى وَالْفِطْرَةِ
 وَقَرَّ الْحُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرَ وَأَوْلَادُهُ وَعَبْدُ الْغَزِيْرِ بْنُ النُّعْمَانِ . وَقَرَّ أَبُو
 الْقَسَمِ الْحُسَيْنُ بْنُ الْمَغْرِبِيِّ . وَكُتِبَتْ عِدَّةُ أَمَانَاتٍ لِمَدَّةِ طَوَائِفَ
 مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ وَقُطِعَتْ قِرَاءَةُ مَجَالِسِ الْحِكْمَةِ بِالْقَصْرِ . وَوَقَعَ
 التَّشْدِيدُ فِي الْمَنَعِ مِنَ الْمُسْكِرَاتِ وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْحُدَّامِ
 وَالتَّهْرَاشِينَ وَقُتِلَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ الرُّوذِبَارِيَّ فِي شَوَّالٍ

وَفِي رَاجِعِ الْحُرْمِ سَنَةٌ إِحْدَى وَأَرْبَعِمِائَةٍ صَرَفَ الْكَافِي بْنُ
 عَبْدُونَ عَنِ النَّظَرِ وَالتَّوْقِيعِ وَقَرَّرَ بَدْلَهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ التَّشُورِيُّ
 الْكَاتِبُ فِي الْوَسَاطَةِ وَالسِّفَارَةِ . وَحَضَرَ حُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرَ وَعَبْدُ
 الْغَزِيْرِ بْنُ النُّعْمَانِ إِلَى الْقَاهِرَةِ فَأُكْرِمَ ثُمَّ صَرَفَ ابْنُ التَّشُورِيِّ
 بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ اسْتِقْرَارِهِ وَضُرِبَ عَنْقُهُ . وَقَرَّرَ بَدْلَهُ زُرْعَةُ بْنُ

عيسى بن نسطورس الكاتب النصراني ولقب بالشافي . ومنع الناس
 من ركوب المراكب في الخليج وسدت أبواب الدور التي على الخليج
 والطافات . وأضيف إلى قاضي القضاة مالك بن سعيد النظر في
 المظالم . وأعيدت مجالس الحكمة وأخذ مال التجوى وقيل ابن
 عبدون وقبض ماله . وضرب جماعة وشهروا من أجل بيعهم
 الملوخيا والسك الذي لا قشر له ويسبب بيع النبيذ . وقيل الحسين
 بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان في جمادى الآخرة في سنة
 إحدى وأربعين وأحيط بأموالهما وأبطلت عدة مكوس . ومنع
 الناس من الفناء واللهو ومن بيع المغنيات ومن الاجتماع بالصحرَاء .
 وفي هذه السنة خلع حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح طاعة
 الحاكم وأقام أبا الفتوح حسين بن جعفر الحسيني أمير مكة خليفة
 وبأيعوه ودعا الناس إلى مبايعته وقاتل عساكر الحاكم
 وفي سنة اثنتين وأربعين منع من بيع الزبيب وكتب بالمنع
 من حمله وألقي في بحر النيل منه شيء كثير وأحرق منه كثير .
 ومنع النساء من زيارة القبور فلم ير في الأعياد بالمقابر امرأة واحدة .
 ومنع من الاجتماع على شاطئ النيل للفرج ومنع من بيع
 الغنم إلا أربعة أرطال فما دونها . ومنع من عصيره وطرخ كثير
 منه وديس في الطرقات وغرق كثير منه في النيل . ومنع من حمله
 وقطعت كروم الحيزة كلها وسير إلى الجهات بذلك

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ غَلَا السَّعْرُ وَأَزْدَحَمَ النَّاسُ عَلَى
 الْخَبَزِ وَفِي ثَانِي رَجَبٍ الْأَوَّلِ مِنْهَا هَلَكَ عِيسَى بْنُ كِسْطُورَسَ . فَأَمَرَ
 النَّصَارَى بِبَلْسِ السَّوَادِ وَتَعْلِقِ الصُّلْبَانَ الْخَشَبِ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَنْ
 يَكُونَ الصَّلِيبُ ذِرَاعًا فِي مِثْلِهَا وَزِنْتُهُ خَمْسَةُ أَرْطَالٍ وَأَنْ يَكُونَ مَكْشُوفًا
 يَحِثُّ يَرَاهُ النَّاسُ . وَمَنْعُوا مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ وَأَنْ يَكُونَ رُكُوبُهُمْ
 الْبَغَالُ وَالْحَمِيرُ بِالسَّرُوجِ الْخَشَبِ وَالسُّيُورِ السُّودِ بِغَيْرِ حِلْيَةٍ وَأَنْ
 يَشْدُوا الزَّانِئِينَ وَلَا يَسْتَخْدِمُوا مُسْلِمًا وَلَا يَشْتَرُوا عَبْدًا وَلَا أَمَةً
 وَتُبِعَتِ آثَارُهُمْ فِي ذَلِكَ فَأَسْلَمَ مِنْهُمْ عِدَّةٌ . وَقُرَّرَ حُسَيْنُ بْنُ
 طَاهِرٍ الْوَزَّانُ فِي الْوَسَاطَةِ وَالتَّوْقِيعِ عَنِ الْحَاكِمِ فِي تَالِعٍ وَعِشْرِي
 رَجَبٍ الْأَوَّلِ مِنْهَا وَلَقِبَ بِأَمِينِ الْأَمْنَاءِ . وَنَقَشَ الْحَاكِمُ عَلَى خَاتَمِهِ
 يَنْصُرُ اللَّهُ الْعَظِيمَ الْوَلِيَّ يَنْصُرُ الْإِمَامَ أَبُو عَلِيٍّ . وَضُرِبَ جَمَاعَةٌ
 بِسَبَبِ اللَّعِبِ بِالشَّطْرَنْجِ وَهَدِمَتِ الْكُنَائِسُ وَأُخِذَ جَمِيعُ مَا فِيهَا
 وَمَا لَهَا مِنَ الرِّبَاعِ . وَكُتِبَ بِذَلِكَ إِلَى الْأَعْمَالِ فَهَدِمَتْ بِهَا وَفِيهَا
 لَحِقَ أَبُو الْفُتُوحِ بِمَكَّةَ وَدَعَا لِلْحَاكِمِ وَضُرِبَ السِّكَّةُ بِاسْمِهِ . وَأَمَرَ
 الْحَاكِمُ أَنْ لَا يُقْبَلَ أَحَدٌ لَهُ الْأَرْضُ وَلَا يُقْبَلَ رِكَابُهُ وَلَا يَدُهُ عِنْدَ
 السَّلَامِ عَلَيْهِ فِي الْمَوَاقِبِ . فَإِنَّ الْأَنْحَاءَ إِلَى الْأَرْضِ لِخَلُوقٍ مِنْ
 صَنِيعِ الرُّومِ . وَأَنْ لَا يُزَادَ عَلَى قَوْلِهِمُ السَّلَامُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 وَرَحْمَةِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ . وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ أَحَدٌ فِي مَكَاتِبِهِ وَلَا يُخَاطَبُ بِهِ
 وَيُقْتَصَرُ فِي مَكَاتِبِهِ عَلَى سَلَامٍ اللَّهِ وَتَحِيَّاتِهِ وَنَوَامِي بَرَكَاتِهِ عَلَى أَمِيرِ

الْمُؤْمِنِينَ وَيُدْعَى لَهُ بِمَا يَتَّقُ مِنَ الدُّعَاءِ فَقَطْ لَا غَيْرُ . فَلَمْ يُهِلْ
 الْخُطْبَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سِوَى اللَّهِ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَسَلَّمَ عَلَى
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ الرِّضَى . اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ابْنِ
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَفْضَلَ سَلَامِكَ عَلَى عَبْدِكَ وَخَلِيفَتِكَ .
 وَمَنْعَ مِنْ ضَرْبِ الطُّبُولِ وَالْأَبْوَابِ حَوْلَ الْقَصْرِ . فَصَارُوا يَطُوفُونَ
 بِغَيْرِ طَبَلٍ وَلَا بُوقٍ وَكَثُرَتْ إِنْعَامَاتُ الْحَاكِمِ . فَتَوَقَّفَ أَمِينُ الْأَمْنَاءِ
 حُسَيْنُ بْنُ طَاهِرِ الْوَزَانِ فِي إِمضَائِهَا فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحَاكِمُ بِحُطِّهِ
 بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ

أَصْبَحْتُ لَا أَرْجُو وَلَا أَتَّقِي إِلَّا إِلَهِي وَلَهُ الْفَضْلُ
 جَدِّي نَبِيِّ وَإِمَامِي أَبِي وَدِينِي الْإِخْلَاصُ وَالْعَدْلُ
 أَمَّا مَالُ اللَّهِ وَالْحَلْقُ عِبَادُ اللَّهِ وَتَحْنُ أَمْنَاؤُهُ فِي الْأَرْضِ أَطْلَقَ
 أَرْزَاقَ النَّاسِ وَلَا تَقْطَعُهَا وَالسَّلَامُ . وَرَكِبَ الْحَاكِمُ فِي يَوْمِ عِيدِ
 الْفِطْرِ إِلَى الْمُصَلَّى بِغَيْرِ زِينَةٍ وَلَا جَنَائِبٍ وَلَا أَبْهَةِ سِوَى عَشْرَةِ
 أَفْرَاسٍ تُقَادُ بِسُرُوجٍ وَلِجَمِّ مُحَلَّلَةٍ بِفِضَّةٍ خَفِيفَةٍ وَبُنُودٍ سَادِجَةٍ
 وَمِظْلَةٍ بَيْضَاءَ بِغَيْرِ ذَهَبٍ وَعَلَيْهِ بَيَاضٌ بِغَيْرِ طِرَازٍ وَلَا ذَهَبٍ وَلَا
 جَوْهَرٍ فِي عِمَامَتِهِ وَلَمْ يُفَرِّشِ الْمِنْبَرَ . وَمَنْعَ النَّاسَ مِنْ سَبِّ السَّلَفِ
 وَضَرْبِ فِي ذَلِكَ وَشَهْرَ وَصَلَّى صَلَاةَ عِيدِ الثَّخَرِ كَمَا صَلَّى صَلَاةَ
 الْفِطْرِ مِنْ غَيْرِ أَبْهَةٍ وَتَحَرَّ عَنْهُ عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ إِيَّاسَ بْنِ أَحْمَدَ

الْمُهَلِّي وَكَثَرَ الْحَاسِكُ مِنَ الرُّكُوبِ إِلَى الصَّخْرَاءِ بِحِذَاءِ فِي
رِجْلَيْهِ وَفُوطَةٍ عَلَى رَأْسِهِ

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ أُلْزِمَ الْيَهُودَ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْنَاقِهِمْ
جَرَسٌ إِذَا دَخَلُوا إِلَى الْحِمَامِ وَأَنْ يَكُونَ عُنُقُ النَّصَارَى صُلبَانٌ
وَمَنْعَ النَّاسِ مِنَ الْكَلَامِ فِي النُّجُومِ وَأُفْنِيَ الْمُتَجِمُّونَ مِنَ الطُّرُقَاتِ
وَطُلِبُوا قَتْلُهَا وَنُفُوا. وَكَثُرَتْ هِبَاتُ الْحَاسِكِ وَصَدَقَاتُهُ وَعَقَّتُهُ.
وَأَمَرَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ وَغَيْرِهَا.
وَأَقِيمَ عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ إِبْلِيسَ وَلِيَّ الْعَهْدِ وَأَمَرَ أَنْ يُقَالَ فِي السَّلَامِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى ابْنِ عَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ. وَصَارَ
يَجْلِسُ بِمَكَانٍ فِي الْقَصْرِ. وَصَارَ الْحَاسِكُ يَرْكَبُ بِدَرَّاعَةٍ صُوفٍ
يَبْيَضُ وَيَتَعَمُّ بِفُوطَةٍ وَفِي رِجْلَيْهِ حِذَاءٌ عَرَبِيٌّ بِقِبَالَيْنِ وَعَبْدُ الرَّحِيمِ
يَتَوَلَّى النَّظَرَ فِي أُمُورِ الدَّوْلَةِ كُلِّهَا. وَأَفْرَطَ الْحَاسِكُ فِي الْعَطَاءِ
وَرَدَّ مَا كَانَ أَخَذَ مِنَ الصِّيَاعِ وَالْأَمْلَاقِ لِأَرْبَابِهَا

وَفِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ أَمَرَ بِقَطْعِ يَدَيْ أَبِي الْقَاسِمِ الْجَزْجَرَانِيِّ.
وَكَانَ يَكْتُبُ لِلْقَائِدِ عَيْنٍ. ثُمَّ قَطَعَتْ يَدُ عَيْنٍ فَصَارَ مَقْطُوعَ الْيَدَيْنِ
وَبَعَثَ إِلَيْهِ الْحَاسِكُ بَعْدَ قَطْعِ يَدَيْهِ بِآلَافٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالثِّيَابِ.
ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَمَرَ بِقَطْعِ لِسَانِهِ فَطُغِعَ وَأَبْطُلَ عِدَّةُ مَكُوسٍ وَقَتْلَ
الْكِلَابِ كُلِّهَا وَكَثَرَ مِنَ الرُّكُوبِ فِي اللَّيْلِ وَمَنْعَ النِّسَاءِ مِنَ الْمَشْيِ
فِي الطُّرُقَاتِ. فَلَمْ تَرَ أَمْرًا فِي طَرِيقِ الْبَتَّةِ وَأُغْلِقَتْ حِمَامَتُهُنَّ وَمَنْعَ

الأساكفة من عمل خفافين وتعطلت حوائثهم واشتدت الإشاعة
بوقوع السيف في الناس فتهاربوا وغلقت الأسواق فلم يعم شي
ودعي لعبد الرحيم بن إلياس على المنابر وضربت السيكة باسمه
بولاية العهد

وفي سنة خمس وأربعمائة قتل مالك بن سعيد الفارقي في
ربيع الآخر وكانت مدة نظره في قضاء القضاة ست سنين وتسعة
أشهر وعشرة أيام وبلغ إقطاعه في السنة خمسة عشر ألف دينار
وترايد ذكوب الحاكيم حتى كان يركب في كل يوم عدة يراه
وأشترى الحمير وركبها بدل الخيل وفي جمادى الآخرة منها قتل
الحسين بن طاهر الوزان فكانت مدة نظره في الوساطة سنتين
وشهرين وعشرين يوما . فأمر أصحاب الدواوين بأزوم دواوينهم
وصار الحاكيم يركب حمارا بشاشية مكشوفة بغير عمامة . ثم
أقام عبد الرحيم بن أبي السيد الكاتب وأخاه أبا عبد الله
الحسين في الوساطة والسفارة وأقر في وظيفة قضاء القضاة
أحمد بن محمد بن أبي العوام . وخرج الحاكيم عن الحد في العطاء
حتى أقطع نواتية المراكب والمشاعلية وبني قرّة . فيما أقطع
الإسكندرية والبحيرة ونواحيها . ثم قتل أبي السيد . وكانت مدة
نظرهما اثنين وستين يوما . وقد الوساطة فضل بن جعفر بن الهرات .
ثم قتله في اليوم الخامس من ولايته وغلب أبو قرّة على الإسكندرية

وَأَعْمَالَهَا. وَكَثَرَ الْحَاكِمُ مِنَ الرَّاكِبِ فِي يَوْمٍ سِتِّ مَرَّاتٍ مَرَّةً عَلَى
 فَرَسٍ وَمَرَّةً عَلَى جِمَارٍ وَمَرَّةً فِي مِحْفَةٍ تُحْمَلُ عَلَى الْأَعْنَاقِ وَمَرَّةً فِي
 عَشَارِيٍّ عَلَى النَّيْلِ بِغَيْرِ عِمَامَةٍ. وَكَثَرَ مِنْ إِقْطَاعِ الْجُنْدِ وَالْعَبِيدِ
 الْإِقْطَاعَاتِ. وَأَقَامَ ذَا الرِّئَاسَتَيْنِ قُطْبُ الدَّوْلَةِ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ
 جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحٍ فِي الْوَسَاطَةِ وَالسَّفَارَةِ وَوَلَّى عَبْدَ الرَّحِيمِ بْنُ الْيَاسِ
 دِمَشْقَ. فَسَارَ إِلَيْهَا فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فَأَقَامَ
 فِيهَا شَهْرَيْنِ. ثُمَّ هَجَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَقَتَلُوا جَمَاعَةً مِمَّنْ عِنْدَهُ وَأَخَذُوهُ فِي
 صُنْدُوقٍ وَحَمَلُوهُ إِلَى مِصْرَ ثُمَّ أُعِيدَ إِلَى دِمَشْقَ فَأَقَامَ بِهَا إِلَى لَيْلَةِ
 عِيدِ الْفِطْرِ وَأَخْرَجَ مِنْهَا

وَلَمَّا كَانَ لِلَّيْلَتَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ شَوَالٍ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ
 قُتِلَ الْحَاكِمُ وَقِيلَ إِنَّ أُخْتَهُ قَتَلَتْهُ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ. وَكَانَ عُمُرُهُ سِتًّا
 وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَكَانَتْ مُدَّةُ خِلَافَتِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً
 وَشَهْرًا. وَكَانَ جَوَادًا سَفَاكَ قَتَلَ عَدَدًا لَا يُحْصَوْنَ. وَكَانَتْ سِيرَتُهُ
 مِنْ أَعْجَبِ السَّيْرِ وَخُطْبَ لَهُ عَلَى مَنَائِرِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَإِفْرِيقِيَّةَ
 وَالْحِجَازِ. وَكَانَ يَشْتَغِلُ بِطُلُومِ الْأَوَائِلِ وَيَنْظُرُ فِي النُّجُومِ وَعَمِلَ
 رَصْدًا وَاتَّخَذَ بَيْتًا فِي الْمَقْطَمِ يَنْقُطِعُ فِيهِ عَنِ النَّاسِ لِذَلِكَ وَيَقَالُ
 إِنَّهُ كَانَ يَعْتَرِيهِ جَفَافٌ فِي دِمَاقِهِ فَلِذَلِكَ كَثُرَ تَنَاقُضُهُ وَمَا أَحْسَنَ
 مَا قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ كَانَتْ أَفْعَالُهُ لَا تُعَلَّلُ وَأَحْلَامُ وَسَاوِسِهِ
 لَا تُؤَوَّلُ

وَقَالَ الْمُسَجِّيُّ فِي مُحَرَّمِ سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ قُبِضَ
 عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي حُسَيْنٍ تَارَ بِالصَّعِيدِ الْأَعْلَى فَأَقْرَأَهُ قَتْلَ
 الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي جُلَّةٍ أَرْبَعَةِ أَنْفُسٍ تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَأُظْهِرَ
 قِطْعَةً مِنْ جِلْدَةٍ رَأْسِ الْحَاكِمِ وَقِطْعَةً مِنَ الْفُوطَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ .
 فَقِيلَ لَهُ لِمَ قَتَلْتَهُ : فَقَالَ غَيْرَةَ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ : فَقِيلَ كَيْفَ قَتَلْتَهُ .
 فَأَخْرَجَ سِكِّينًا ضَرَبَ بِهَا فُؤَادَهُ وَقَتَلَ نَفْسَهُ وَقَالَ هَكَذَا قَتَلْتَهُ .
 وَقُطِعَ رَأْسُهُ وَأُنْفِذَ بِهِ إِلَى الْحَضْرَةِ مَعَ مَا وَجَدَ مَعَهُ . وَهَذَا هُوَ
 الصَّحِيحُ فِي خَبَرِ قَتْلِ الْحَاكِمِ . لَأَمَّا يُحْكِيهِ الْمَشَارِقَةُ فِي كُتُبِهِمْ
 مِنْ أَنَّ أُخْتَهُ قَتَلَتْهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

مِنْ ذِكْرِ الْحَارَاتِ

عِبَارَةٌ تَتَعَلَّقُ بِفَتْوحَاتِ هَفْتَكَيْنِ وَأُنْكَسَارَاتِهِ

حَارَةُ الدَّيْلَمِ عُرِفَتْ بِذَلِكَ لِانْزُولِ الدَّيْلَمِ الْوَاصِلِينَ مَعَ
 هَفْتَكَيْنِ الشَّرَافِيِّ حِينَ قَدِمَ وَمَعَهُ أَوْلَادُ مَوْلَاهُ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ الْبُويهي
 وَجَمَاعَةٌ مِنَ الدَّيْلَمِ وَالْأَتْرَاكِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَسَكَنُوا
 بِهَا فَعُرِفَتْ بِهِمْ

• هَفْتَكَيْنُ وَيُقَالُ لَهُ الْفَتَكَيْنُ التُّزْكِيُّ الشَّرَافِيُّ غُلَامٌ مُعِزُّ الدَّوْلَةِ
 أَحْمَدُ بْنُ بُويهِ تَرَفَّى فِي الْخُدَمِ حَتَّى غَلَبَ فِي بَغْدَادَ عَلَى عِزِّ الدَّوْلَةِ
 بِمُخْتَارِ بْنِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ . وَكَانَ فِيهِ شَجَاعَةٌ وَثَبَاتٌ فِي الْحَرْبِ . فَلَمَّا
 سَلَتْ الْأَتْرَاكُ مِنْ بَغْدَادَ لِحَرْبِ الدَّيْلَمِ جَرَى بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَظِيمٌ

أَشْتَهَرَ فِيهِ هَفْتَكَيْنُ إِلَّا أَنَّ أَصْحَابَهُ أَنْهَزُوا عَنْهُ وَصَارَ فِي طَائِفَةٍ
 قَلِيلَةٍ قَوْلِي بَيْنَ مَعَهُ مِنَ الْأَثَرِ وَهُمْ نَحْوُ الْأَرْبَعِمِائَةِ . فَسَارَ عَلَى
 الرِّيحِ وَأَخَذَ مِنْهَا عَلَى الْبَرِّ إِلَى أَنْ قَرَّبَ مِنْ جُوسِيَّةٍ إِحْدَى قُرَى
 الشَّامِ . وَقَدْ وَقَعَ فِي قُلُوبِ الرُّبَّانِ مِنْهُ مَهَابَةٌ . فَخَرَجَ إِلَيْهِ ظَالِمُ بْنُ
 مَرْهُوبٍ الْقَلْبِيُّ مِنْ بَعْلَبَكْ وَبَثَّ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ إِبْرَاهِيمَ بْنِ جَعْفَرٍ
 أَمِيرِ دِمَشْقَ مِنْ قَبْلِ الْخَلِيفَةِ الْمُعِزِّ لِدِينِ اللَّهِ يُعَالِمُهُ بِدُومِ هَفْتَكَيْنِ
 مِنْ بَغْدَادَ لِإِقَامَةِ الْخُطْبَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَخَوْفَهُ مِنْهُ . فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ عَسْكَرًا
 وَسَارَ إِلَى نَاحِيَةِ جُوسِيَّةٍ يُرِيدُ هَفْتَكَيْنِ . وَسَارَ بِشَارَةَ الْخَادِمُ مِنْ
 قَبْلِ أَبِي الْمَعَالِي بْنِ حَمْدَانَ عَوْنًا لِهَفْتَكَيْنِ فَرَدَّ ظَالِمٌ إِلَى بَعْلَبَكْ
 مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ

وَسَارَ بِشَارَةَ بِهَفْتَكَيْنِ إِلَى خِمَصَ فَحَمَلَ إِلَيْهِ أَبُو الْمَعَالِي وَتَلَقَّاهُ
 وَكَرَّمَهُ وَكَانَ قَدْ نَارَ بِدِمَشْقَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدَّعَارَةِ وَالْأَسَادِ
 وَحَارَبُوا عُمَالَ السُّلْطَانِ وَأَشْتَدَّ أَمْرُهُمْ وَكَانَ كَبِيرُهُمْ يُعْرِفُ بِابْنِ
 الْمَأُورِدِ . فَلَمَّا بَلَغَهُمْ خَبَرُ هَفْتَكَيْنِ يَمْشُوا إِلَيْهِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى
 خِمَصَ يَسْتَدْعُوهُ وَيُوعِدُوهُ بِالْقِيَامِ مَعَهُ عَلَى عَسَاكِرِ الْمُعِزِّ وَإِخْرَاجِهِمْ
 مِنْ دِمَشْقَ لَيْلِي عَلَيْهِمْ فَوَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُ بِالْمُؤَافَقَةِ . وَسَارَ حَتَّى نَزَلَ
 ثَنِيَّةَ الْعُقَابِ لِأَيَّامٍ بَقِيَتْ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِينَ .
 فَلَبَّغَ عَسْكَرَ الْمُعِزِّ خَبَرَ الْفَرَنْجِ وَأَنْتَهُمْ قَدْ قَصَدُوا طَرَابُلُسَ فَسَارُوا
 بِأَجْمَعِهِمْ إِلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ . وَنَزَلَ هَفْتَكَيْنُ عَلَى دِمَشْقَ مِنْ غَيْرِ

حَرْبٍ فَأَقَامَ أَيَّامًا . ثُمَّ سَارَ يُرِيدُ مُحَارَبَةَ ظَالِمٍ قَهَرَ مِنْهُ وَدَخَلَ
هَفَّتَكِينَ بَعْلَبَكْ فَطَرَقَهُ الْعَدُوُّ مِنَ الرُّومِ وَأَقْرَعْنَجَ وَأَنْتَهَبُوا
بَعْلَبَكْ وَأَحْرَقُوا وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ . وَأَنْتَشَرُوا فِي أَعْمَالِ
بَعْلَبَكْ وَالْبِقَاعِ يَهْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ وَيُحْرِقُونَ وَقَصَدُوا دِمَشْقَ وَقَدْ
اتَّخَفَ بِهَا هَفَّتَكِينَ . فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ دِمَشْقَ وَسَأَلُوهُمْ أَلْكَفَ عَنْ
الْبَلَدِ وَالْتَزَمُوا بِمَالِهِ . فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ هَفَّتَكِينَ وَأَهْدَى إِلَيْهِمْ وَتَكَلَّمَ
مَعَهُمْ فِي أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ جَبَايَةَ أُمِّ الْإِلَاحِ لِقُوَّةِ ابْنِ الْمَوَرِدِ وَأَصْحَابِهِ
وَأَغْرَى مَلِكَ الرُّومِ فَخَبَضَ عَلَيْهِ وَقَيْدَهُ وَعَادَ فَجَبَى أُمُّ الْإِلَاحِ مِنْ دِمَشْقَ
بِالْعُنْفِ وَحَمَلَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَرَحَلَ إِلَى بَيْرُوتَ
ثُمَّ إِلَى طَرَابُلُسَ

فَتَمَكَّنَ هَفَّتَكِينَ مِنْ دِمَشْقَ وَأَقَامَ بِهَا الدَّعْوَةَ لِأَبِي بَكْرِ عَبْدِ
الْكَرِيمِ الطَّائِعِ بْنِ الْمُطِيعِ الْعَبَّاسِيِّ وَسَيَّرَ إِلَى الْعَرَبِ السَّرَايَا
فَظَهَرَتْ وَعَادَتْ إِلَيْهِ بِعِدَّةٍ مِمَّنْ أَسْرَتُهُ مِنْ رِجَالِ الْعَرَبِ وَقَتْلَهُمْ
صَبْرًا . وَكَانَ تَخَوُّفٌ مِنَ الْمَغِيرِ . فَكَاتَبَ الْقَرَامِطَةَ يَسْتَدْعِيهِمْ مِنْ
الْأَحْسَاءِ لِلْقُدُومِ عَلَيْهِ لِمُحَارَبَةِ عَسَاكِرِ الْمَغِيرِ وَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى
وَأَفُوا دِمَشْقَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَزَلُّوا عَلَى ظَاهِرِهَا وَمَعَهُمْ
كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ هَفَّتَكِينَ كَانُوا قَدْ تَشَتَّتُوا فِي الْبِلَادِ فَقَوِيَ بِهِمْ
وَلَقِيَ الْقَرَامِطَةَ وَحَمَلَ إِلَيْهِمْ وَسَرَّ بِهِمْ . فَأَقَامُوا عَلَى دِمَشْقَ أَيَّامًا
ثُمَّ رَحَلُوا نَحْوَ الرَّمْلَةِ وَبِهَا أَبُو مُحَمَّدٍ فَلَحِقَ بِأَقَا وَزَلَّ الْقَرَامِطَةُ الرَّمْلَةَ

وَنَصَبُوا الْقِتَالَ عَلَى يَافَا حَتَّى كَلَّ الْقَرِيقَانِ وَسَسِمُوا جَمِيعًا مِنْ طُولِ
الْحَرْبِ وَسَارَ هَفْتَكَيْنِ عَلَى السَّاحِلِ وَزَلَّ صَيْدًا وَبِهَا ظَالِمٌ مِنْ
مَرْهُوبِ الْعَقْلِيِّ وَأَبْنُ الشَّيْخِ مِنْ قَبْلِ الْمِيزِ، فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا
أَنْهَزَمَ مِنْهُ ظَالِمٌ إِلَى صُورَ وَقُتِلَ بَيْنَ الْقَرِيقَيْنِ ثَمَوُ أَرْبَعَةِ آلَافٍ
رَجُلٍ . فَتَقَطَّ أَيْدِي الْقَتْلَى مِنْ عَسَاكِرِ الْمِيزِ وَسِيرَهَا إِلَى دِمَشَقَ
فَطِيفَ بِهَا . ثُمَّ سَارَ عَنْ صَيْدَا يُرِيدُ عَكَّا وَبِهَا عَسْكَرُ الْمِيزِ
وَكَانَ قَدْ مَاتَ الْمِيزُ فِي رَجَبِ الْآخِرِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ
الْعَزِيزُ بِاللَّهِ وَسِيرَ جَوْهَرًا الْقَائِدَ فِي عَسْكَرٍ عَظِيمٍ إِلَى قِتَالِ هَفْتَكَيْنِ
وَالْقَرَامِطَةِ . فَبَلَغَ ذَلِكَ الْقَرَامِطَةَ وَهُمْ عَلَى الرَّمْلَةِ وَوَصَلَ الْخَبَرُ
بِمَسِيرِهِ إِلَى هَفْتَكَيْنِ وَهُوَ عَلَى عَكَّا فَخَافَ الْقَرَامِطَةُ وَفَرُّوا عَنْهَا
فَتَزَلَّهَا جَوْهَرٌ وَسَارَ مِنَ الْقَرَامِطَةِ إِلَى الْأَحْسَاءِ الَّتِي هِيَ بِإِلَادِهِمْ
جَمَاعَةٌ وَتَأَخَّرَ عِدَّةٌ . وَسَارَ هَفْتَكَيْنِ مِنْ عَكَّا إِلَى طَبْرِيقَةٍ وَقَدْ
عَلِمَ بِمَسِيرِ الْقَرَامِطَةِ وَتَأَخَّرَ بَعْضُهُمْ فَأَجْتَمَعَ بِهِمْ فِي طَبْرِيقَةٍ وَأَسْتَعَدَّ
لِلْقَاءِ جَوْهَرٍ وَجَمَعَ الْأَقْوَاتَ مِنْ بِلَادِ حَوْرَانَ وَالْبُشَيْيَةِ وَأَدْخَلَهَا
إِلَى دِمَشَقَ وَسَارَ إِلَيْهَا فَتَحَصَّنَ بِهَا . وَزَلَّ جَوْهَرٌ عَلَى ظَاهِرِ دِمَشَقَ
لِثَمَانِ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ وَبَنَى عَلَى مَسْكِنِهِ سُورًا وَحَفَرَ خَنْدَقًا
عَظِيمًا وَجَعَلَ لَهُ أَبْوَابًا وَجَمَعَ هَفْتَكَيْنِ النَّاسَ لِلْقِتَالِ . وَكَانَ قَدْ تَعَيَّنَ
بَعْدَ ابْنِ الْمَاورِدِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِسَامِ الشَّرَابِ وَصَارَ فِي عِدَّةٍ وَافِرَةٍ
مِنَ الدُّعَارِ فَأَعَانَهُ هَفْتَكَيْنِ وَقَوَاهُ وَأَمَدَّهُ بِالسَّلَاحِ وَغَيْرِهِ .

وَوَقَّعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جَوْهَرٍ حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ طَوِيلَةٌ إِلَى يَوْمِ الْحَادِي
عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِينَ
فَأَخْتَلَّ أَمْرُ هَفَّتَكِينٍ وَهُمْ بِالْفِرَارِ . ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَظْهَرَ وَوَرَدَتْ
الْأَخْبَارُ بِقُدُومِ الْحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ الْقَرْمَطِيِّ إِلَى دِمَشْقَ وَطَلَبَ جَوْهَرُ
الْصُلَحِ عَلَى أَنْ يَرْحَلَ عَنْ دِمَشْقَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَّبِعَهُ أَحَدٌ . وَذَلِكَ
أَنَّهُ رَأَى أَمْوَالَهُ قَدْ قَلَّتْ وَهَلَكَ كَثِيرٌ مِمَّا كَانَ فِي عَسْكَرِهِ حَتَّى
صَارَ أَكْثَرُ عَسْكَرِهِ رَجَالَةً وَأَعْوَزَهُمُ أَلْفٌ وَخَشِيَ قُدُومَ الْقَرَامِطَةِ .
فَأَجَابَهُ هَفَّتَكِينٌ وَقَدْ عَظُمَ فَرَحُهُ وَأَشْتَدَّ سُرُورُهُ . فَرَحَلَ فِي
ثَالِثِ جُمَادَى الْأُولَى وَجَدَّ فِي السَّيْرِ وَقَدْ قَرَّبَ الْقَرْمَطِيُّ فَأَنَاحَ
بِطَبْرِيَّةَ . فَبَلَغَ ذَلِكَ الْقَرْمَطِيُّ فَحَصَدَهُ وَقَدْ سَارَ عَنْهَا إِلَى الرَّمْلَةِ .
فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِسَرِيَّةٍ كَانَتْ لَهَا مَعَ جَوْهَرٍ وَقَعَةٌ قُتِلَ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنْ
الْعَرَبِ وَأَذْرَكَهُ الْقَرْمَطِيُّ وَسَارَ فِي أَثَرِهِ هَفَّتَكِينٌ . فَمَاتَ الْحَسَنُ
بْنُ أَحْمَدَ الْقَرْمَطِيُّ بِالرَّمْلَةِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْقَرَامِطَةِ ابْنُ عَمِّهِ
جَعْفَرٌ . فَفَسَدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَفَّتَكِينٍ وَرَجَعَ عَنِ الرَّمْلَةِ إِلَى الْأَحْسَاءِ
وَنَاصَبَ هَفَّتَكِينُ الْقِتَالَ وَالْحُحُوفَ فِيهِ عَلَى جَوْهَرٍ حَتَّى انْهَزَمَ مِنْهُ
وَصَارَ إِلَى عَسْقَلَانَ . وَقَدْ غَنِمَ هَفَّتَكِينٌ مِمَّا كَانَ مَعَهُ شَيْئًا يَجِلُّ
عَنِ الْوَصْفِ وَنَزَلَ عَلَى الْبَلَدِ مُحَاصِرًا لَهُ . وَبَلَغَ ذَلِكَ الْغَزِيذَ فَاسْتَعَدَّ
لِلدَّسِيرِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ .
فَلَمَّا طَالَ الْأَمْرُ عَلَى جَوْهَرٍ رَاسَلَ هَفَّتَكِينَ حَتَّى تَقَرَّرَ الصُّلَحُ

عَلَى مَالٍ يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ وَأَنْ يُخْرِجَ مِنْ تَحْتِ سَيْفِ هَفْتَكِينٍ . فَمَلَقَ
 سَيْفَهُ عَلَى بَابِ عَسْقلَانَ وَخَرَجَ جَوْهَرٌ وَمِنْ مَعَهُ مِنْ تَحْتِهِ وَسَارُوا إِلَى
 الْقَاهِرَةِ فَوَجَدَ الْعَزِيزُ قَدْ بَرَزَ يُرِيدُ السَّيْرَ فَسَارَ مَعَهُ . وَكَانَ مُدَّةُ
 قِتَالِ هَفْتَكِينٍ لِيُجَاهِدَ عَلَى ظَاهِرِ الرَّمْلَةِ وَفِي عَسْقلَانَ سَبْعَةَ عَشَرَ
 شَهْرًا . وَسَارَ الْعَزِيزُ بِاللَّهِ حَتَّى زَلَّ الرَّمْلَةُ . وَكَانَ هَفْتَكِينٌ بِطَابَرِيَّةَ
 فَسَارَ إِلَى لِقَاءِ الْعَزِيزِ وَمَعَهُ أَبُو إِسْمٰحِقَ وَأَبُو طَاهِرٍ أَخُو عِزِّ الدَّوْلَةِ
 بِمُخْتَارَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ بُوَيْهٍ وَأَبُو كَالِيَجَارَ مَرْزُبَانَ بْنَ عِزِّ الدَّوْلَةِ بِمُخْتَارَ
 بْنِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ وَحَارَبُوهُ . فَلَمْ تَكُنْ غَيْرُ سَاعَةٍ حَتَّى هَزَمَتْ
 عَسَاكِرُ الْعَزِيزِ عَسَاكِرَ هَفْتَكِينٍ وَمَلَكَوهُ فِي يَوْمِ الْحَمِيسِ لِسَبْعِ
 بَقِيْنَ مِنَ الْحَرَمِ سَنَةً ثَمَانٍ وَبِشْتَيْنِ وَثَلَاثِينَ . وَأَسْتَأْمَنَ أَبُو إِسْمٰحِقَ
 وَمَرْزُبَانُ بْنُ مُخْتَارَ وَقُتِلَ أَبُو طَاهِرٍ أَخُو عِزِّ الدَّوْلَةِ بِمُخْتَارَ وَأُخِذَ
 أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ أَسْرَى وَطَلِبَ هَفْتَكِينُ فِي الْقَتْلِ فَلَمْ يَوْجَدْ وَكَانَ
 قَدْ فَرَّ وَقَتَ الْهَزِيمَةِ عَلَى فَرَسٍ يُنْزِدُهُ فَأَخَذَهُ بَعْضُ الْعَرَبِ أَسِيرًا
 وَقَدِمَ بِهِ عَلَى مُفَرِّجِ بْنِ دَنْقَلِ بْنِ الْجَرَّاحِ الطَّائِي وَعِمَامَتُهُ فِي
 عُنُقِهِ . فَبَثَّ بِهِ إِلَى الْعَزِيزِ فَأَمَرَ بِهِ فَشُهِرَ فِي الْعَسْكَرِ وَطِيفَ بِهِ
 فَأَخَذَ النَّاسُ يَلْطِمُونَهُ وَيَهْزُونَ لِحِيَّتَهُ حَتَّى رَأَى فِي نَفْسِهِ الْعَبْرَ
 ثُمَّ سَارَ الْعَزِيزُ بِهَفْتَكِينٍ وَالْأَسْرَى إِلَى الْقَاهِرَةِ فَأَصْطَنَعَهُ وَمِنْ
 مَعَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ وَأَنْزَلَهُ فِي دَارٍ وَوَصَلَهُ بِالْعَطَاءِ
 وَالْخَلْعِ حَتَّى قَالَ : لَقَدْ أَحْتَشَشْتُ مِنْ رُكُوبِي مَعَ مَوْلَانَا الْعَزِيزِ بِاللَّهِ

وَنَظَرِي إِلَيْهِ بِمَا غَمَّرَنِي بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ: فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْعَزِيزُ
 قَالَ لِعَمِّهِ حَيْدَرَةَ: يَا عَمِّ وَاللَّهِ إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَرَى النِّعَمَ عَلَى النَّاسِ
 ظَاهِرَةً وَأَرَى عَلَيْهِمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَالْجَوْهَرَ وَلَهُمُ الْخَيْلُ وَاللِّبَاسُ
 وَالضِّيَاعُ وَالْعَقَارُ وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ عِنْدِي: وَبَلَغَ الْعَزِيزُ أَنَّ
 النَّاسَ مِنَ الْعَامَّةِ يَقُولُونَ مَا هَذَا التُّرْكِيُّ قَامَ بِهِ وَشَهِرَ فِي أَجْلِ
 حَالٍ. وَلَمَّا رَجَعَ مِنْ تَطَوُّفِهِ وَهَبَ لَهُ مَالًا جَزِيلًا وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ
 سَائِرَ الْأَوْلِيَاءِ أَنْ يَدْعُوهُ إِلَى دُورِهِمْ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ عَمِلَ لَهُ
 دَعْوَةٌ وَقَدِمَ إِلَيْهِ وَقَادَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْخَيُْولَ. ثُمَّ إِنَّ الْعَزِيزَ قَالَ لَهُ
 بَعْدَ ذَلِكَ: كَيْفَ رَأَيْتَ دَعْوَةَ أَصْحَابِنَا. فَقَالَ: يَا مَوْلَانَا حَسَنَةٌ فِي
 الْغَايَةِ وَمَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ أَنْعَمَ وَآكْرَمَ: فَصَارَ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ وَالْتَّفَرُّجِ
 وَجَمَعَ إِلَيْهِ الْعَزِيزُ بِاللَّهِ أَصْحَابَهُ مِنَ الْأَتْرَاكِ وَالْدَّيْلَمِ وَأَسْتَجَبَهُ
 وَاخْتَصَّ بِهِ. وَمَا زَالَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ تُوُفِيَ سَنَةٌ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ
 وَثَلَاثِينَ فَاتَّهَمَ الْعَزِيزُ وَزِيرَهُ يَعْقُوبَ بْنَ كِلَسٍ أَنَّهُ سَمَّاهُ لِأَنَّ
 هَتَمَكَيْنِ كَانَ يَرْفَعُ عَلَيْهِ فَأَعْتَقَلَهُ مُدَّةً ثُمَّ أَخْرَجَهُ

حَارَةً الْأَتْرَاكِ. هَذِهِ الْحَارَةُ تُجَاهَ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ وَتُعْرَفُ الْيَوْمَ
 بِدَرْبِ الْأَتْرَاكِ. وَكَانَ نَافِذًا إِلَى حَارَةِ الدَّيْلَمِ وَالْوَرَّاقُونَ الْقَدَمَاءُ
 تَارَةً يُهْرِدُونَهَا مِنَ الدَّيْلَمِ وَتَارَةً يُضِيفُونَهَا إِلَيْهَا وَيَجْعَلُونَهَا مِنْ حُقُوقِهَا
 فَيَقُولُونَ حَارَةَ الدَّيْلَمِ وَالْأَتْرَاكِ. وَتَارَةً يَقُولُونَ حَارَتِي الدَّيْلَمِ
 وَالْأَتْرَاكِ. وَقِيلَ لَهَا حَارَةُ الْأَتْرَاكِ لِأَنَّ هَتَمَكَيْنِ لَمَّا غَلَبَ بَيْغَدَادَ

سَارَ مَعَهُ مِنْ جَنْسِهِ أَرْبَعُمِائَةٍ مِنَ الْأَتْرَاكِ وَتَبَلَّحَقَ بِهِ عِنْدَ وُرُودِ
 الْقَرَامِطَةِ عَلَيْهِ بِدِمَشْقَ عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا جَمَعَ لِحَرْبِ الْعَزِيدِ
 بِاللَّهِ كَانَ أَصْحَابُهُ مَا بَيْنَ ثَرْكَ وَدَيْلَمَ . فَلَمَّا قَبِضَ عَلَيْهِ الْعَزِيدُ
 وَدَخَلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ بِهِ فِي الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ
 سَنَةِ ثَمَانٍ وَبِسْتَيْنَ وَثَلَاثِمِائَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ نَزَلَ الدَّيْلَمُ مَعَ أَصْحَابِهِمْ فِي
 مَوْضِعِ حَارَةِ الدَّيْلَمِ وَنَزَلَ هَفْتَبَكِينُ بِأَتْرَاكِهِ فِي هَذَا الْمَكَانِ .
 فَصَارَ يُعْرَفُ بِحَارَةِ الْأَتْرَاكِ وَكَانَتْ مُخْتَلِطَةً بِحَارَةِ الدَّيْلَمِ لِأَنَّهُمَا
 أَهْلُ دَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَّا أَنَّ كُلَّ جَنْسٍ عَلَى حِدَةٍ لِيَتَخَالَفِيهَا فِي الْجَنَسِيَّةِ
 ثُمَّ قِيلَ بِبَدَ ذَلِكَ دَرْبُ الْأَتْرَاكِ

كُنْتُ مَرَّةً جَالِسًا فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ وَأَنَا أُنْسَخُ وَهُنَاكَ مَرْتَبَةٌ بِرَسْمِ
 الْخَلِيفَةِ إِذَا جَاءَ إِلَى هُنَاكَ جَلَسَ عَلَيْهَا وَقَدْ بَسِطَتْ عَلَيْهَا مِلْحَفَةٌ
 لِرُدِّ عَنْهَا الْغُبَارَ . فَجَاءَ خُوَيْدِيمٌ صَغِيرٌ وَنَامَ قَرِيبًا مِنَ الْمَرْتَبَةِ الْمَذْكُورَةِ
 وَأَسْتَفَرَّقَ فِي النَّوْمِ فَتَقَلَّبَ حَتَّى تَلَفَّ فِي تِلْكَ الْمِلْحَفَةِ الْمَبْسُوطَةِ
 عَلَى الْمَرْتَبَةِ ثُمَّ تَقَلَّبَ حَتَّى صَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى الْمِسْنَدِ . قَالَ وَأَنَا
 مَشْغُولٌ بِالنَّسَخِ فَأَحْسَسْتُ بَوَطْءٍ فِي الدَّهْلِيزِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ الْخَلِيفَةُ
 وَهُوَ يَسْتَدْعِينِي بِالْإِشَارَةِ وَيُخَفِّفُ وَطْأَهُ . فَقُمْتُ إِلَيْهِ مُنْزَعَجًا وَقَبِلْتُ
 الْأَرْضَ فَقَالَ لِي : هَذَا الْخُوَيْدِيمُ الَّذِي قَدْ نَامَ حَتَّى تَلَفَّ فِي هَذِهِ

مُخْتَصَرٌ

مِنْ سِيرَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ (١)
لِبَهَاءِ الدِّينِ الشَّدَادِيِّ.

ذِكْرُ مَسِيرِ الْإِفْرَنْجِ الصَّلِيبِيِّينَ مِنْ عَكَّا إِلَى عَسْقَلَانَ وَأَتَقَالِيمَ
إِلَى طَرَفِ الْبَحْرِ مِنْ جَانِبِ الْغَرْبِ

وَلَمَّا كَانَ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ
وخمسمائة . رَكِبَ الْإِفْرَنْجُ بِأَسْرِهِمْ . وَقَلَعُوا خِيَامَهُمْ . وَحَمَلُوهَا
عَلَى دَوَابِّهِمْ . وَسَارُوا حَتَّى قَطَعُوا النَّهْرَ إِلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ .
وَضَرَبُوا الْخِيَامَ عَلَى طَرِيقِ عَسْقَلَانَ . وَأَظْهَرُوا الْعَزْمَ عَلَى الْمَسِيرِ
عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ . وَأَمَرَ الْأَنْكَتَارُ (يُرِيدُ بِهِ رِيكَرْدُوسَ مَلِكِ

(١) اما صلاح الدين فهو اول ملوك الايوبيين في مصر ولد في تكريت ما بين
الهرين وكان ولدا لايوب الكردي . فاشتهر منذ شبته بمحاربة المسيحيين فذهب الى مصر
حيث تقيد بخدمة نور الدين في سنة ١١٦٤ فاصبح وزيراً لآخر الفاطميين . وبعد
وفاة نور الدين انتهر فرصة حداثة ولده صلاح اسماعيل . فاقام نفسه وصياً عليه واستولى
على سورية في سنة ١١٧٥ . ثم استقل في مصر والحق بملكه جانباً عظيماً من بين الهرين .
فحاربه المسيحيون فاستظهروا عليه في رملة (١١٧٨) لكنه استظهر في باناس وطبرية على
قوي دي لوزينيان ملك القدس واستأسره (١١٧٨) وفيها استولى على القدس وقبض
على زمام مملكتها فكان سقوط مملكة القدس سبباً لحرب الصليبيين الثالثة . فاضطر
صلاح الدين أن يقاسي مشقات عظيمة أولاً فاخذت منه عكا وقيصرية ويافا . لكنه
فهرأ عن بسالة المسيحيين لإسماعيل ريكردوس قلب الاسد ظفر وساد . وتوفي سنة ١١٩٣ وله
اخ يدعى مالك طادل و١٧ ولداً تقاسموا ملكه . فحاز صلاح الدين الاعتبار حتى لدى
المسيحيين ايضاً لحسن سياسته ونشاطه وكرمه وشجاعته (بولي)

الأنكيز) باقي الناس أن يدخلوا إلى البلد . وكانوا قد سدوا
ثغره وثلمه . وأصلحوا ما استهدم منه . وكان مقدم العسكر الخارج
السائر الأنكتار . وجمع عظيم من الرجال والخيالة . ولما كان
مستهل شعبان اشتعلت نيران العدو في سحرة ذلك اليوم .
وعادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم . وأخبر اليزك
بحركتهم فأمر السلطان بالتقبل أن يرفع حتى يبقى الناس على
ظهر . ففعل الناس ذلك . وهلك من الناس قماش كثير . وحوائج
كثيرة من السوق لم يكن معهم خيل ولا ظهر فيحصل جميع ما
عندهم . لأن كل إنسان كان يحصل ما يحتاج إليه في أشهره .
وكل واحد من السوق عنده ما ينفذ من منزل إلى منزل في مرار
متعددة . لكن هذا المنزل لم يكن أن يتخلف فيه أحد لهربه من
الإفرنج الذين بعكا والخوف منهم .

ولما أن علا النهار . شرع العدو في السير على جانب البحر .
وتفرقوا قطعاً كثيرة . كل قطعة تحمي عن نفسها . وقوى السلطان
(أي صلاح الدين) اليزك . وأنفذ معظم العساكر قبالتهم . فمضوا
وقاتلهم قتالاً شديداً . وأنفذ ولده الملك الأفضل يخبر أنه قطع
طائفة منهم عن الموافقة . ولقد لذبهم بالقتال . ولو قوينا لأخذناهم .
فسير السلطان خلقاً عظيماً من العسكر . وسار هو بنفسه وأنا
بخدمته . حتى أتى أوائل الرمل . فلقينا الملك العادل أخوه . إن

تِلْكَ الطَّائِفَةُ قَدْ اُلْتُجِتْ بِالطَّائِفَةِ الْأُولَى . وَمُعْظَمُ الْقَوْمِ قَدْ عَبَرُوا
نَهْرَ حَيْفًا وَقَدْ تَزَلُّوا . وَالْبَاقُونَ قَدْ لَحِقُوا بِهِمْ . وَلَيْسَ لِلْمَسِيرِ
وَرَاءَهُمْ حَاصِلٌ إِلَّا اِتِّعَابُ الْعَسْكَرِ وَصَيَاحُ النُّشَابِ لَا غَيْرُ
فَتَرَا جَعَ السُّلْطَانُ عَنِ الْقَوْمِ لَمَّا تَحَقَّقَ ذَلِكَ وَأَمَرَ طَائِفَةً مِنْ
الْعَسْكَرِ أَنْ تَسِيرَ وَرَاءَ الثَّقَلِ يَلْحَقُ ضَعِيفُهُمْ بِقَوِيَّتِهِمْ . وَيَكْفُ
عَنْهُمْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِنَ الْعَدُوِّ وَالطَّاعَةِ وَسَارَ هُوَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى
الْقَيْمُونِ عَصَرَ ذَلِكَ النَّهَارِ فَتَزَلَّ وَضُرِبَ لَهُ الدَّهَائِزُ وَشَقَّةٌ دَائِرَةٌ
حَوْلَهُ لَا غَيْرُ . وَاسْتَحْضَرَ الْجَمَاعَةَ وَآكَلُوا شَيْئًا وَاسْتَشَارَهُمْ فِي
مَا يَفْعَلُ

الْمَنْزِلُ الثَّانِي : اتَّفَقَ رَأْيُ جَمَاعَةٍ عَلَى أَنَّهُمْ يَزْحَلُونَ بِكُرَّةٍ غَدٍ .
هَذَا وَقَدْ رَتَّبَ حَوْلَ الْإِفْرَنْجِ يَزْكَاءُ يَبْكُونُ حَوْلَهُ وَيَرْقُبُونَ أَمْرَهُ .
وَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ ثَانِي شُعْبَانَ رَحَلَ السُّلْطَانُ الثَّقَلُ وَأَقَامَ هُوَ يَتَرَصَّدُ
أَخْبَارَ الْعَدُوِّ فَلَمْ يَصِلْ مِنْهُمْ شَيْءٌ إِلَى أَنْ عَلَا النَّهَارُ . فَسَارَ فِي أَثَرِ
الثَّقَلِ حَتَّى أَتَى قَرْيَةً يُقَالُ لَهَا قَرْيَةُ الصَّبَاغِينَ . فَجَلَسَ يَتَرَقَّبُ أَخْبَارَ
الْعَدُوِّ وَكَانَ قَدْ خَلَفَ جُرْدِيكَ قَرِيبَ الْعَدُوِّ فَلَمْ يَصِلْهُ خَبَرٌ أَصْلًا .
فَسَارَ حَتَّى أَتَى الثَّقَلُ فِي مَنْزِلَةٍ يُقَالُ لَهَا عُيُونُ الْأَسَاوِدِ وَلَمَّا بَلَغْنَا
الْمَنْزِلَةَ رَأَى خِيَامًا فَسَأَلَ عَنْهَا فَقِيلَ إِنَّهَا خِيَمَةُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ . فَعَدَلَ
لِيَنْزِلَ عِنْدَهُ فَأَقَامَ عِنْدَهُ سَاعَةً . ثُمَّ أَتَى خِيَمَتَهُ . وَقَدْ اخْبَرُ فِي هَذِهِ
الْمَنْزِلَةِ بِالْكُلِّيَّةِ وَغَلَا الشَّعِيرُ حَتَّى بَلَغَ دِرْهَمًا وَبَلَغَ الْبَقْسِمَاطُ الرُّطْلُ

دِرْهَمَيْنِ . ثُمَّ أَقَامَ السُّلْطَانُ حَتَّى عَبَرَ وَقْتُ الظُّهْرِ . وَرَكِبَ وَسَارَ إِلَى
مَوْضِعٍ يُسَمَّى الْمَلَّاحَةَ تَكُونُ مَنْزِلًا لِلْعَدُوِّ إِذَا رَحَلَ مِنْ حَيْفَا . وَكَانَ
قَدْ سَبَقَ لِيَتَفَقَّدَ الْمَكَانَ هَلْ يَصْلُحُ لِلْمَصَافِ أَمْ لَا . وَتَتَفَقَّدَ أَرَاضِي
قِسَارِيَّةَ بِأَسْرِهَا إِلَى الشَّعْرَاءِ . وَعَادَ إِلَى الْمَنْزِلِ بَعْدَ دُخُولِ وَقْتِ
الْعِشَاءِ الْآخِرِ . وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ التَّعَبُ . وَسَأَلَتْهُ عَمَّا بَلَغَهُ مِنْ خَبَرِ
الْعَدُوِّ فَقَالَ : وَصَلَ إِلَيْنَا مَنْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ مَا رَحَلَ مِنْ حَيْفَا إِلَى عَصْرِ
يَوْمِنَا هَذَا يَعْنِي ثَانِي شَعْبَانَ وَهَذَا نَحْنُ مُقِيمُونَ مُرْتَقِبُونَ أَخْبَارَهُمْ
وَيَكُونُ الْعَمَلُ بِمُتَتَابِعَاتِهَا . وَبَاتَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا بِتَلِّ
الزَّلْزَلَةِ يَنْتَظِرُ الْعَدُوَّ وَنَادَى الْجَاوِشُ بِالْعَسْكَرِ لِلْعَرْضِ . فَكَرِبَ
النَّاسُ عَلَى تَرْتِيبِ الْمَصَافِ وَأَهْبَتِهِ . وَلَمَّا عَلَا النَّهَارُ نَزَلَ السُّلْطَانُ
فِي خِيَمَتِهِ وَأَخَذَ نَصِيبًا مِنَ الرَّاحَةِ بَعْدَ الْغَدَاءِ وَمَثُولِ جَمَاعَةٍ مِنَ
الْأُمَرَاءِ إِلَى خِدْمَتِهِ وَأَخَذَ رَأْيَهُمْ فِي مَا يَصْنَعُونَ . ثُمَّ صَلَّى الظُّهْرَ
وَجَلَسَ يُطْلِقُ أَثْمَانَ الْحَيُولِ الْمَجْرُوحَةِ وَغَيْرِهَا إِلَى الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ
مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ إِلَى مِئَةِ وَخَمْسِينَ دِينَارًا وَزَائِدًا وَنَاقِصًا . فَمَا رَأَيْتُ
أَفْسَحَ صَدْرًا مِنْهُ وَلَا أَبْسَطَ وَجْهًا فِي الْعَطَاءِ وَاتَّفَقَ الرَّأْيُ عَلَى
رَحِيلِ الثَّقَلِ فِي عَصْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى مَجْدَلٍ يَافَا

الْمَنْزِلُ الثَّلَاثُ : وَأَقَامَ هُوَ وَجَرِيدَةٌ بِالْمَنْزِلِ إِلَى الصَّبَاحِ رَابِعِ
الشَّهْرِ . وَرَكِبَ وَسَارَ فِي رَأْسِ النَّهْرِ الْجَارِي إِلَى قِسَارِيَّةَ وَنَزَلَ
هُنَاكَ . وَبَلَغَ الْبَقْسِمَاطُ الرُّطْلُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ . وَالشَّعِيرُ الرَّبْعُ دِرْهَمَيْنِ

وَنُصِفَ . وَالتَّخْبِرُ لَمْ يُوجَدْ أَصْلًا . وَنَزَلَ فِي خِيَمَةٍ وَأَكَلَ خُبْزًا وَصَلَّى
الظُّهْرَ . وَرَكِبَ إِلَى طَرِيقِ الْعَدُوِّ لِتَجْدِيدِ إِرْشَادِهِ فِي ضَرْبِ
الْمَصَافِ . وَلَمْ يَبْذُ إِلَى أَنْ دَخَلَ وَقْتُ الْعَصْرِ فَجَلَسَ سَاعَةً وَأَخَذَ
جُزْءًا مِنَ الرَّاحَةِ . ثُمَّ عَادَ وَرَكِبَ وَأَمَرَ النَّاسَ بِالرَّحِيلِ وَرَمَى خِيَمَتَهُ
وَرَمَى النَّاسُ خِيَامَهُمْ فِي أَوَاخِرِ النَّهَارِ

الْمَنْزِلُ الرَّابِعُ : وَكَانَ الرَّحِيلُ إِلَى رَايِيَةِ مُآخِرَةٍ مِنْ تِلْكَ
الرَّايِيَةِ . وَفِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ أَتَى بِأَتَشِينَ مِنَ الْإِفْرِجِ قَدْ تَخَطَّفَهُمُ
الْيَزْكُ . فَأَمَرَ بِضَرْبِ رِقَابِهِمَا قَتْلًا . وَتَكَثَّرَ النَّاسُ عَلَيْهِمَا بِالسُّيُوفِ
تَشْفِيًا . ثُمَّ بَاتَ هُنَاكَ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا بِالْمَنْزِلَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ عَنْ الْعَدُوِّ
رَحِيلٌ وَأَنْفَذَ إِلَى الثَّقَلِ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِمَّا طَرَأَ عَلَى
النَّاسِ مِنَ الضِّيقِ فِي الْمَأْكَلِ وَالْقَضْمِ . وَرَكِبَ فِي وَقْتِ عَادَتِهِ
إِلَى جِهَةِ الْعَدُوِّ . وَأَشْرَفَ عَلَى قَيْسَارِيَّةٍ . وَعَادَ إِلَى الثَّقَلِ قَرِيبَ
الظُّهْرِ وَقَدْ وَصَلَ الْخَبَرُ أَنَّ الْعَدُوَّ لَمْ يَزَحِلْ بَعْدُ مِنَ الْمَلَاخَةِ .
وَأَحْضَرَ عِنْدَهُ اثْنَانِ أَيْضًا قَدْ أَخَذَا مِنْ أَطْرَافِ الْعَدُوِّ وَقَتْلًا شَرًّا
قِتْلَةً . وَكَانَ فِي حِدَّةِ الضِّيقَةِ لَمَّا جَرَى عَلَى أَسْرَى عَكَّا . ثُمَّ أَخَذَ
جُزْءًا مِنَ الرَّاحَةِ وَجَلَسَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ . وَحَضَرَتْ عِنْدَهُ وَقَدْ
أَحْضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْعَدُوِّ فَارِسٌ مَذْكُورٌ هَيْئَتُهُ تُخْبِرُ عَنْ أَنَّهُ
مُتَقَدِّمٌ فِيهِمْ . فَأَحْضَرَ تَرْجَمَانٌ وَبَحَثَ عَنْ أَحْوَالِ الْقَوْمِ وَسَأَلَهُ كَيْفَ
يُسَوَّى الطَّعَامُ عِنْدَكُمْ فَقَالَ : أَوَّلَ يَوْمٍ رَحَانًا مِنْ عَكَّا كَانَ الْإِنْسَانُ

يَشْبَعُ بِسِتَّةِ قَرَّاطِيسَ فَلَمْ يَزَلِ السِّعْرُ يَنْلُو حَتَّى صَارَ يَشْبَعُ بِثَمَانِيَةِ
 قَرَّاطِيسَ . وَسَأَلَ عَنْ سَبَبِ تَأْخِيرِهِمْ فِي الْمُنَازِلِ فَقَالَ : لِأَنْتِظَارِ
 وَصُولِ الْمَرَآكِبِ بِالرِّجَالِ وَالْمِيرَةِ . فَسَأَلَ عَنْ الْقَتْلِ وَالْجُرْحَى فِي
 يَوْمِ رَحِيهِمْ فَقَالَ : كَثِيرٌ . فَسَأَلَ عَنْ الْحَيْلِ الَّتِي هَلَكَتْ فِي ذَلِكَ
 الْيَوْمِ فَقَالَ : مِقْدَارُ أَرْبَعِمِائَةِ فَرَسٍ . فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ . وَنَهَى عَنْ
 التَّمَثُّلِ بِهِ . فَسَأَلَ التَّرْجَمَانُ عَمَّا قَالَ السُّلْطَانُ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ .
 فَتَغَيَّرَ تَغَيَّرًا عَظِيمًا وَقَالَ : أَنَا أَخْلَصْتُ لَكُمْ أَسِيرًا مِنْ عِوَا . فَقَالَ رَحِمَهُ
 اللَّهُ بَلْ أَمِيرًا . فَقَالَ : لَا أَقْدِرُ عَلَى خَلَاصِ أَمِيرٍ . فَشَفَعَ الطَّمَعُ فِيهِ
 وَحَسَنُ خِلْقَتِهِ . فَإِنِّي مَا رَأَيْتُ أُمَّةً خِلْقَةً مِنْهُمُ مَعَ تَرْفٍ فِي الْأَطْرَافِ
 وَرَفَاهِيَةٍ . فَأَمَرَ أَنْ يُتْرِكَ الْآنَ وَيُؤَخَّرَ أَمْرُهُ . فَصَدَقَهُ وَعَاتَبَهُ عَلَى مَا
 بَدَأَ مِنْهُمْ مِنَ الْعَذْرِ وَقَتْلِ الْأَسْرَى . فَأَعْتَرَفَ بِأَنَّهُ قَبِيحٌ وَأَنَّهُ لَمْ
 يُجْرَ إِلَّا بِرِضَى الْمَلِكِ وَحْدَهُ . وَرَكِبَ السُّلْطَانُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ
 عَلَى عَادَتِهِ . وَبَعْدَ أَنْ نَزَلَ أَمَرَ بِقَتْلِ الْفَارِسِ الْمَذْكُورِ . وَأَتَى بَعْدَهُ
 بِأَتَيْنٍ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا . وَبَاتَ فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ وَذُكِرَ لَهُ فِي السَّحَرِ
 أَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ تَحَرَّكَ نَحْوَ قِيسَارِيَّةَ . وَقَارِبَ أَوَائِلِهِمُ الْبَلَدَ . فَرَأَى أَنْ
 يَتَأَخَّرَ مِنْ طَرِيقِ الْعَدُوِّ مَنْزِلًا آخَرَ

الْمَنْزِلُ الْخَامِسُ : فَرَحَلَ وَرَحَلَ النَّاسُ إِلَى قَرِيبِ التَّلِّ الَّذِي كُنَّا
 عَلَيْهِ فَتَزَلَ النَّاسُ وَضُرِبَتِ الْحِيَامُ . وَمَضَى هُوَ يَتَأَدُّ الْأَرَاضِي
 الْكَائِنَةَ فِي طَرِيقِ الْعَدُوِّ لِيَنْظُرَ أَيُّهَا أَصْلَحُ لِلْمَصَافِ وَنَزَلَ قَرِيبَ

الظهر . وأستدعى أخاه الملك العادل . وعلم الدين سليمان . وأخذ رأيهما في ما يصنع . وأخذ جزءا من الراحة وأذن الظهر . فصلى وركب ليشرق وليكشف عن العدو ويتسم أخباره . وأتاه اثنان من الإفرنج قد نهبا وأمر بقتلها قتيلا . ثم أتى باثنين آخرين قتيلا أيضا . وجيء أواخر النهار باثنين قتيلا أيضا . وعاد من الزكوب وصلى صلاة المغرب . وجلس على عادته وأستدعى أخاه وصرف الناس . وخلا به إلى هوي من الليل . ثم بات وأصبح ونادى الجاويش لعرض الحلقة لا غير . وركب إلى جهة العدو ووقف على تلٍ مشرق على قيسارية . وكان العدو قد وصل إليها نهار الجمعة سادس شعبان . ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار . ثم نزل وأكل الطعام . وركب إلى أخيه وعاد بعد صلاة الظهر . وأخذ جزءا من الراحة . وأتى بأربعة عشر من الإفرنج وأمرأة إفرنجية بينهم أسيرة . وهي بنت الفارس المذكور . ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فاطمت المسلمة . ورفع الباقون إلى الزردخانه وهؤلاء أتى بهم من بيروت أخذوا في ركاب من جملة عدة كثيرة قتلوا . كل ذلك في نهار السبت سابع الشهر . وهو في المنزلة ينتظر رحيل العدو . مجعاً على لقائه إذا رحل المنزل السادس : ولما كان صيحة الثامن ركب السلطان على عادته ثم نزل . ووصل من أخيه أن العدو على حركة . وكانت

الْأَطْلَابُ قَدْ بَاتَ حَوْلَ قَيْسَارِيَّةَ فِي مَوَاضِعِهِمَا . فَأَمَرَ بِمَدِّ الطَّعَامِ .
 وَأَطْعَمَ النَّاسَ فَوَصَلَ ثَانٍ وَأَخْبَرَ : أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ سَارُوا . فَأَمَرَ بِالْكُوسِ
 فَدُقَ وَرَكِبَ وَرَكِبَ النَّاسُ وَسَارَ وَسِيرْتُ فِي خِدْمَتِهِ حَتَّى أَتَى
 عَسْكَرَ الْعَدُوِّ وَصَفَّ الْأَطْلَابُ حَوْلَهُ وَأَمَرَهُمْ بِقِتَالِهِمْ وَأَخْرَجَ
 الْجُلَايِشَ . فَكَانَ النُّشَابُ بَيْنَهُمْ كَالْمَطَرِ وَكَانَ عَسْكَرُ الْعَدُوِّ قَدْ وَثَبَ .
 فَكَانَتِ الرِّجَالُ حَوْلَهُ كَالسُّودِ وَعَلَيْهِمُ اللَّبُودُ الْثَخِينَةُ وَالزَّرْدِيَّاتُ
 السَّابِغَةُ الْعَمَكَةُ بِحَيْثُ يَهْبِطُ فِيهِمُ النُّشَابُ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ وَهُمْ يَرْمُونَ
 بِالزَّرَنِيبِ فَيَجْرَحُ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ وَخِيَالَتِهِمْ . وَلَقَدْ شَاهَدْتُهُمْ وَتَغَرَّرُ
 فِي ظَهْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ الْوَاحِدُ وَالْعَشْرَةُ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى هَيْئَةٍ مِنْ
 غَيْرِ أَرْعَاجٍ . وَثُمَّ قَسَمَ آخَرُ مِنَ الرِّجَالِ مُسْتَرِيحٌ يَمْشُونَ عَلَى جَانِبِ
 الْبَحْرِ وَلَا قِتَالَ عَلَيْهِمْ . فَإِذَا تَبَّ هَوْلَاءُ الْمُقَاتِلُونَ أَوْ انْتَحَنَهُمُ الْجِرَاحُ
 قَامَ مَقَامَهُمُ الْمُسْتَرِيحُ وَأَسْتَرَاحَ الْقِسْمُ الْعَمَّالُ . هَذَا وَالْحَيَالَةُ فِي
 وَسْطِهِمْ لَا يَخْرُجُونَ عَنِ الرِّجَالَةِ إِلَّا فِي وَقْتِ الْحِمْلَةِ لَا غَيْرُ . وَقَدْ
 انْقَسَمُوا أَيْضًا ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ الْمَلِكُ الْعَتِيقُ جُفَرَى
 وَجَمَاعَةُ السَّاحِلِيَّةِ مَعَهُ فِي الْمَقْدَمَةِ وَالْأَنْكَتَارُ وَالْقُرْنَيْسُ مَعَهُ فِي
 الْوَسْطِ وَأَوْلَادُ إِلَيْسَتِ أَصْحَابُ طَبْرِيَّةَ وَطَارِئَةُ أُخْرَى فِي السَّاقَةِ .
 وَفِي وَسْطِ الْقَوْمِ بُرْجٌ عَلَى عِمْلَةٍ وَعَلَيْهِ كَالْمَنَارَةِ الْعَظِيمَةِ . هَذَا
 تَرْتِيبُ الْقَوْمِ عَلَى مَا شَاهَدْتُهُ . وَأَخْبَرَ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَسْرَى
 وَالْمُسْتَأْمِنِينَ . وَسَارُوا عَلَى الْمِثَالِ وَسُوقُ الْحَرْبِ قَائِمَةٌ وَالْمُسْلِمُونَ

يُرْمُونَهُمْ بِالْأَشَابِ مِنْ جَوَانِبِهِمْ وَيُخْرِكُونَ عَزَائِهِمْ حَتَّى يَخْرُجُوا .
وَهُمْ يَحْفَظُونَ نَفُوسَهُمْ حِفْظًا عَظِيمًا وَيَطْعَمُونَ الطَّرِيفَ عَلَى هَذَا
الْوَضْعِ وَيَسِيرُونَ سِيرًا رَفِيقًا وَمَرَاصِكِهِمْ تَسِيرُ فِي مُقَابَلَتِهِمْ فِي
الْبَحْرِ إِلَى أَنْ أَتَوْا الْمَنْزِلَ . وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ قَرِيبَةً لِأَجْلِ الرِّجَالَةِ .
فَإِنَّ الْمُسْتَرِيحِينَ مِنْهُمْ كَانُوا يَحْمِلُونَ أَثْقَالَهُمْ وَخِيَمَهُمْ لِقَاءَ الظَّوْرِ
عَلَيْهِمْ . فَانْظُرْ إِلَى صَبْرِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ . وَكَانَ
مَنْزِلَتُهُمْ قَاطِعَ نَهْرٍ قِيسَارِيَّةٍ

الْمَنْزِلُ السَّامِعُ : وَلَمَّا كَانَتْ صَبِيحَةُ التَّاسِعِ وَصَلَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ
الْعَدُوَّ قَدْ رَكِبَ سَائِرًا فَرَكِبَ السُّلْطَانُ أَوَّلَ الصُّبْحِ رَطَابَ الْأَطْلَابِ
وَأَخْرَجَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ جَالِيشًا . فَسَارَ يَطْلُبُ الْقَوْمَ وَطَافَ الْجَالِيشُ
حَوْلَهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَزَوَّاهُمْ بِالْأَشَابِ . وَهُمْ سَائِرُونَ ثَلَاثَةَ
أَقْسَامٍ عَلَى الْمِثَالِ الَّذِي حَكَيْتُهُ . وَكَلَّمَا ضَعُفَ قِيسَمُ عَاوَنَةِ الَّذِي
يَلِيهِ . وَهُمْ يَحْفَظُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَالْمُسَائِمُونَ مُخَدِّقُونَ بِهِمْ مِنْ ثَلَاثَةِ
جَوَانِبٍ وَالْقِتَالُ عَلَيْهِمْ شَدِيدٌ وَالسُّلْطَانُ يُقَرِّبُ الْأَطْلَابَ . وَرَأَيْتُهُ
هُوَ يَسِيرُ نَفْسُهُ بَيْنَ الْجَالِيشِينَ . وَالْأَشَابُ الْقَوْمَ يُحَاوِرُهُ وَيَأْسُ مَعَهُ
إِلَّا صَبِيحَانِ بِجَنَبَيْنِ لَا غَيْرَ . وَهُوَ يَسِيرُ مِنْ طَلَبٍ إِلَى طَلَبٍ يَحْشُهُمْ
عَلَى التَّحْدِيدِ وَيَأْمُرُهُمْ بِضَاقَةِ الْقَوْمِ وَمُقَاتَلَتِهِمْ وَالْكُوسَاتُ تَحْتَقُ
وَالْبُوقَاتُ تَنْعَرُ وَالصَّبَاحُ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ يَرْتَفِعُ . هَذَا وَالْقَوْمُ
عَلَى أَيْمٍ ثَبَاتٍ عَلَى تَرْتِيبِهِمْ لَا يَتَغَيَّرُونَ وَلَا يَتَزَعَجُونَ . وَجَرَتْ

حَالَاتٌ كَثِيرَةٌ وَرَجَالَتُهُمْ تَجْرَحُ الْمُسْلِمِينَ وَخِيُولُهُمْ بِالزَّرَنُوكِ
وَالنُّشَابِ . وَلَمْ تَزَلْ حَوَالِيَهُمْ نَقَاتِلُهُمْ وَتَحْمِلُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَكْرُونَ
بَيْنَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ يَتَكَبَّرُونَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ أَتَوَانَهْرًا يُقَالُ
لَهُ نَهْرُ الْقَصَبِ تَزَلُّوا عَلَيْهِ . وَقَدْ قَامَتِ الظُّهَيْرَةُ وَضَرَبُوا خِيَامَهُمْ .
وَتَرَجَعَ النَّاسُ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا تَزَلُّوا أَيْسَ النَّاسِ مِنْ أَنْ يَتِمَّ
مَعَهُمْ وَرَجَعُوا عَنْ قِتَالِهِمْ . وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قُتِلَ مِنْ فُرْسَانِ
الْإِسْلَامِ شَجَاعٌ كُنِيَّتُهُ إِيَّازُ الطَّوِيلُ بَعْضُ مَمَالِكِ السُّلْطَانِ . وَكَانَ
قَدْ قَتَلَ فِيهِمْ وَقَتْلَ خَلْقًا مِنْ خِيَالَتِهِمْ وَشُجْعَانِهِمْ وَكَانَتْ قَدْ
اسْتَفَاضَتْ شَجَاعَتُهُ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ بِحَيْثُ أَنَّهُ جَرَتْ لَهُ وَقَعَاتٌ
كَثِيرَةٌ وَصَدَقَتْ أَخْبَارُ الْأَوَائِلِ . وَصَارَ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَهُ الْإِفْرَنْجُ
فِي مَوْضِعٍ يَخَافُونَهُ وَتَقَطَّرَ بِهِ فَرَسُهُ وَاسْتَشْهَدَ وَحَزَنَ الْمُسْلِمُونَ
عَلَيْهِ حُزْنًا عَظِيمًا وَدُفِنَ عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى الْبِرْكََةِ . وَزَلَّ السُّلْطَانُ
بِالثَّقَلِ عَلَى الْبِرْكََةِ وَهِيَ مَوْضِعٌ يَجْتَمِعُ فِيهِ مِيَاهُ كَثِيرَةٌ وَأَقَامَ فِي
ذَلِكَ الْمَنْزِلِ إِلَى بَعْدِ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَأَطْعَمَ النَّاسَ خُبْزًا وَاسْتَرَاحُوا
سَاعَةً . ثُمَّ رَحَلَ وَأَتَى نَهْرَ الْقَصَبِ وَزَلَّ عَلَيْهِ أَيْضًا فَشَرِبَ مِنْهُ
قَلِيلًا مِنْ أَغْلَاهُ وَالْعَدُوُّ يَشْرَبُ مِنْ أَسْفَلِهِ . لَيْسَ بَيْنَنَا إِلَّا مَسَافَةٌ
يَسِيرَةٌ وَبَاقُ الشَّعِيرِ الرَّبْعُ أَرْبَعَةُ دَرَاهِمٍ وَالْحَبْزُ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ
وَسِعْرُهُ رَطْلٌ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ . وَأَقَامَ يَنْتَظِرُ رَحِيلَ الْإِفْرَنْجِ حَتَّى
يَرْحَلَ فِي مُقَابَلَتِهِمْ . وَبَاتُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ هُنَاكَ وَبَيْنَنَا أَيْضًا

ذِكْرُ وَقْعَةِ جَرَتْ

وَذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعَسْكَرِ الْإِسْلَامِيِّ كَانُوا مُشْرِفِينَ عَلَى
 الْعَدُوِّ فَصَادَفُوا جَمَاعَةً مِنْهُمْ يَتَشَوَّفُونَ أَيْضًا عَلَى الْعَسْكَرِ الْإِسْلَامِيِّ
 فَظَفَرُوا بِهِمْ وَهَجَمُوا عَلَيْهِمْ وَجَرَى بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَظِيمٌ فَقُتِلَ مِنَ الْعَدُوِّ
 جَمَاعَةٌ وَأَحْسَ بِهِمْ عَسْكَرُ الْعَدُوِّ. فَتَارَ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ وَأَتَّصَلَ
 الْحَرْبُ وَقُتِلَ أَيْضًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَفَوَانِ وَأَسِيرَ مِنَ الْعَدُوِّ ثَلَاثَةٌ
 وَمَشَاوَا بِخِدْمَةِ السُّلْطَانِ فَسَأَلَهُمْ عَنِ الْأَحْوَالِ. فَأَخْبَرُوا أَنَّ الْمَلِكَ
 أَنْكَتَارَ كَانَ قَدْ حَضَرَ عِنْدَهُ بِعَكَا اثْنَانِ بَدَوِيَّانِ وَأَنْهَمَا أَخْبَرَا بِقَاتَةِ
 الْعَسْكَرِ الْإِسْلَامِيِّ وَذَلِكَ الَّذِي أَطْمَعَهُ حَتَّى خَرَجَ. وَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ
 بِالْأَمْسِ يَعْنِي الْإِثْنَيْنِ رَأَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ قِتَالًا عَظِيمًا وَأَسْتَكْثَرَ
 الْأَطْلَابَ وَأَنَّهُ جَرِحَ زُهَاءً أَلْفَ نَفَرٍ وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ وَأَنَّ ذَاكَ الَّذِي
 أَوْجَبَ إِقَامَتَهُ الْيَوْمَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ عَسْكَرُهُ. وَأَنَّهُ لَمَّا رَأَى مَا أَصَابَهُ
 مِنَ الْقِتَالِ الْعَظِيمِ وَكَثْرَةِ الْمُسْلِمِينَ أَحْضَرَ الْبَدَوِيِّينَ عِنْدَهُ وَأَوْقَعَهُمَا
 وَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمَا. وَأَقْنَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ لِإِقَامَةِ
 الْعَدُوِّ وَهُوَ الثَّلَاثَاءُ الْعَاشِرُ مِنْ شَعْبَانَ

الْمَنْزِلُ الثَّامِنُ: وَلَمَّا كَانَ ظَهِيرَةُ الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ رَأَى السُّلْطَانُ
 عَلَى الرَّحِيلِ وَالتَّقَدُّمِ إِلَى قُدَامِ الْعَدُوِّ فَدُقَّ الْكُوسُ وَرَحَلَ النَّاسُ
 وَدَخَلَ فِي شَعْرَاءِ أَرْضُوفَ حَتَّى تَوَسَّطَهَا إِلَى تَلٍّ عِنْدَ قَرْيَةٍ تُسَمَّى
 دَيْرَ الرَّاهِبِ فَزَلَّ هُنَاكَ وَدَهِمَ النَّاسُ اللَّيْلَ وَهُمْ يَقْطَعُونَ فِي الشَّعْرَاءِ

وَأَصْبَحَ مُقِيماً يَنْتَظِرُ بَقِيَّةَ السَّائِرِ إِلَى صَبَاحِ الْأَرْبَعَاءِ الْخَادِي
عَشَرَ. وَتَلَا حَقَّتِ السَّائِرُ وَرَكِبَ يَتَأَدُّ مَوْضِعاً يَصْلُحُ لِلْقِتَالِ وَلِقَاءِ
الْعَدُوِّ. وَأَقَامَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَجْمَعَ هُنَاكَ. وَمِنْ أَخْبَارِ الْعَدُوِّ فِي تِلْكَ
الْمَنْزِلَةِ أَنَّهُ أَقَامَ عَلَى نَهْرِ الْقَصَبِ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَيْضاً. وَأَنَّهُ لَحِقَهُ نَجْدَةٌ
مِنْ عَكَا فِي ثَمَانٍ بَطْسٍ كِبَارٍ وَبِذِكُ الْإِسْلَامِ حَوْلَهُ يُوَاصِلُونَ
بِالْأَخْبَارِ الْمُسْتَجِدَّةِ بِهِمْ

ذِكْرُ مَرَاثِلَةٍ جَرَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدُوَّ طَلَبَ مِنَ الْبِزْكِ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ. وَكَانَ
مُقَدِّمُ الْبِزْكِ عِلْمَ الدِّينِ سُلَيْمَانَ فَإِنَّمَا كَانَتْ نَوْبَتُهُ. فَلَمَّا مَضَى إِلَيْهِمْ
مَنْ سَمِعَ كَلَامَهُمْ كَانَتْ كَلَامُهُمْ طَلَبَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ حَتَّى يَتَحَدَّثُوا
مَعَهُ. فَاسْتَأْذَنَ وَمَضَى وَبَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْبِزْكِ وَيَتَحَدَّثُونَ مَعَهُ.
وَكَانَ حَاصِلُ حَدِيثِهِمْ أَنَّا قَدْ طَالَ بَيْنَنَا الْقِتَالُ وَأَنَّهُ قَدْ قُتِلَ مِنْ
الْجَانِبَيْنِ الرِّجَالُ الْأَبْطَالُ وَأَنَا نَحْنُ جُنَا فِي نُصْرَةِ إِفْرَنْجِ السَّاحِلِ.
فَأُضْطَلِحُوا أَنْتُمْ وَهُمْ وَكُلُّ مَنْ يَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ. وَكَتَبَ السُّلْطَانُ
إِلَى أَخِيهِ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِ الْخَمِيسِ الثَّانِي وَالْعَشْرِ رُقْعَةً يَقُولُ لَهُ فِيهَا:
إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُطَاوِلَ الْإِفْرَنْجَ فَلَعَلَّهُمْ يُقِيمُونَ الْيَوْمَ حَتَّى يَلْحَقَنَا
الْتُّرُكُ مَا نَفَانَهُمْ قَدْ قَرُبُوا مِنَّا

ذِكْرُ اجْتِمَاعِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ وَالْأَنْكَتَارِ
وَمَا عَرَفَ الْأَنْكَتَارُ وَصُولَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ إِلَى الْبِزْكِ طَلَبَ

الْاجْتِمَاعَ بِهِ فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ . فَأَجْتَمَعَا بِبُخْوَةٍ مِنْ أَصْحَابَيْهِمَا وَكَانَ
 يُتَرَجِّمُ بَيْنَهُمَا ابْنُ الْهَنْفَرِيِّ وَهُوَ مِنْ إِفْرِجِ السَّاحِلِ مِنْ كِبَارِهِمْ
 وَرَأَيْتُهُ يَوْمَ الصُّلْحِ وَهُوَ شَابٌ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّهُ مُخْلَقُ الْحَبِيبَةِ عَلَى مَا
 هُوَ شِعَارُهُمْ . وَكَانَ الْحَدِيثُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْأَنْكَتَارَ شَرَعَ فِي ذِكْرِ
 الصُّلْحِ وَأَنَّ الْمَلِكَ الْعَادِلَ قَالَ لَهُ : أَنْتُمْ تَطْلُبُونَ الصُّلْحَ وَلَا تَذْكُرُونَ
 مَطْلُوبَكُمْ فِيهِ حَتَّى أَتَوَسَّطَ أَنَا الْحَالِ مَعَ السُّلْطَانِ . فَقَالَ الْأَنْكَتَارُ :
 الْقَاعِدَةُ أَنَّ تَعُودَ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيْنَا وَتَنْصَرِفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ فَأَخْشَنَ
 لَهُ الْجَوَابَ وَجَرَتْ مُنَافَرَةٌ أَقْتَضَتْ أَنَّهُمْ رَحَلُوا بَعْدَ انْفِصَالِهِمْ .
 وَلَمَّا أَحَسَّ السُّلْطَانُ بِرَحِيلِهِمْ أَمَرَ الثَّقَلِ بِالرَّحِيلِ وَوَقَفَ هُوَ وَعَبِي
 النَّاسِ تَعِيَّةَ الْقِتَالِ . وَسَارَ الثَّقَلُ الصَّغِيرُ أَيْضًا حَتَّى قَارَبَ الثَّقَلُ
 الْكَبِيرَ . ثُمَّ وَدَّ أَمْرَاءُ السُّلْطَانِ بِعَوْدِهِمْ إِلَيْهِ . فَعَادُوا وَوَصَلُوا وَقَدْ
 دَخَلَ اللَّيْلُ وَتَخَبَّطَ النَّاسُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ تَخَبُّطًا عَظِيمًا وَاسْتَدْعَى أَخَاهُ
 لِيُعْرِفَهُ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلِكِ . وَخَلَا بِهِ لِذَلِكَ وَذَلِكَ فِي لَيْلَةِ
 الْجُمُعَةِ ثَالِثَ عَشَرَ . وَأَمَّا الْبَدُوُّ فَإِنَّهُ سَارَ وَزَلَّ عَلَى مَوْضِعٍ يُسَمَّى
 الْبِرْكَةَ أَيْضًا يُشْرِفُ عَلَى الْبَحْرِ وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ
 مُتَطَلِّمًا إِلَى أَخْبَارِ الْعَدُوِّ . فَأَحْضَرَ عِنْدَهُ اثْنَانِ مِنَ الْإِفْرِجِ قَدْ
 تَخَطَّفَهُمَا الْبِرْكَ . فَأَمَرَ بِشَرْبِ أَعْنَاقِهِمَا وَوَصَلَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ الْعَدُوَّ
 لَمْ يَرَحِلْ الْيَوْمَ مِنْ مَنَزِلَتِهِ تِلْكَ . فَتَزَلَّ السُّلْطَانُ وَاجْتَمَعَ بِأَخِيهِ يَتَحَدَّثَانِ
 فِي هَذَا الْأَمْرِ وَمَا يَصْنَعُ مَعَ الْعَدُوِّ . وَبَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي تِلْكَ الْمَنَزِلَةِ

ذِكْرُ وَقْعَةِ أَرْسُوفَ وَهِيَ أَنْكَتَ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ
 وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ السَّبْتِ رَابِعَ عَشَرَ بَلَغَ السُّلْطَانُ أَنَّ الْعَدُوَّ حَرَّكَ
 الرَّحِيلَ نَحْوَ أَرْسُوفَ . فَرَكِبَ وَرَتَّبَ الْأَطْلَابَ لِلْقِتَالِ وَعَزَمَ عَلَى
 مُضَايَقَتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَمُصَادَمَتِهِمْ . وَأَخْرَجَ الْجَالِيشَ مِنْ كُلِّ
 طَلَبٍ . وَسَارَ الْعَدُوُّ حَتَّى قَارَبَ شِعْرَاءَ أَرْسُوفَ وَبَسَاتِينَهَا وَأَطْلَقَ
 عَلَيْهِمُ الْجَالِيشُ النَّشَابَ وَلَزَبَتْهُمْ الْأَطْلَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَالسُّلْطَانُ
 يَهْرَبُ بَعْضُهَا وَيُوقِفُ بَعْضُهَا وَيَضَاقُ الْعَدُوُّ مُضَايَقَةً عَظِيمَةً وَأَلْتَحَمَ
 الْقِتَالُ وَأَضْطَرَمَّتْ نَارُهُ مِنَ الْجَالِيشِ وَقُتِلَ مِنْهُمْ وَجُرْحٌ . فَاشْتَدُّوا
 فِي السَّيْرِ عَسَاهُمْ يَبْلُغُونَ الْمَنْزِلَةَ فَيَنْزِلُونَ وَاشْتَدَّ بِهِمُ الْأَمْرُ وَضَاقَ
 بِهِمُ الْحِنَاقُ وَالسُّلْطَانُ يَطُوفُ مِنَ الْمَيْمَنَةِ إِلَى الْمَيْسَرَةِ يَحُثُّ النَّاسَ
 عَلَى الْجِهَادِ وَلَقِيَهُ مِرَارًا لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا صَبِيَّانِ بِجَنَبَيْنِ لَا غَيْرَ وَلَقِيَتْ
 أَخَاهُ وَهُوَ عَلَى مِثْلِ الْحَالِ وَالنَّشَابُ يُجَاوِزُهَا وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ يَشْتَدُّ
 بِالطَّمَعِ لِلْعَدُوِّ وَطَمَعِ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ طَمَعًا عَظِيمًا حَتَّى وَصَلَ أَوَائِلُ رَاغِبِهِمْ
 إِلَى بَسَاتِينِ أَرْسُوفَ . ثُمَّ اجْتَمَعَتِ الْحَيَالَةُ وَتَوَاصَوْا عَلَى الْحَمَلَةِ خَشِيَةً عَلَى
 الْقَوْمِ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يُنْجِيهِمْ إِلَّا الْحَمَلَةُ . وَلَقَدْ رَأَوْا يَتَرُّهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعُوا فِي
 وَسْطِ الرِّجَالَةِ وَأَخَذُوا رِمَاحَهُمْ وَصَاحُوا صِيحَةً الرُّجُلِ الْوَاحِدِ وَفَرَجَ
 لَهُمْ رَجَالَتُهُمْ وَحَمَلُوا حِمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الْجَوَانِبِ كُلِّهَا فَحَمَلَتْ طَائِفَةٌ
 عَلَى الْمَيْمَنَةِ وَطَائِفَةٌ عَلَى الْمَيْسَرَةِ وَطَائِفَةٌ عَلَى الْقَلْبِ . فَأَنْدَفَعَ النَّاسُ
 بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . وَاتَّفَقَ أَنِّي كُنْتُ فِي الْقَلْبِ قَرَّرَ الْقَلْبُ فِرَارًا عَظِيمًا

فَنَوَيْتُ التَّحْيِيزَ إِلَى الْمَيْسِرَةِ وَكَانَتْ أَقْرَبَ إِلَيَّ وَوَصَلْتُهَا وَقَدْ انْكَسَرَتْ
كَسْرَةً عَظِيمَةً وَفَرْتُ أَشَدَّ فِرَارًا مِنْ الْكُلِّ . فَنَوَيْتُ التَّحْيِيزَ إِلَى
طَلَبِ السُّلْطَانِ وَكَانَ رِذَاءُ الْأَطْلَابِ كُلِّهَا كَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ وَلَمْ يَبْقَ
لِلسُّلْطَانِ فِيهِ إِلَّا سَبْعَةٌ عَشَرَ مُقَاتِلًا لَا غَيْرُ وَأَخَذَ الْبَاقِينَ إِلَى الْقِتَالِ .
لَكِنَّ الْأَعْلَامَ كُلَّهَا بَاقِيَةٌ ثَابِتَةٌ وَالْكُوسُ يَدُقُّ لَا يَهْتَرُ . وَأَمَّا السُّلْطَانُ
فَإِنَّهُ لَمَّا رَأَى مَا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ النَّازِلَةِ . سَارَ حَتَّى أَتَى
طَلَبَهُ فَوَجَدَ فِيهِ هَذَا النِّفَرُ الْقَلِيلَ . فَوَقَفَ فِيهِ وَالنَّاسُ يَفِرُّونَ مِنْ
الْجَوَانِبِ وَهُوَ يَأْمُرُ أَصْحَابَ الْكُوسِ بِالْدَّقِ بِحَيْثُ لَا يَهْتَرُونَ وَكُلُّهَا
رَأَى قَارًا يَأْمُرُ مَنْ يُخْضِرُهُ عِنْدَهُ وَفِي الْجُمْلَةِ مَا أَقْصَرَ النَّاسُ فِي
فِرَارِهِمْ . فَإِنَّ الْعَدُوَّ حَمَلَ حِمْلَةً قَهَرُوا . ثُمَّ وَقَفَ خَوْفًا مِنَ الْكَمِينَ
فَوَقَفُوا وَقَاتَلُوا . ثُمَّ حَمَلَ حِمْلَةً ثَانِيَةً . قَهَرُوا وَهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي فِرَارِهِمْ
ثُمَّ وَقَفَ فَوَقَفُوا . ثُمَّ حَمَلَ حِمْلَةً ثَالِثَةً حَتَّى بَلَغَ إِلَى رُؤْسِ رَوَايِ هُنَاكَ
وَأَعَالِي ثُلُولٍ . قَهَرُوا إِلَى أَنْ وَقَفَ الْعَدُوُّ وَوَقَفُوا . وَكَانَ كُلُّ مَنْ
رَأَى طَلَبَ السُّلْطَانِ وَاقِفًا وَالْكُوسُ يَدُقُّ يَسْتَحْيِي أَنْ يُجَاوِزَهُ
وَيَخَافُ غَائِلَةً ذَلِكَ فَيَعُودُ إِلَى الطَّلَبِ . فَاجْتَمَعَ فِي الْقَلْبِ خَلْقٌ
عَظِيمٌ وَوَقَفَ الْعَدُوُّ قِبَالَتَهُمْ عَلَى رُؤْسِ الثُّلُولِ وَالرَّوَايِ وَالسُّلْطَانُ
وَاقِفٌ فِي طَلَبِهِ وَالنَّاسُ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَتْ الْعَسَاكِرُ بِأَسْرِهَا
وَخَافَ الْعَدُوُّ أَنْ يَكُونَ فِي الشَّعْرَاءِ الْكَمِينَ . فَتَرَا جَعُوا يَطْلُبُونَ
الْمَنْزِلَةَ وَعَادَ السُّلْطَانُ إِلَى تَلٍّ فِي أَوَائِلِ الشَّعْرَاءِ وَنَزَلَ عَلَيْهِ فِي

خَيْمَتِهِ . وَلَقَدْ كُنْتُ فِي خِدْمَتِهِ أَسَايِهِ وَهُوَ لَا يَقْبَلُ السُّلُوَ وَظُلُلَ
 عَلَيْهِ بِمَنْدِيلٍ وَسَأَلَنَاهُ أَنْ يَطْعَمَ شَيْئًا فَأَحْضَرَ لَهُ شَيْءًا لَطِيفٌ
 فَتَأَوَّلَ مِنْهُ شَيْئًا يَسِيرًا وَبَعَثَ النَّاسُ خِيَلَهُمْ لِلسَّهْمِ فَإِنْ الْمَكَانَ
 كَانَ بَعِيدًا وَجَلَسَ يَنْتَظِرُ النَّاسَ مِنَ الْوُدِيِّ مِنَ السَّهْمِ وَالْجُرْحِ
 يُحْضِرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ بِمَدَاوَاتِهِمْ وَجَمْلِهِمْ وَقَتْلَ فِي ذَلِكَ
 الْيَوْمِ رَجَالًا كَثِيرَةً وَجُرْحَ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ . وَكَانَ مِمَّنْ ثَبَتَ الْمَلِكُ
 الْمَعَادِلُ وَالطَّوَاشِي فَأَيَّازُ النُّجْمِيِّ وَالْمَلِكُ الْأَنْضَلُ وَلَدُهُ وَصِدْمٌ فِي
 ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَنْتَفَحَ دُمْلُ كَانَ فِي وَجْهِهِ وَسَالَ مِنْهُ دَمٌ كَثِيرٌ عَلَى
 وَجْهِهِ وَهُوَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ . وَثَبَتَ أَيْضًا طَلَبُ الْمُوصِلِيِّ
 وَمُتَدَمِّهِ عَلَاءُ الدِّينِ وَشَكَرَهُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ وَتَفَقَّدَ النَّاسُ بَعْضَهُمْ
 بَعْضًا فَوَجَدُوا قَدْ اسْتَشْهَدَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَسْكَرِ عُرِفَ مِنْهُمْ أَمِيرُ
 كَبِيرُ مُوسِكُ . وَكَانَ شُجَاعًا مَعْرُوفًا وَقَائِمًا بِالْعَادِلِيِّ وَكَانَ مَذْكُورًا
 وَلَيُفُوشُ وَكَانَ شُجَاعًا . وَجُرِحَ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَخِيُولٌ كَثِيرَةٌ . وَقُتِلَ
 مِنَ الْعَدُوِّ جَمَاعَةٌ وَأَمِيرٌ وَاحِدٌ فَأَحْضَرَ فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ وَأَخَذَتْ
 مِنْهُمْ خِيُولٌ أَرْبَعَةٌ . وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الثَّمَلِ أَنْ يَسِيرَ
 إِلَى الْمَوْجَاءِ فَاسْتَأْذَنَتْهُ وَتَقَدَّمَتْهُ إِلَى الْمَنْزِلِ وَجَلَسَ هُوَ يَنْتَظِرُ
 أَجْتِمَاعَ الْعَسَاكِرِ وَمَا يَرِدُ مِنْ أَخْبَارِ الْعَدُوِّ . وَكَانَ الْعَدُوُّ قَدْ نَزَلَ
 عَلَى أَرْضُوفَ

الْمَنْزِلِ الْتَائِمِ : وَسِيرْتُ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ حَتَّى أَتَيْتُ الثَّمَلَ وَقَدْ

نَزَلَ قَاطِعَ النَّهْرِ الْمَعْرُوفِ بِالْعُوجَاءِ فِي مَنْزِلَةِ خَضْرَاءَ طَيِّبَةٍ عَلَى
 جَانِبِ النَّهْرِ وَوَصَلَ السُّلْطَانُ إِلَى الْمَنْزِلَةِ أَوَاخِرَ النَّهَارِ . وَازْدَحَمَ
 النَّاسُ عَلَى الْقَنْطَرَةِ . فَتَزَلَّ عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى النَّهْرِ وَلَمْ يَعُدَّ إِلَى
 الْحَيْمَةِ وَأَمَرَ الْجَاوِشَ أَنْ يُنَادِيَ فِي الْعَسْكَرِ بِالْعُبُورِ إِلَيْهِ . وَكَانَ
 فِي قَلْبِهِ مِنَ الْوَقْعَةِ أَمْرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالنَّاسُ بَيْنَ جَرِيحِ الْجَسَدِ
 وَجَرِيحِ الْقَلْبِ . وَأَقَامَ السُّلْطَانُ إِلَى سُحْرَةِ الْخَامِسِ عَشَرَ وَدُقَّ
 الْكُوسُ وَرَكِبَ النَّاسُ وَسَارَ رَاجِعًا إِلَى جِهَةِ الْعَدُوِّ حَتَّى وَصَلَ إِلَى
 قَرِيبِ أَرْسُوفَ وَصَفَ الْأَطْلَابُ لِلْقِتَالِ رَجَاءَ خُرُوجِ الْعَدُوِّ وَمَسِيرِهِ
 حَتَّى يُصَادِفَهُ . فَلَمْ يَدْخُلِ الْعَدُوُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّعَبِ
 وَأَقَامَ قِبَالَتَهُمْ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ وَعَادَ إِلَى مَنْزِلَتِهِ الَّتِي بَاتَ بِهَا . وَلَمَّا
 كَانَ صَبِيحَةُ السَّادِسِ عَشَرَ دُقَّ الْكُوسُ وَرَكِبَ النَّاسُ وَسَارَ
 مُتَحَوِّهِمْ وَوَصَلَ خَبَرُ الْعَدُوِّ أَنَّهُ قَدْ رَحَلَ طَالِبًا جِهَةَ يَافَا فَقَارَبَهُمْ
 مُقَارَبَةً عَظِيمَةً وَرَتَّبَ الْأَطْلَابُ تَرْتِيبَ الْقِتَالِ وَأَخْرَجَ الْجَالِشَ
 وَأَحْدَقَ الْعَسْكَرَ الْإِسْلَامِيَّ بِأَقْوَمٍ وَأَلْقَوْا عَلَيْهِمْ مِنَ النَّشَابِ مَا
 كَادَ يَسُدُّ الْأُفُقَ وَقَاتَلَهُمْ قُلُوبُهُمْ قِتَالِ الْحَقِّ وَقَصَدَ رَحْمَةُ اللَّهِ
 تَحْرِيكَ عَزَائِمِهِمْ عَلَى الْحَمَلَةِ حَتَّى إِذَا حَمَلُوا أَتَى النَّاسَ عَلَيْهِمْ
 وَيُعْطِي اللَّهُ النَّصْرَ لِمَنْ يَشَاءُ . فَلَمْ يَحْمِلُوا وَحَفِظُوا نَفُوسَهُمْ وَسَارُوا
 مُصْطَفِينَ عَلَى عَادَتِهِمْ حَتَّى أَتَوْا نَهْرَ الْعُوجَاءِ وَهُوَ النَّهْرُ الَّذِي مَنْزِلَتُنَا
 أَعْلَاهُ . فَتَزَلَّ فِي أَسْفَلِهِ وَعَبَّرَ بَعْضُهُمْ إِلَى غَرْبِيِّ النَّهْرِ وَأَقَامَ الْبَاقُونَ

مِنَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ . فَلَمَّا عَلِمَ النَّاسُ بُرُوءَهُمْ تَرَجَّعَ النَّاسُ عَنْهُمْ .
وَعَادَ السُّلْطَانُ إِلَى الثَّقَلِ وَزُلَّ فِي خَيْمَتِهِ وَأُطْعِمَ الطَّعَامَ وَأُتِيَ
بِأَرْبَعَةٍ مِنَ الْإِفْرَنْجِ . قَدْ أَخَذَتْهُمْ الْعَرَبُ وَمَعَهُمْ أَمْرَأَةٌ فَرَفَعُوا إِلَى
الزُّرْدَخَانَةِ وَأَقَامَ بَقِيَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكْتُبُ الْكُتُبَ إِلَى الْأَطْرَافِ
بِاسْتِخْضَارِ بَقِيَّةِ الْعَسَاكِرِ وَحَضَرَ مِنْ أَخْبَرِهِ أَنَّهُ قُتِلَ مِنَ الْعَدُوِّ
يَوْمَ أَرْسُوفَ خَيْلٌ كَثِيرَةٌ وَأَنَّهُ تَبِعَهَا الْعَرَبُ وَعَدُّوْهَا وَزَادَتْ عَلَى
مِئَةِ وَأَمَرَ السُّلْطَانُ أَنْ تَرْحَلَ الْحِمَالُ وَتَتَقَدَّمَ إِلَى الرَّمْلَةِ وَبَاتَ هُوَ
بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ

الْمَنْزِلُ الْعَاشِرُ : وَلَمَّا كَانَ سَابِعَ عَشَرَ صَبَّحَ الصُّبْحَ وَرَحَلَ وَرَحَلَ
مَعَهُ الثَّقَلُ الصَّغِيرُ وَسَارَ يُرِيدُ الرَّمْلَةَ وَأُتِيَ بِأَثْنَيْنِ مِنَ الْإِفْرَنْجِ .
فَأَمَرَ بِضَرْبِ أَغْنَاقِهِمَا . وَوَصَلَ مِنَ الْبُزْكِ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ الْعَدُوَّ
رَحَلَ مِنْ يَاقَا . وَسَارَ السُّلْطَانُ إِلَى أَنْ أَتَى الرَّمْلَةَ وَأُتِيَ بِأَثْنَيْنِ
مِنَ الْإِفْرَنْجِ أَيْضًا . فَسَأَلَهُمَا عَنْ أَحْوَالِهِمَا . فَذَكَرَا أَنَّهُمَا رُبَّمَا أَقَامُوا
بِیَاقَا أَيَّامًا وَفِي أَنْفُسِهِمْ عِمَارَتُهَا وَإِسْخَانُهَا بِالرِّجَالِ وَالْعَدَدِ . وَأَحْضَرَ
السُّلْطَانُ أَرْبَابَ مَشُورَتِهِ وَشَاوَرَهُمْ فِي أَمْرِ عَسْقَلَانَ وَهَلْ إِنَّهَا
تُخْرَبُ أَوْ تَبْقَى . وَاتَّفَقَ الرَّأْيُ عَلَى أَنْ يَتَخَفَّ الْمَلِكُ الْعَادِلُ وَمَعَهُ
طَائِفَةٌ مِنَ الْعَسَاكِرِ مُقَارِبَ الْعَدُوِّ لِيَعْرِفَ أَحْوَالَهُمْ وَاتِّصَالَهُمَا وَأَنْ
يَسِيرَ هُوَ وَيُخْرِبَ عَسْقَلَانَ خَشْيَةً أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا الْإِفْرَنْجُ وَهِيَ
عَامِرَةٌ فَيَقْتُلُوا مِنْ يَدِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَأْخُذُوا بِهَا الْقُدْسَ الشَّرِيفَ

وَيَقْطَعُونَ بِهَا طَرِيقَ مِصْرَ . وَخَشِيَ السُّلْطَانُ مِنْ ذَلِكَ وَعَلِمَ عَجْزَ
الْمُسْلِمِينَ عَنْ حِفْظِهَا لِثَرِبِ عَهْدِهِمْ مِنْ عَكَّا وَمَا جَرَى عَلَى مَنْ
كَانَ مُقِيمًا بِهَا . فَتَعَيَّنَ لِذَلِكَ خَرَابُ عَسْقَلَانَ . فَسَارَ الثَّقَلُ مِنْ أَوَّلِ
الَّيْلِ . وَتَقَدَّمَ إِلَى وَلَدِهِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ أَنْ سَارَ عَقِيبَ الثَّقَلِ .
نِصْفَ اللَّيْلِ وَسَارَ هُوَ وَأَنَا فِي خِدْمَتِهِ سُحْرَةَ الْأَرْبَعَاءِ

الْمَنْزِلُ الْحَادِي عَشَرَ وَهُوَ عَلَى عَسْقَلَانَ : وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ
ثَامِنَ عَشَرَ الشَّهْرِ وَصَلَ السُّلْطَانُ إِلَى يَبْنَا فَتَزَلَّ بِهَا وَضَحَّى وَأَخَذَ
النَّاسُ رَاحَةً . ثُمَّ رَحَلَ وَسَارَ حَتَّى أَتَى أَرْضَ عَسْقَلَانَ وَقَدْ ضُرِبَتْ
خِيَمَتُهُ بَعِيدًا مِنْهَا . فَبَاتَ هُنَاكَ مَهْمُومًا بِسَبَبِ الْخَرَابِ وَمَا نَامَ إِلَّا
قَلِيلًا . وَلَقَدْ دَعَانِي فِي خِدْمَتِهِ سَحْرًا وَكُنْتُ فَارَقْتُ خِدْمَتَهُ بَعْدَ مُضِيِّ
نِصْفِ اللَّيْلِ . فَحَضَرْتُ وَبَدَأَ بِالْحَدِيثِ فِي مَعْنَى خَرَابِهَا وَأَحْضَرَ
وَلَدَهُ الْمَلِكَ الْأَفْضَلَ وَشَاوَرَهُ فِي ذَلِكَ وَطَالَ الْحَدِيثُ فِي الْمَعْنَى
وَلَقَدْ قَالَ لِي : وَاللَّهِ لَأَنْ أَفْقِدَ أَوْلَادِي بِأَسْرِهِمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ
أَهْدِمَ مِنْهَا حَجْرًا وَاحِدًا وَلَكِنْ إِذَا قَضَى اللَّهُ ذَلِكَ وَفِيهِ دَعْوَتُهُ لِحِفْظِ
مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ اسْتَحَارَ اللَّهُ تَعَالَى فَأَوْقَعَ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ أَنْ الْمَصْلَحَةَ
فِي خَرَابِهَا لِعَجْزِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ حِفْظِهَا . فَاسْتَحْضَرَ الْوَالِيَّ قَبِضَرَ بِهَا
وَهُوَ مِنْ كِبَارِ مَمَالِكِهِ وَذَوِي الْأَرْاءِ مِنْهُمْ فَأَمَرَهُ بِجَمْعِ الْعَمَلَةِ فِيهَا .
وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَقَدْ أَجْتَازَ بِالسُّوقِ وَالْوَطَاقِ بِنَفْسِهِ مُسْتَفِزًّا النَّاسَ
لِلْخَرَابِ . وَقَسَمَ السُّورَ عَلَى النَّاسِ وَجَعَلَ لِكُلِّ أَمِيرٍ وَطَائِفَةٍ مِنْ

الْعَسْكَرُ رُجَا مَعْلُومًا يُخْرِبُونَهُ . وَدَخَلَ النَّاسُ الْبَلَدَ وَوَقَعَ فِيهِ
 الصُّجُوعُ وَالْبُكَاءُ وَكَانَ بَلَدًا خَفِيفًا عَلَى الْقَلْبِ مُحْكَمَ الْأَسْوَارِ عَظِيمَ
 الْبِنَاءِ مَرْغُوبًا فِي سَكْنَتِهِ فَحَقَّ النَّاسُ عَلَيْهِ حُزْنٌ عَظِيمٌ وَعَظُمَ عَوِيلُ
 أَهْلِهِ عَلَى مُفَارَقَةِ أَوْطَانِهِمْ وَشَرَعُوا فِي بَيْعِ مَا لَا يُمَكِّنُ حَمْلَهُ وَبِيعَ
 مَا يَسُوى عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ بِدِرْهَمٍ وَاحِدٍ وَاخْتَبَطَ الْبَلَدُ وَخَرَجَ أَهْلُهُ
 إِلَى الْعَسْكَرِ بِذَرَارِيهِمْ وَنِسَائِهِمْ خَشْيَةً أَنْ يَفْجَمَ الْإِفْرَجُ وَبَذَلُوا
 فِي الْكِرَاءِ أَضْعَافَ مَا يَسُوى . قَوْمٌ إِلَى مِصْرَ وَقَوْمٌ إِلَى الشَّامِ
 وَقَوْمٌ يَمْشُونَ . وَجَرَتْ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ وَفِتْنَةٌ هَائِلَةٌ أَعْلَاهَا لَمْ تَخْتَصْ
 بِالَّذِينَ ظَلَمُوا . وَكَانَ هُوَ بِنَفْسِهِ وَوَلَدُهُ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ يَسْتَعْمَلَانِ
 النَّاسَ فِي الْخُرَابِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ خَشْيَةً أَنْ يَسْمَعَ الْعَدُوُّ فَيَحْضُرَ وَلَا
 يُمْكِنَ مِنْ خَرَابِهَا . وَبَاتَ النَّاسُ فِي الْحَيْمِ عَلَى أَتَمِّ حَالٍ مِنَ التَّعَبِ
 وَالتَّصَبُّبِ . وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَصَلَ مِنْ جَانِبِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ
 الْإِفْرَجَ تَحَدَّثُوا مَعَهُ فِي الصُّلْحِ وَأَنَّهُ خَرَجَ إِلَيْهِ ابْنُ الْهَنْفَرِيِّ وَتَحَدَّثَ
 مَعَهُ وَأَنَّهُ طَلَبَ جَمْعَ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ . فَرَأَى السُّلْطَانُ أَنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ
 لِمَا رَأَى فِي أَنْفُسِ النَّاسِ مِنَ الضُّجْرِ وَالسَّأَمَةِ مِنَ الْقِتَالِ وَالْمَصَابِرَةِ
 وَكَثْرَةِ مَا عَلَاهُمْ مِنَ الدِّيُونِ . وَكَبَّ إِلَيْهِ يَسْمَعُ فِي الْحَدِيثِ فِي
 ذَلِكَ . وَفُوضَ أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى رَأْيِهِ وَأَصْحَجَ الْعِشْرِينَ عَلَى الْإِصْرَارِ
 عَلَى الْخُرَابِ وَاسْتِعْمَالَ النَّاسِ فِيهِ وَحَثَّ عَلَيْهِمْ عَلَيْهِ وَأَبَاحَهُمُ الْهَرِي
 الَّذِي كَانَ ذَخِيرَةً فِي الْبَلَدِ لِلْعَجْزِ عَنْ نَقْلِهِ وَضَعْفِ الْوَقْتِ وَالْخَوْفِ

مِنْ هُجُومِ الْإِفْرِجِ . وَأَمَرَ بِحَرْقِ الْبَلَدِ فَأُضْرِمَتِ النَّارُ فِي بُيُوتِهِ
 وَأَذُورِهِ وَرَقَصَ أَهْلُهُ بِوَاقِي أَقْمَشَتِهِ لِيُخْجَزَ عَنْ نَقْلِهَا وَالْأَخْبَارُ
 تَوَاتَرَتْ مِنْ جَانِبِ الْعَدُوِّ بِعِمَارَةِ يَافَا . وَكَتَبَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ يُخْبِرُ
 أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَعْلَمُوا بِخَرَابِ الْبَلَدِ فَأَجَابَهُ أَنْ سَوْفَ الْقَوْمَ وَطَوَّلَ
 الْحَدِيثَ لَعَلَّنَا نَتَمَكَّنُ مِنَ الْخَرَابِ وَأَمَرَ بِحَشْوِ أَتْرَاجِ الْبَلَدِ
 بِالْأَحْطَابِ وَأَنْ تُحْرَقَ وَأُصْجَعَ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ رَكِبَ يَحْتِثُّ النَّاسُ .
 وَدَامَ يَسْتَمْلَهُمْ عَلَى التَّخْرِيبِ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ حَتَّى الثَّلَاثَ
 مِزَاجَهُ الْبَيَاضَ قَرِيبًا أَمْتَعَ بِسَبَبِهِ مِنَ الرُّكُوبِ وَالْعِذَاءِ يَوْمَيْنِ .
 وَأَخْبَارُ الْعَدُوِّ تَوَاصَلُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجْرِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
 الْإِزْكِ وَالْعُسْكَرِ وَقَعَاتٌ وَقَلَبَاتٌ وَهُوَ يُوَاطِبُ عَلَى الْحَثِّ عَلَى الْخَرَابِ
 وَنَقْلِ الثَّقَلِ إِلَى قَرِيبِ الْبَلَدِ لِيُعَاوِنَ الْعُلَمَاءُ وَالْحَمَالُونَ وَغَيْرُهُمْ
 فِي ذَلِكَ . فَخَرِبَ مِنَ السُّورِ مُعْظَمُهُ وَكَانَ عَظِيمَ الْبِنَاءِ بِحَيْثُ إِنَّهُ
 كَانَ عَرْضُهُ فِي مَوَاضِعَ تِسْعَةَ أَذْرُعٍ . وَفِي مَوَاضِعَ عَشْرَةَ أَذْرُعٍ .
 ذَكَرَ بَعْضُ الْحَجَّارِينَ لِلسُّلْطَانِ . وَأَنَا حَاضِرٌ أَنَّ عَرْضَ السُّورِ الَّذِي
 يَصُوتُهُ فِيهِ مِقْدَارُ رُمْحٍ . وَلَمْ يَزَلِ الْخَرَابُ وَالْحَرْقُ يَعْمَلُ فِي الْبَلَدِ
 وَأَسْوَارِهِ إِلَى سَلْخِ شَعْبَانَ . وَعِنْدَ ذَلِكَ وَصَلَ مِنْ جَرْدِيكَ كِتَابٌ
 يَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ الْقَوْمَ يَنْقَسِحُونَ وَصَارُوا يَخْرُجُونَ مِنْ يَافَا يَهَارُونَ
 عَلَى الْبِلَادِ الْقَرِيبَةِ مِنْهَا . وَتَحَرَّكَ السُّلْطَانُ لَعَلَّهُ يَبْلُغُ مِنْهُمْ غَرَضًا
 فِي غَرَّتِهِمْ . فَعَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ وَعَلَى أَنْ يُخْلِفَ فِي عَسْكَلَانَ حَجَّارِينَ

وَمَعَهُمْ خَيْلٌ يُحْمِيهِمْ وَيَسْتَقْضُونَهُمْ فِي الْحَرَابِ . فَرَأَى أَنْ يَتَأَخَّرَ
بِحَيْثُ أَنْ يُحْرِقَ الْبَرْجَ الْمَعْرُوفُ بِالْأَسْبِتَارِ . وَكَانَ بَرْجًا عَظِيمًا
مُشْرِفًا عَلَى الْبَحْرِ كَأَلْقَامَةِ الْمُنِيْعَةِ . وَلَقَدْ دَخَلَتْهُ وَطَقَتْهُ فَرَأَتْ بُنَاءَهُ
أَحْكَمَ بِنَاءٍ يَمْرُضُ أَنْ يَكُونَ لَا يَعْمَلُ فِيهِ الْمُعَاوِلُ . وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ
يُحْرِقُوهُ حَتَّى يَبْقَى بِالْحَرْبِ قَابِلًا لِلْحَرَابِ . وَاصْبَحَ مُسْتَهْلًا رَمَضَانَ
أَمَرَ وَلَدَهُ الْمَلِكَ الْأَفْضَلَ أَنْ يُبَاشِرَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَخَوَاصِهِ . وَلَقَدْ
رَأَيْتُهُ يُحْمِلُ الْحَشَبَ هُوَ وَخَوَاصُّهُ لِحَرْبِ الْبَرْجِ . وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ
يَنْقُلُونَ الْحَشَبَ وَيَحْشُونَهُ فِي الْبَرْجِ حَتَّى امْتَلَأَ ثُمَّ أُطْلِقَتْ فِيهِ النَّارُ
فَاشْتَعَلَ الْحَشَبُ وَبَقِيَ النَّارُ تَشْعَلُ فِيهِ يَوْمَيْنِ بِلَيْلِيهِمَا . ثُمَّ رَحَلَ
السُّلْطَانُ ثَانِي رَمَضَانَ نِصْفَ اللَّيْلِ خَشِيَةً عَلَى مِرَاجِهِ مِنْ الْحَرِّ
وَوَصَلَ بَيْنَا ضَاحِي النَّهَارِ وَبَاتَ فِي تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ وَاصْبَحَ ثَالِثَ الشَّهْرِ
رَاحِلًا إِلَى جِهَةِ الرَّمْلَةِ



نُحْبَةُ

مِنْ كِتَابِ التَّارِيخِ لِأَبِي الْقِدَاءِ

الْمَعْرُوفِ بِصَاحِبِ حِمَاةٍ

ذِكْرُ وِفَاةِ نُورِ الدِّينِ وَمَا كَانَ لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ

فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ تُوُفِّيَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ نُورُ الدِّينِ

بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِي بْنِ أَقْسَنْقَرٍ صَاحِبُ الشَّامِ رُدْيَارِ

الْجَزِيرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ حَادِي عَشَرَ شَوَالٍ بَعْلَةَ الْخَوَانِيقِ

بِقَلْعَةِ دِمَشْقِ الْخَرْوَسَةِ . وَكَانَ نُورُ الدِّينِ قَدْ شَرَعَ يَتَجَهَّزُ لِلدُّخُولِ

إِلَى مِصْرَ لِأَخْذِهَا مِنْ صَلاَحِ الدِّينِ وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَخْلِيَ ابْنَ أَخِيهِ

سَيْفَ الدِّينِ غَازِي بْنَ مَوْدُودٍ فِي الشَّامِ قُبَالَةَ الْقَرْنَجِ وَيَسِيرَ هُوَ

بِنَفْسِهِ إِلَى مِصْرَ . فَأَتَاهُ أَمْرُ اللَّهِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ . وَكَانَ نُورُ الدِّينِ أَشْمَرَ

طَوِيلَ الْقَامَةِ لَيْسَ لَهُ لَحْيَةٌ إِلَّا فِي حَنْكِهِ حَسَنَ الصُّورَةِ . وَكَانَ قَدْ

اتَّسَعَ مُلْكُهُ جِدًّا وَخُطِبَ لَهُ بِالْحَرَمَيْنِ وَالْيَمَنِ لَمَّا مَلَكَهَا تُوْرَانُ شَاهُ

بْنِ أَيُّوبَ وَكَذَلِكَ كَانَ يُخْطَبُ لَهُ بِمِصْرَ . وَكَانَ مَوْلِدُ نُورِ الدِّينِ

سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَطَبَّقَ ذِكْرُهُ الْأَرْضَ لِحَسَنِ سِيرَتِهِ

وَعَدْلِهِ وَكَانَ مِنَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ عَلَى قَدَمٍ عَظِيمٍ . وَكَانَ يُصَلِّي

كَثِيرًا مِنَ اللَّيْلِ وَكَانَ كَمَا قِيلَ

جَمَعَ الشُّجَاعَةَ وَالْحُشُوعَ لِرَبِّهِ مَا أَحْسَنَ الْخِرَابَ فِي الْخِرَابِ

وَكَانَ عَارِفًا بِالْفَقْهِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ وَلَيْسَ عِنْدَهُ تَعَصُّبٌ وَهُوَ الَّذِي بَنَى أَسْوَارَ مَدْنِ الشَّامِ مِنْهَا
دِمَشْقُ وَحِمَصُ وَحِمَاةُ وَحَلَبُ وَشِيرَزُ وَبَغْلَبُكُ وَغَيْرُهَا لَمَّا تَهَدَّمَتْ
بِالزَّلَازِلِ وَبَنَى الْمَدَارِسَ الْكَثِيرَةَ الْخَفِيَّةَ وَالشَّافِيَّةَ وَلَا يَحْتَمِلُ هَذَا
الْمُخْتَصَرُ ذِكْرَ فَضَائِلِهِ

وَلَمَّا تُوُفِيَ نُوْرُ الدِّينِ قَامَ ابْنُهُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِنْشِيعِلُ بْنُ نُورِ
الدِّينِ مُحَمَّدٍ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ وَعُمُرُهُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً وَحَطَفَ لَهُ
الْعُسْكَرُ بِدِمَشْقَ وَأَقَامَ بِهَا وَأَطَاعَهُ صَاحِبُ الدِّينِ بِمَصْرَ وَخُطِبَ لَهُ
بِهَا وَضُرِبَتِ السَّكَّةُ بِاسْمِهِ . وَكَانَ الْمُتَوَلَّى لِتَدْبِيرِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ
وَتَدْبِيرِ دَوْلَتِهِ الْأَمِيرُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدًا الْمَعْرُوفَ بِابْنِ الْمُقَدَّمِ .
وَلَمَّا مَاتَ نُوْرُ الدِّينِ وَمَلَكَ ابْنُهُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ سَارَ مِنَ الْمَوْصِلِ
سَيْفُ الدِّينِ غَازِي بْنُ قُطْبِ الدِّينِ مَوْدُودُ بْنُ عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِي
وَمَلَكَ جَمِيعَ الْبِلَادِ الْجَزِيرَةِ (الجزرية)

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سَبْعِينَ وَخَمْسِينَ . وَفِي أَوَّلِ هَذِهِ السَّنَةِ
اجْتَمَعَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الصَّعِيدِ يُقَالُ لَهُ الْكَثْرُ جَمْعٌ كَثِيرٌ وَأَظْهَرَ
الْخِلَافَ عَلَى صَاحِبِ الدِّينِ فَأَرْسَلَ صَاحِبُ الدِّينِ إِلَيْهِ عَسْكَرًا فَأَقْتَلُوا
وَقَتِلَ الْكَثْرُ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ وَانْهَزَمَ الْبَاقُونَ

ذِكْرُ مَلِكِ صَاحِبِ الدِّينِ دِمَشْقَ وَغَيْرِهَا

فِي هَذِهِ السَّنَةِ سَلَخَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مَلِكُ صَاحِبِ الدِّينِ يُوسُفُ
بْنُ أَيُّوبَ دِمَشْقَ وَحِمَصَ وَحِمَاةَ . وَسَبَبُهُ أَنَّ شَمْسَ الدِّينِ ابْنَ الدَّائِيَةِ

الْمُفِيمَ بِحَلَبَ أَرْسَلَ سَعْدَ الدِّينِ كَشْتَكِينَ يَسْتَدْعِي الْمَلِكَ الصَّالِحَ
 ابْنَ نَوْرِ الدِّينِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى حَلَبَ لِيَكُونَ مُقَامَهُ بِهَا . فَسَارَ الْمَلِكُ
 الصَّالِحُ إِلَى حَلَبَ مَعَ سَعْدِ الدِّينِ كَشْتَكِينَ . وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِحَلَبَ
 وَتَمَكَّنَ كَشْتَكِينَ قَبْضَ عَلَى شَمْسِ الدِّينِ ابْنِ الدَّائِيَةِ وَإِخْوَتِهِ وَقَبْضَ
 عَلَى الرَّئِيسِ ابْنِ الْحُشَّابِ وَإِخْوَتِهِ وَهُوَ رَئِيسُ حَلَبَ وَاسْتَبَدَّ
 سَعْدُ الدِّينِ بِتَدْيِيرِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ فَخَافَهُ ابْنُ الْمُقَدَّمِ وَغَيْرُهُ مِنْ
 الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ بِدِمَشْقَ فَكَاتَبُوا صَاحِبَ الدِّينِ وَاسْتَدْعَوْهُ لِيَمْلِكُوهُ
 عَلَيْهِمْ . فَسَارَ جَرِيدَةً فِي سَبْعِ مِائَةِ فَارِسٍ وَلَمْ يَلْبِثْ وَوَصَلَ إِلَى
 دِمَشْقَ فَخَرَجَ كُلُّ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْعَسْكَرِ وَالنَّقْوَةِ وَخَدْمُوهُ وَزَلَّ
 بِدَارٍ وَالِدِهِ أَيُّوبَ الْمَعْرُوفَةَ بِدَارِ الْعَقِيَّتِي وَعَصَتْ عَلَيْهِ الْقَلْعَةُ .
 وَكَانَ فِيهَا مِنْ جِهَةِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ خَادِمٌ أَسْمُهُ رَيْحَانُ . فَرَأَسَلَهُ صَاحِبُ
 الدِّينِ وَاسْتَمَالَهُ فَسَلَّمَ الْقَلْعَةَ إِلَيْهِ . فَصَعِدَ إِلَيْهِمْ صَاحِبُ الدِّينِ وَأَخَذَ
 مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ . وَلَمَّا ثَبَتَ قَدَمَهُ وَفَرَّرَ أَمْرُ دِمَشْقَ اسْتَخْلَفَ بِهَا
 أَخَاهُ سَيْفَ الْإِسْلَامِ طَغْتَكِينَ ابْنَ أَيُّوبَ وَسَارَ إِلَى خِمَصَ مُسْتَهْلًا
 جُمَادَى الْأُولَى

. وَكَانَتْ خِمَصُ وَحَمَاءُ وَقَلْعَةُ بَارِينِ وَسَلْمِيَّةُ وَتَلُّ خَالِدٍ وَالرُّهَامَا مِنْ
 بَلَدِ الْجَزِيرَةِ فِي أَقْطَاعِ فُخْرِ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ الزَّعْفَرَانِي . فَلَمَّا مَاتَ
 نَوْرُ الدِّينِ لَمْ يُمْكِنْ فُخْرَ الدِّينِ مَسْعُودًا الْمَقَامُ بِخِمَصَ وَحَمَاءَ لِسُوءِ
 سِيرَتِهِ مَعَ النَّاسِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبِلَادُ لَهُ بِغَيْرِ وِلَايَةٍ . فَإِنَّ قَلَاعِيهَا

فِيهَا وَلَاةٌ لِنُورِ الدِّينِ وَلَيْسَ لِفَخْرِ الدِّينِ مَعَهُمْ فِي الْقِلَاعِ حُكْمٌ إِلَّا
بَارِينَ فَإِنْ قَلَعَتَهَا كَانَتْ لَهُ أَيْضًا . وَزُلَّ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى خِمَصٍ
فِي حَادِي عَشَرَ جُمَادَى الْأُولَى وَمَلَكَ الْمَدِينَةَ وَعَصَتْ عَلَيْهِ الْقَلْعَةُ .
فَقَزَلَ عَلَيْهَا مَنْ يُضَيِّقُ عَلَيْهَا وَرَحَلَ إِلَى حِمَاةِ قَلْعِكَ مَدِينَتَهَا مُسْتَهْلٌ
جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ . وَكَانَ بِقَلْعَتِهَا الْأَمِيرُ عِزُّ الدِّينِ
جُرْدِيكُ أَحَدُ الْمَمَالِكِ النُّورِيَّةِ . فَأَمْتَعَ فِي الْقَلْعَةِ فَذَكَرَ لَهُ صَلَاحُ
الدِّينِ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ إِلَّا حِفْظُ بِلَادِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا
هُوَ نَائِبُهُ وَقَصْدُهُ مِنْ جُرْدِيكِ الْمَسِيرُ إِلَى حَلَبَ فِي رِسَالَةٍ فَأَسْتَحْلَفَهُ
جُرْدِيكُ عَلَى ذَلِكَ . وَسَارَ جُرْدِيكُ إِلَى حَلَبَ بِرِسَالَةٍ صَلَاحِ
الدِّينِ وَأَسْتَحْلَفَ فِي قَلْعَةِ حِمَاةِ أَخَاهُ . فَلَمَّا وَصَلَ جُرْدِيكُ إِلَى حَلَبَ
قَبِضَ عَلَيْهِ كَشْتَكِينَ وَسَجَنَهُ . فَلَمَّا عَلِمَ أَخُوهُ بِذَلِكَ سَلَّمَ الْقَلْعَةَ إِلَى
صَلَاحِ الدِّينِ فَلَمَّكَهَا

ثُمَّ سَارَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى حَلَبَ وَحَصَرَهَا وَبِهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ .
فَجَمَعَ أَهْلَ حَلَبَ وَقَاتَلُوا صَلَاحَ الدِّينِ وَصَدُّوا عَنْ حَلَبَ وَأَرْسَلَ
سَعْدُ الدِّينِ كَشْتَكِينَ إِلَى سِنَانِ مُقَدِّمِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ أَمْوَالًا عَظِيمَةً
لِيَقْتُلُوا صَلَاحَ الدِّينِ . فَأَرْسَلَ سِنَانُ جَمَاعَةً وَوَثَبُوا عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ
فَقَاتَلُوا دُونَهُ . وَأَسْتَمَرَ صَلَاحُ الدِّينِ مُحَاصِرًا حَلَبَ إِلَى مُسْتَهْلٍ
رَجَبٍ وَرَحَلَ عَنْهَا بِسَبَبِ زَوْلِ الْفَرَنْجِ عَلَى خِمَصٍ وَسَارُوا إِلَى
خِمَصٍ . فَرَحَلَ الْفَرَنْجُ عَنْهَا وَوَصَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى خِمَصٍ وَحَصَرَ

قَلَعَتَهَا وَمَلَكَهَا فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ . ثُمَّ سَارَ
إِلَى بَعْلَبَكْ فَلَمَّا

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ مُلْكُ صَالِحِ الدِّينِ لِهَذِهِ الْبِلَادِ . أَرْسَلَ الْمَلِكُ
الصَّالِحُ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي صَاحِبِ الْمَوْصِلِ لِيَسْتَنْجِدَهُ
عَلَى صَالِحِ الدِّينِ . فَجَهَّزَ جَيْشَهُ صُحْبَةً أُخْبِيهَ عِزُّ الدِّينِ مَسْعُودُ بْنُ
مَوْدُودِ زَنْكِي وَجَعَلَ مُقَدِّمَ الْجَيْشِ الْكَبِيرِ أَمْرَانِيَهُ وَهُوَ عِزُّ الدِّينِ مُحَمَّدُ
وَلَقَبُهُ سَلْفَنْدَارُ وَطَلَبَ أَخَاهُ الْأَكْبَرَ عِمَادَ الدِّينِ زَنْكِي بْنَ مَوْدُودِ
صَاحِبَ سِنْجَارٍ لِيَسِيرَ فِي الثَّجْدَةِ أَيْضًا . فَأَمَّتَعَ ضَاحِكَةً لِمُصَالِحِ
الدِّينِ . فَسَارَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي وَحَصَرَهُ بِسِنْجَارٍ وَوَصَلَ عَسْكَرُ
الْمَوْصِلِ صُحْبَةً مَسْعُودِ بْنِ مَوْدُودِ وَسَلْفَنْدَارُ إِلَى حَاطٍ وَأَنْفَضَ إِلَيْهِمْ
عَسْكَرُ حَاطٍ وَسَارَ إِلَى صَالِحِ الدِّينِ . فَأَرْسَلَ صَالِحُ الدِّينِ يَدْلِي
خِمَصَ وَحِمَاةً وَأَنْ يَهْرَ بِيَدَيْهِ دِمَشْقُ وَيَكُونُ فِيهَا نَائِبًا لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ .
فَلَمْ يَجِيبُوا إِلَى ذَلِكَ وَسَارُوا إِلَى قِتَالِهِ وَأَقْتَتَلُوا عِنْدَ قُرُونِ حِمَاةٍ
فَانْهَزَمَ عَسْكَرُ الْمَوْصِلِ وَحَاطَ وَغَنِمَ صَالِحُ الدِّينِ وَعَسْكَرُهُ أَمْوَالَهُمْ
وَتَبِعَهُمْ صَالِحُ الدِّينِ حَتَّى حَصَرَهُمْ فِي حَاطٍ وَقَطَعَ حَيْثُ خُطْبَةٌ
الْمَلِكِ الصَّالِحِ بْنِ نُورِ الدِّينِ وَأَزَالَ اسْمَهُ عَنِ السِّكَّةِ وَأَسْتَبَدَّ
بِالسُّلْطَانَةِ . فَرَأَسُوا صَالِحَ الدِّينِ فِي الصُّلْحِ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا بِيَدِهِ
مِنَ الشَّامِ وَلِلْمَلِكِ الصَّالِحِ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْهُ فَصَالَحَهُمْ عَلَى ذَلِكَ
وَرَحَلَ عَنْ حَاطٍ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ شَوَّالٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ .

وَفِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ شَوَّالٍ مَلَكَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ قَلْعَةَ
بَارِينَ وَأَخَذَهَا مِنْ صَاحِبِهَا فَخَرَّ الدِّينِ مَسْعُودُ بْنُ الزَّعْفَرَانِيِّ . وَكَانَ
فَخْرُ الدِّينِ الْمَذْكُورُ مِنْ أَكْبَارِ الْأُمَرَاءِ النُّورِيَّةِ

ذِكْرُ أَنْهَزَامِ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي صَاحِبِ الْمَوْصِلِ

مِنْ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَفِيهَا عَاشِرَ شَوَّالٍ
كَانَ الْمَصَافَّةُ بَيْنَ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ وَبَيْنَ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي
بْنِ مَوْدُودِ بْنِ زَنْكِيِّ بَنَى السُّلْطَانُ فَهَرَبَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي
وَالْعَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُ . فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَجَدَّ بِصَاحِبِ
حِصْنِ كَيْفَا وَصَاحِبِ مَارِدِينَ وَغَيْرِهِمَا وَثَمَّتْ عَلَى سَيْفِ الدِّينِ غَازِي
الْهَزِيمَةُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَوْصِلِ مَرْغُوبًا وَقَصَدَ الْهُرُوبَ مِنْهَا إِلَى
بَعْضِ الْقِلَاعِ قُتَيْبَةُ وَزِيرُهُ وَأَقَامَ بِالْمَوْصِلِ وَاسْتَوَلَى السُّلْطَانُ صَلَاحُ
الدِّينِ عَلَى أَثْقَالِ عَسْكَرِ الْمَوْصِلِ وَغَيْرِهِمْ وَغَنِمَ مَا فِيهَا . ثُمَّ سَارَ إِلَى
بَرْزَاةٍ وَحَصَرَهَا وَتَسَلَّمَهَا . ثُمَّ سَارَ إِلَى مَنبِجٍ فَحَصَرَهَا فِي آخِرِ شَوَّالٍ .
وَكَانَ صَاحِبُهَا قُطْبُ الدِّينِ يَنَالُ بْنُ حَسَّانٍ الْمُنْجِي شَدِيدَ الْبُغْضِ
لِصَلَاحِ الدِّينِ وَفَتَحَهَا عَنُودٌ وَأَسَرَ يَنَالَ وَأَخَذَ جَمِيعَ مَوْجُودِهِ . ثُمَّ
أَطْلَقَهُ فَسَارَ يَنَالُ إِلَى الْمَوْصِلِ فَأَقْطَعَهُ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي مَدِينَةَ
الرَّقَّةِ .

ثُمَّ سَارَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى عَزَازٍ وَنَازَلَهَا ثَالِثَ ذِي

الْقَمَدَةِ وَكَسَلَهَا حَادِي عَشَرَ ذِي الْحِجَّةِ . فَوَثَبَ إِسْمَاعِيلِيُّ عَلَى
صَلَاحِ الدِّينِ فِي حِصَارِهِ عَزَازَ فَضْرَبَهُ بِسِكِّينٍ فِي رَأْسِهِ فَجَرَحَهُ
فَأَمْسَكَ صَلَاحُ الدِّينِ الْإِسْمَاعِيلِيَّ وَبَقِيَ يَضْرِبُ بِالسِّكِّينِ فَلَا
يُؤَثِّرُ حَتَّى قُتِلَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . وَوَثَبَ آخَرُ عَلَيْهِ فَقُتِلَ
وَنَالَتْ قَتْلَ أَيْضًا وَتَجَا السُّلْطَانُ إِلَى خَيْمَتِهِ مَذْعُورًا وَأَعْرَضَ جُنْدَهُ
وَأَبْعَدَ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْهُمْ . وَلَمَّا مَلَكَ السُّلْطَانُ عَزَازَ رَحَلَ عَنْهَا وَنَازَلَ
حَلَبَ فِي مُتَّصِفِ ذِي الْحِجَّةِ وَحَصَرَهَا وَبِهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ وَأَنْقَضَتْ
هَذِهِ السَّنَةُ وَهُوَ مُحَاصِرٌ لِحَلَبَ . فَسَأَلُوهُ فِي الصُّلْحِ فَأَجَابَهُمْ إِلَيْهِ
وَأَخْرَجُوا إِلَيْهِ بِنْتًا صَغِيرَةً لِنُورِ الدِّينِ فَأَكْرَمَهَا وَأَعْطَاهَا شَيْئًا كَثِيرًا
وَقَالَ لَهَا : مَا تَرْوِمِينَ : فَقَالَتْ أُرِيدُ قَلْعَةَ عَزَازَ وَكَانُوا قَدْ عَلِمُوهَا
ذَلِكَ . فَسَلَّمَهَا السُّلْطَانُ إِلَيْهِمْ وَأَسْتَقَرَّ الصُّلْحُ وَرَحَلَ السُّلْطَانُ مِنْ
حَلَبَ فِي الْعِشْرِينَ مِنَ الْحَرَمِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ

سباني القسم الثالث من نخب الملح

من كتاب العبر لابن خلدون

ومن كتاب نفع الطب من ضمن الاندلس للمقري

ومن كتاب الافادة لابي اللطيف

ومن كتاب تحفة النظار في غرائب الامصار لابن بطوطة

ومن كتاب عجائب المخلوقات لابن محمد القزويني

فهرسة

الجزء الثاني

وجه	
٣	نخبة من مقدمة جنود بن سحوان ويُعرف بعلي بن الشاه الفارسي
٢٦	بغثة برزويه الى بلاد الهند
٣٧	معركة الواقوصة
٤٠	مرور خالد من العراق الى الشام
٤٣	معركة اجنادين
٤٥	افتتاح دمشق
٤٩	افتتاح بلاد فارس . وقعة القرقس
٥٢	وقعة البويب
٥٨	ذكر خلافة هرون الرشيد
٦٣	شرح حال الوزارة في ايامه
٦٨	سيرة الفضل بن يحيى
٧٣	سيرة جعفر بن يحيى البرمكي
٧٩	شرح السبب في نكبة البرامكة وكيفية الحال في ذلك
٨٠	شرح مقتل جعفر بن يحيى والقبض على اهله
٨١	وزارة ابي العباس الفضل بن الربيع
٨٢	ذكر خلافة ابي احمد مبداه المستعصم بالله
٨٩	ذكر خلافة الحاكم بامر الله
١٠٣	عبارة تتعلق بفتوحات هفتكين وانكساراته
١١١	ذكر مسير الاقربغ الصليبيين من عكا الى عسقلان
١٢١	ذكر وقعة جرت
١٢٢	ذكر مراسلة جرت
١٢٢	ذكر اجتماع الملك المعادل والانكشار
١٢٤	ذكر وقعة ارسوف وهي انكت في قلوب المسلمين
١٢٣	ذكر وفاة نور الدين وما كان له من الصفات
١٣٤	ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها
١٣٨	ذكر اخزام سيف الدين قازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

تتبع
١٣٨٥

